سميح مسعود

حيفا... بُرقة

البحث عن الجذور

سيرة ذاتية

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

دار الفارابي

سميح مسعود

حيفا... بُرقة

البحث عن الجذور

سيرة ذاتية

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

دار الفارابي

حَيفا.. بُرقة

سميح مسعود

البحث عن الجذور

سيرة ذاتية

دار الفارابي

الكتاب: حَيفا.. بُرقة البحث عن الجذور
المؤلف: سميح مسعود
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com
الطبعة الأولى: آذار 2013
ISBN: 978-9953-71-983-2
© جميع الحقوق محفوظة

الإهــداء

إلى ابنة عمتي حسناء دراوشه
التي عرّفتني على بعض جذوري
في فلسطين..

المقـدمة

تشاء المصادفات أن توصلني «التغريبة الفلسطينية» إلى كندا الواقعة في أقصى المعمورة؛ بلاد بعيدة تترامى خلف المحيطات، هي الأطول في العالم، يتسع مداها وتتعاقب أراضيها المغطاة بالثلوج بلا نهاية في رحاب فضاء يمتد شمالاً في المحيط المتجمد الشمالي عند التقاء أطراف السماء بالمحيط.

ورغم بعد كندا عن بلادي وشتات المنافي فإني لاأزال أحتفظ في ذاكرتي بكل مشاهد حياتي الماضية، أسترجعها دائماً من خبايا ذلك الزمن البعيد وأنا أعيش هنا في مدينة مونتريال، أستعيدها بمتعة كبيرة، تتجسد أمام ناظري، وأتنقل فيها من مشهد إلى آخر على امتداد أيام طفولتي الباكرة التي لاتزال ذاكرتي تحتفظ بكثيرٍ منها؛ أعيد تشكيل أمكنة مدن وقرى وحقول كثيرة من بلادي تشع بالدفء، وأعيد تكوين وجوه أناس عرفتهم أيام سنواتي الأولى في مسقط رأسي حيفا وقريتي بُرقة، مشدود الأجفان أنظر إليهم، وأراهم تدب حركاتهم على شاطئ البحر وفي الحقول والأزقة وأفنية البيوت، ويتناهى إلى سمعي صدى أصواتهم.. تصل مقاطع أحاديثهم وأغانيهم وحتى همساتهم إلى أذني، تغور في داخلي، وتشق طريقها بهدوء حتى الأعماق، تتشابك وتتفاعل تلك الذكريات مع واقع حياتي في الشتات وتُكون حالة فكرية أحملها وأطوف بها على امتداد مدارات أيامي المتعاقبة.

تستحوذ عليّ تلك الذكريات وتشدُني إلى أتلام جذوري البعيدة، تلوح أمامي دوماً بأضواء متوهجة. وكلما أُقَرِب إلى نفسي أمراً منها بعد مضي عقود طويلة، تدغدغني رغبة عارمة لنقشه في سطوري.. وتجدني أمسك قلمي بين الحين والحين وأنثر على أوراقي حروفي الصغيرة، أكتبها في نظرة استرجاعية حرفاً حرفاً، أجمعها في مقالات متناثرة، أحْيي فيها بعض أيامي الماضية، كنت فيها غير أنا الآن.. كنت فيها في وطني، أنام فيه وأصحو على مقربة من أنفاس والديّ الدافئة.

ومع الأيام تعمقت لدي رغبة الكتابة عن جذور أيامي الماضية، وازدادت بكيفية سريعة متصاعدة في السنوات القليلة الماضية، عندما لفحني وهج ذكرى مرور ما يقرب من ستين عاما على النكبة، اهتممت بالبحث في ذلك الحدث الحزين.. إنها لحظة تاريخية فارقة تستدعي استحضار تداعيات سنين خلت لفها الذل والقهر والانكسار، ومرارة تداعيات الهزيمة في منافي الغربة والشتات.

وبينما كانت الأفكار تدور في رأسي سريعة متدفقة حول النكبة وذكراها، وتتماوج أمام ناظريّ صور من بلادي متزاحمة متلاحمة ؛ دهشت لاهتمام بعض وسائل الإعلام العربية المرئية بالبحث عن جذور تلك الأحداث، وتابعت برامجها بحلقات متتابعة على مدى أيام طويلة فوجدتها عامرة بفحوى أحداث كثيرة لم تحظ بالتدوين من قبل، استعاد فيها مئات الأشخاص، ممن أسعفتهم الذاكرة وهم في غسق العمر على استحضار أحداث من أيامهم الماضية، أشبه ما تكون بشهادات حية متنوعة في حلقات متتابعة، تكشف عن جوانب خفية من حياتهم في قراهم ومدنهم قبل النكبة، وعن إرهاصات نزوحهم، وهم يُخرجون قسراً من بيوتهم حفاة عراة، ويُلقى بهم في مخيمات قصية مظلمة أقيمت على عجل، لتبدأ حياتهم في خيام بالية في بلاد غريبة، قضوا فيها عمرهم على مدار سنوات الشتات الطويلة.

كانت مشاهد الماضي تتلاحق في أحاديثهم، تحدثوا بكل عفوية بألفاظ تجمع بين العمق والبساطة عن قراهم ومدنهم وأهلهم ونضالهم وعن آلام ومآسي تشردهم وهم يلوحون بمفاتيح بيوتهم التي هجروها في عام 1948، وبصور عائلاتهم وبيوتهم ومقتنيات كثيرة حملوها معهم وقت الرحيل.

بساطة اللغة والسرد وتتابع الأحداث بسلاسة ساعدت على شد السامع إلى أحداث قديمة ملفعة بحرارة الماضي، تبدو أشبه بواقع اليوم المعيش كما لو أنها جزءٌ حيٌّ منه مع أنّها ليست منه، حدثت قبل نيفٍ وستين عاماً مضت.

لَقيتْ تلك الشهادات صدىً واسعاً، بدا منها أن للناس العاديين من اللاجئين صوتاً يفوق صوت التاريخ السياسي المفبرك، لأنها أقرب إلى الصدق والحقيقة من الرواية الرسمية، إنها بمثابة حبل سري يربط الفلسطيني بهويته الوطنية.

تابعتُ تلك الشهادات باهتمام زائد لما فيها من لوحات جاذبة تركت فيَّ أثراً كبيراً، وأيقظت في نفسي أحاسيس الطفولة الباكرة التي تَأبى أنْ تُنسى.

ارتبطت هاتيك الشهادات بطفولتي في معناها الواسع والعميق، مع أنها ليست عني، بل عن غيري، وأحالتني إلى معين لا ينضب من لحظات مشرقة بددت بها بعض ما يعتريني من كآبة تلاحقني في شتات المنافي البعيدة.

على امتداد أيام كثيرة أضافت تلك الشهادات وجوهاً جديدة، رجالاً ونساء أكدوا في بوحهم على شاشات فضائيات كثيرة على أهمية توثيق التاريخ الشفوي الفلسطيني في فصول نابضة متشابكة، بما يتفق مع الرواية الشعبية، وبما يساعد على حفظ ما تبقى من الذاكرة الجمعية على مدى الأيّام.

وأكدوا أيضاً على ضرورة جمع الشهادات الشفوية الحية من صدور الرواة ممن تبقى من جيل النكبة قبل أنْ تضيع مع مرور الزمن، وتدوين كل ما فيها من دلالات ومضامين منقوشة في ذاكرتهم ومتجذرة في داخلهم عن حياتهم الماضية في فلسطين، وحياة أسرهم، وصلة القرابة مع غيرهم من الأسر، لاستحضار جذورهم والتعرف على قراهم ومدنهم بكل حناياها ومداراتها وجزئياتها وما فيها من تفاصيل حتى لا تُنسى وتبقى وشماً في مآقي العيون.

يمكن بالشهادات الشفوية محاورة الذاكرة وإصدار إشارات وصور واقعية عن كل ما مضى، ويمكن بها ترديد نبرات أصوات مسموعة للآباء والأجداد، عند تتبع سير الاحداث التي شهدتها الساحة الفلسطينية قبل النكبة، والكشف عن تفاصيل معاناة الحرب والمجازر واقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه وتشريده في منافي الشتات.. ويمكن بها أيضاً رسم ملامح بؤر نابضة ومتوهجة لغدٍ آتٍ تتلاشى فيه معاناة التشرد والتشتت الفلسطيني.

قد لا يعرف الكثيرون أن ما تمَّ تجميعه من شهادات في مجال البحث عن الجذور الفلسطينية حتى الآن لا يغطي إلا جزءاً يسيراً من الرواية الكاملة، ولايزال أمام الرواة الكثير لتدوين كل ما في صدورهم، من ذكريات عن المكان والزمان وعذاب الرحيل والشتات والهجرة القسرية، من أجل الخروج برواية تاريخية جماعية كاملة لما حدث قبل وخلال وبعد 1948.

الرواية المطلوبة مغايرة للتأويلات والروايات المتوافرة، التي هي مجرد تاريخ رسمي وبعض طروحاته غير متجانسة، بل حتى متضاربة ومتناقضة لا تجسد في كثير من جوانبها المفصلية حقيقة الأحداث.. تتعاقب بمختلف أشكال البلاغة الكلامية في سلسلة زمنية طويلة (متقطعة أحياناً)

مفتقرة إلى المصداقية والوضوح، بحاجة إلى إعادة نظر حقيقية لما جاء فيها بتقصي حقائق الشهادات الشفوية الحية ومراجعتها وتحليلها للرد على الروايات السائدة.

استحوذت عليّ هذه المواضيع وجعلتني أفكر منذ أمد طويل في إصدار كتاب أضمنه جزءًا مما تختزنه ذاكرتي عن أيام مضت في فلسطين عشتها قبل النكبة والهزيمة.. أن أستل منها لحظات تدغدغني وتحرك مشاعري، تشكل جزءاً من حياتي، تطوف بي دوماً في مسقط رأسي حيفا وقريتي بُرقة، أريد من خلالها بتلهف زائد البحث عن فتات من جذوري، استحضار الطفولة بوعي حاضري الذي أحياه، وإعادة نصوص غائبة تراكمت في داخلي موشومة بخطوط متماوجة من جذور بلادي، أتلمس فيها مشاهدَ ما قبل النكبة، تتصل بالقرى والمدن الفلسطينية وما فيها من مآثر تراثية وعمرانية، وما فيها من حواكير وأشجار وحقول وحتى أتلام الأرض وأمواج البحر موجة موجة، ليس من أجل البكاء على الأطلال، بل من أجل التأكيد على عمق جذوري وجذور غيري من أبناء بلدي في فلسطين.

إن تسجيلي لتلك اللحظات على أوراقي بأحرف نافرة، لا يعني أنها على درجة من الأهمية والإثارة، وتحاكي ما لدى الآخرين الذين سبقوني في هذا المجال.. وإنما هي مجرد محاولة غريزية أريد بها أنْ أنثر بذور جذوري لأحفادي حتى لا يضيعوا في مضارب الشتات القصية، علِّي بهذا أدفعهم للتمتع بمخيلة عامرة عن فلسطين، ومقدرة فائقة على التعبير عن حبهم لها، واستحضارها ببؤر لاقطة، تعكس أرضها وسماءها وبحرها وترابها وكل ما فيها.

طفت في أوراق كتابي هذا في مدارات كثيرة، أدخلت فيها الزمن الماضي بالحالي، واستحضرت وجوهاً عزيزة على قلبي رحلت قبل زمن طويل.. لاقيت الوجوه بالوجوه في سطوري، ولامست أياديها الدافئة خبايا حروفي، أعدت معها إحياء كلمات كنت أسمعها في أحاديثهم، كانت تدور بين أمي وأبي، وبين أبي وأصدقائه، أعدتها بتوصيل مرآتي بانعكاسات مرايا أيامهم.. شكلت لي قاعدة ذهنية تعج بصور وأحداث كثيرة، هي العتبة الأساسية في سطوري.

وأياً كان الأمر، فما تقرأه عزيزي القارئ في كتابي، ليس أكثر من خيوط رفيعة أستلها من أيامي الماضية، آمل أن ترضيك، وأن أساهم بها في رسم شظايا أجزاء موجزة من جذوري في بلدي، تمتد على اتساع المكان في مسقط رأسي حيفا، وفي قريتي بُرقة، تمتلئ بدفء الشمس وبما تزفره أتلام الأرض من أشجار وزهور رائعة، وتنطق بحبي وهيامي لوطني، وتعيد رسم صور كثيرة مختلطة ومتشابكة لوالديّ ولوجوه أناس معهم كانوا ذات يوم حولي.. عملت على حشدهم في سطوري مشكلين دائرة كبيرة، أعدت أحاديثهم فيها وما قالوه قبل سنوات طويلة على الرغم من تباعد الزمان والمكان، فارقتهم عندما كنت في العاشرة من عمري، وها أنذا الآن في الرابعة والسبعين من عمري، ألتقي بهم على صفحات كتابي، أعيدهم ثانية إلى حيفا وبُرقة في غمرة عاطفة لا حد لها.. أعيدهم إلى أرض لنا عشنا فيها أياماً تأبى النسيان.

وأخيراً يبقى عليّ واجب التقدم بالشكرإلى الأصدقاء الذين شجعوني على إنجاز هذا الكتاب وأخص بالذكر منهم: عبد الكريم أبو شنب وبطرس حجارة وصفوان البخاري وطارق قديس ومحمد حسين الأطرش ودعاء الدحلة وخضرة أحمد نعيم.

المؤلف

مونتريال، عمان، في أوقات متقطعة من

عامي 2011، 2012.

(1)

يتسع مدى الذاكرة، وتشتد وطأة حيفا فيها، أضواء جميلة تلوح من مدينتي الأثيرة، تحملني أفكاري وتطوف بي في كل أرجائها، أستدفئ بها، أشعر بأنفاس بحرها الدافئة، أعبر دروبها سيراً على الأقدام إلى ما بعد ساحة الحناطير (الخمرة) ووادي الصليب، أواصل التقدم صعوداً عبر درج طويل متعرج، أواصل الصعود وسرعان ما أجد نفسي في أعالي الكرمل.

أجلس عند قمته على مقربة من غلالة أشجار خضراء باسقة تزين المكان، أتبين منها بسهولة شجر الصنوبر والسرو والسنديان والبلوط والزعرور والكينا والخروب، وبراعم اللوز والعنب والخوخ والتفاح، أواصل التأمل فيها، أرى أغصانها بألوانها الرقيقة تتمايل بهدوء بفعل رياح خفيفة، وعلى امتداد الأرض أرى أزهار الدحنون والنرجس وشقائق النعمان، لم أرَ لألوانها مثيلاً في أي مكان.

أنصت لصدى أصوات تنبعث حول تلك الأشجار والزهور البرية، تأتيني من أيام أخرى بعيدة، أصوات هادئة مترعة بالسعادة تمتزج في ذهني.. أواصل التأمل، وتستيقظ الذاكرة على صور لبيوت حيفا الحجرية البيضاء ولشوارعها وأزقتها، أشكلها كما كانت عليه في أربعينيات القرن الماضي، أراها في مكانها بين البحر وجبل الكرمل، واستنشق منها شيئاً من أيامي الماضية.

أراها في عينيّ من جديد، أشد امتلاءً وصفاءً وأكثر قرباً.

أطوف فيها وأستشعر المزايا التي جعلت منها قبل قرابة سبعين سنة خلت مدينة فريدة.

نعم كانت حيفا في ذلك الزمن على امتداد سنين طويلة تضفي مزايا جديدة باستمرار على مشهدها العام الذي عُرفت به.. انفردت بمزايا اقتصادية وثقافية وعمرانية كثيرة جعلتها تعيش ازدهاراً منقطع النظير؛ متميزة عن كثير من المدن الأخرى القريبة منها.. حولتها إلى مدينة كوزموبوليتانية بكل معنى الكلمة ؛ صورة مصغرة لمجتمع متعدد المنابت والأصول، توفر سبل عمل كثيرة متشابكة لأهل فلسطين، ولغيرهم من سكان الدول العربية الأخرى المجاورة لها وغير المجاورة.

كان الكثيرون يلجأون إليها للعمل، ينضمون على التوالي إلى سكانها، تمتلئ بهم، كانوا يأتون إليها من شرقي الأردن وسوريا ولبنان ومصر حتى من دول المغرب العربي، ومن روسيا وألمانيا وإيران والبوسنة وكازاخستان وبعض الدول الأوروبية الأخرى.

شبَّت فيها أجيال من منابت ومشارب مختلفة من الوافدين إليها بعلاقات اجتماعية مترابطة مع أهل البلاد ؛ يسودها جو من الاحترام والتعايش المشترك.. عملوا في كل مراكز حيفا وأنشطتها وعاشوا كأبنائها وساكَنوا أهلها في أجزاء منها هنا وهناك، في كل أحيائها وشوارعها والضواحي القريبة منها.

أستدرك الآن فيما أستغرق في حلم اليقظة، وأفتح قوساً مبيناً أنَّ لاجئي حيفا لا يُعاملون في كثير من الدول العربية بما يمليه واجب الضيافة العربية، كما كانوا يعاملون العرب في مدينتهم.. يعيشون في ظروف معيشية زريّة وغير إنسانية، حتى ولا يحق لهم ولغيرهم من لاجئي فلسطين العمل بحكم القانون اللبناني في أكثر من 70 وظيفة، ولا يحقّ لهم التملك حتى لو كان قبراً !

وأياً تكن الأسباب الحقيقية لما يجري لهم منذ ما يزيد على ستة عقود من الشتات، فإن الذي يقترف بحقهم من الكبائر.

أغلق القوس الآن وأنا أحاول تجاهل غصة في حلقي، وأعود لتبيان أسباب ازدهار حيفا وتألقها وامتلائها بالفرص الواعدة فيما مضى، تنجرف أفكاري الآن في مونتاج من الصور التي تلمع في ذهني مثل أفلام صامتة.

أقلبُ أوّل صورة منها، أجدها تجسد الخط الحديدي الحجازي، حيفا – درعا. فيها نُصب تذكاري شُيّد عام 1905على مقربة من مسجد الجرينه ؛ يظهر فيه رسم لقطار بخاري وشعار الدولة العثمانية، ويعتبر هذا الخط عتبة أولى في مسار ازدهار حيفا الاقتصادي، فقد ساهم في ربطها بدمشق والمدينة المنورة بأهمّ شبكة لنقل الركاب والسواح والحجاج والبضائع.

بفضل هذا المشروع الحيوي، وخط سكة حديد حيفا – القنطرة المصرية، الذي تم مده جنوباً نحو مدن فلسطينية كثيرة إلى مصر، تم زيادة حركة المسافرين والاستيراد والتصدير عبر حيفا، وزيادة الضغط على مينائها، مما أدى إلى بناء ميناء جديد قادر على استقبال أعداد كبيرة من السفن، له قدرة استيعابية تخزينية كبيرة لحفظ البضائع.

وفيما كان الدور الحيوي لشبكة الخطوط الحديدية وميناء حيفا الجديد يتصاعد في فلسطين وكل الدول المجاورة لها، سرعان ما زاد الطلب على الأيدي العاملة من داخل القرى والمدن الفلسطينية والدول المجاورة، وتحولت حيفا إلى بؤرة عمل هام في المنطقة العربية، حتى إنّه أطلق عليها لقب «أم العمل»، وأصبحت بهذا مركزاً اقتصادياً بلغ مدى كبيراً في أوائل سنوات الانتداب البريطاني لفلسطين، ميناء مزدهراً ومدينة نابضة تنتشر فيها مصانع الإسمنت والأسلاك الكهربائية والتبغ والغزل والنسيج وأعمال البناء والمحلات التجارية والأسواق والفنادق وكل الأنشطة المرتبطة بالسياحة، ويتجه فيها عدد السكان إلى تزايد مستمر بسبب الهجرة الداخلية والخارجية معاً، ويأتيها الزوار والسياح من كل مكان.

ونظراً لأهمية موقع حيفا الجغرافي كبوابة لشرقي الأردن والعراق وسوريا عبر البحر الأبيض المتوسط، اختيرت من قبل حكومة الانتداب البريطانية كمقر لإدارة خطوطها الحديدية، وكنقطة جغرافية بحرية ينتهي عندها خط أنابيب نفط العراق القادم من كركوك، لنقل النفط العراقي منها إلى الدول الأجنبية المستوردة للنفط.. كما وتم فيها أيضاً إقامة إدارة ضخمة لشركة نفط العراق (أي بي سي)، وإنشاء مصفاة لتكرير النفط في عام 1933على مقربة من تخومها الشرقية مَدت جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية بالنفط المكرر.

أعود إلى مونتاج الصور من جديد، وأرى صوراً كثيرة تطاردني تجسد الجوانب العمرانية في حيفا، تحرك مشاعري بيوتٌ بالغة الأناقة مبنية بحجر أبيض مدقوق بعناية كبيرة متناثرة في كل الجهات، تعلو أغلبها شرفات مطلة على مناظر رائعة لشاطئ البحر، وتتميز بحدائق واسعة تحيط بها مزروعة بأجمل الورود وتستخدم أحدث وسائل الري برشاشة متحركة على شكل مروحة.

تردُ على ذاكرتي تلك البيوت أراها كما كانت من قبل، أغدو وأروح حولها.. أدور ببصري يسرة ويمنة في كل جوانبها، أتنقل فيها من بيت إلى بيت بين أحياء حيفا الممتدة من أسفل المدينة على مقربة من الشاطئ حتى قمة جبل الكرمل وانعطافات سفوحه ببساتينها الساحرة المدهشة.

وأسترجع من أيام حيفا الماضية صوراً تعيها ذاكرتي، تلازمت مع انتعاشها الاقتصادي تنبض بمظاهر انتعاشات اجتماعية وإعلامية وفنية، تتجسد بعشرات المدارس الحكومية والخاصة والأندية الثقافية والاجتماعية والرياضية والفرق المسرحية والصحف.. كان فيها ثلاث فرق بارزة لكرة القدم من أهم الفرق الرياضية، لثلاثة أندية من الدرجة الأولى، «نادي شباب العرب» و«نادي الترسانة» و«النادي الإسلامي»، ومن أهم نجوم هذه الأندية جبرا الزرقا وميشيل الطويل وجورج مارديني(*).

وبينما كنت أقلب في ذاكرتي بقايا جذورٍ من موروث حيفا الرياضي، اطلعت على مقالة قيمة للدكتور مصطفى كبها، تواردت في بعض المواقع الإلكترونية بعنوان «من وحي المونديال.. أندية فلسطين الرياضية قبل النكبة» يشير فيها إلى أن «نادي شباب العرب» قد تأسس في عام 1934، وحصل على درع بلدية حيفا أربع مرات وعلى بطولة الدوري الفلسطيني مرتين، وأن «النادي الإسلامي» قد تأسس في العام 1929 وحصل على درع مدينة حيفا ثلاث مرات وعلى بطولة الدوري الفلسطيني مرة واحدة.

وكان هناك في حيفا نهضة إعلامية بدأت مبكراً مع بداية القرن الماضي، مجلات وجرائد كثيرة بلغ عددها منذ عام 1908 وحتى النكبة 31 مجلة وجريدة، ظهرت منها مبكراً في أواخر العهد العثماني مجلة «النفائس العصرية» الثقافية لخليل بيدس (1908)، وجريدة «الكرمل» لنجيب نصار الملقب بشيخ الصحفيين الفلسطينيين (1907)، وجريدة «النفير» لإيليا زكا (1924)، ومجلة «الزهرة» لجميل البحري (1922) وجريدة «الزهور» لجميل البحري (1927) وجريدة «الاتحاد» التي أصدرها إميل توما وإميل حبيبي وتوفيق طوبي كجريدة أسبوعية عام 1944، صدرت عن «اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب»، وكان إميل توما أول رئيس تحرير لها، ولاتزال تصدر حتى الآن كجريدة يومية للجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة.

يهمني هنا استحضار جانب من الأنشطة الفنية التي تدل على رغد عيش أهل حيفا السابقين، تحمل الذاكرة منها صوراً كثيرة لمسارح ودور سينما ومتنزهات.. وبينما كنت أخط هذه السطور توقف ناظري عند خبايا الأرشيف الفلسطيني في الناصرة، وجدت فيه ما يؤكد على أن أم كلثوم زارت حيفا بالقطار في زمن مضى، وأحيت حفلتين غنائيتين، إحداهما في شارع الملوك وثانيتهما في مسرح متنزّه الانشراح الشهير، غنت فيه بعد أن أرخى الليل أستاره الرقيقة على حيفا في تلك الأمسية، أغنية «أفديه إن حفظ الهوى».. تحمست سيدة حيفاوية ساعتئذ وصرخت ضاغطة على حبالها الصوتية من شدة طربها قائلة لأم كلثوم: «أنت كوكب الشرق»

وهكذا نالت أم كلثوم لقب كوكب الشرق في حيفا. أطلقته عليها سيدة مجهولة اسمها أم فؤاد، والتصق هذا اللقب بأم كلثوم طوال حياتها.

وغنى في حيفا محمد عبد الوهاب ومنيرة المهدية وفريد الأطرش وأسمهان وسهام رفقي وحليم الرومي (الذي عاش فيها مع أسرته وعمل وأنهى دراسته في المعهد الموسيقي العربي) وغيرهم.

وقدم يوسف وهبي على مسارح حيفا عروضاً مسرحية مع فرقة رمسيس، كما قدّم مثله عروضاً فيها المسرحي المشهور جورج أبيض وزوجته دولت أبيض، وقَدّمت عروضاً أيضاً فرقة عكاشة الكوميدية وغيرها من الفرق التمثيلية الأخرى.

هذا الجانب من حيفا الذي أتحدث عنه هو الجزء العربي الذي كان يمتد ما بين الشاطئ وجبل الكرمل متفرعاً في أحياء كثيرة منها: وادي الصليب والكنائس ووادي النسْناس والحليصة ووادي رشميا والغزازوة والبرج والزيتون وعباس والمحطة والشوام ووادي الجمال والألمانية، وغيرها من الأحياء الأخرى، كانت من الجمال بحيث لا يستطيع أي رسام مهما حاول أن يتخيلها، تميزت بحفاظها على الأصالة والحداثة معاً ؛ موروث تاريخي معماري من زمن مضى، وإضافات معمارية تتلاءم مع روح العصر.

وهناك الجانب اليهودي من حيفا الذي يتميز بمواقعه العالية الحصينة ؛ من محلة النبي شعنان إلى فرش الحلقة ثم إلى الهدار فالكرمل نفسه ؛ يُشرف منها إشرافاً كلياً على الأحياء العربية من جسر شل إلى وادي الجمال ومن الجبل إلى الشاطئ، وقد ساهمت سيطرة الإنجليز أثناء فترة الانتداب في منح اليهود أولويات التطوير في أحيائهم ومساعدتهم وتسهيل أمورهم، كما تم ذلك في مدن فلسطين الاخرى.

وثمة جانب آخر من حيفا، كانت تقع فيه ثكنات جيش الانتداب البريطاني، كان جنوده يعيشون فيه في راحة وترف، ويقيمون الاستعراضات العسكرية ويطوفون بها في الشوارع الرئيسة. وكان أهل حيفا وكل أهل فلسطين ينقمون على الإنجليز، على وجودهم، وعلى تحكمهم في مقاليد الأمور، وكانت هذه النقمة مكبوتة حيناً وظاهرة حيناً، وثورة عارمة كما جرى في ثورة «36» بسبب أعمالهم الغادرة ضدّ المصالح العربية، ووقوفهم المنحاز مع اليهود لتنفيذ وعد بلفور وإقامة دولة يهودية في فلسطين.

***

أستأنفُ الآن الحديث عن الوضع الجغرافي لحيفا، عن موقعها الطبيعي الجميل على الشاطئ الجنوبي لخليج عكا.. أعود إلى ذاكرة المكان، وأجدها تمتاز بموقعها الطبيعي الجميل.. تعانق أمواج البحر الأبيض المتوسط، تترامى على امتداد شاطئ تكمن فيه أيقونة تسلب الألباب، ويمتد عمرانها جنوباً إلى أعلى دون انقطاع حتى يبلغ جبل الكرمل بمناظره الطبيعية الساحرة، ويتسع نطاق عمرانها في طرفيها الغربي والشرقي عبر أرضٍ منبسطة ومفتوحة تصل من جهة الغرب الى أراضي قرية الطيرة، ومن جهة الشرق إلى أراضي قرية بلد الشيخ.

أواصل السير في تقاطعات ذاكرة المكان، في الأماكن ذاتها التي كنت أعرفها أيام طفولتي، أجول ببصري حولي، وأجد نفسي على مقربة من مدخلين رئيسيين لحيفا: أولهما شارع حيفا - يافا الساحلي الذي يمتد في الجهة الغربية من المدينة بموازاة البحر، ويتجه نحو السوق القديم والبلدة القديمة مروراً بمناطقها الغربية، وثانيهما شارع من الجهة الشرقية يتجه في خط مستقيم إلى جسر شل، وعند هذا الجسر يتفرع إلى شارعين، أحدهما يتجه إلى شارع صلاح الدين، فجسر رشميا ثم الهدار، والآخر يتجه بتفرعاته إلى البوابة الشرقية.

(2)

يجتاحني إحساس أن أكرر هنا ثانية ما ذكرته في مستهل سطوري، وهو أنني لا أكتب سيرة حياتي الذاتية.. أموري الشخصية هذه لا تعنيني من قريب أو بعيد، الذي يهمني هو الحديث عن علاقتي بالمكان.. الوطن، الذي يحيا في داخلي ويحاصرني في أعماقي، وأراه دوماً أمامي في كل لحظات حياتي بكل ما فيه من تراب وأشجار وحجارة وحتى أمواج البحر ورذاذ الندى.

تدغدغني رغبة جارفة في الكتابة عما في ذاكرتي من توهجات جذوري وماضي حياتي في حيفا وبُرقة وأجزاء أخرى من وطني، أسترجع فيها على أوراقي تفاصيل أيّام طفولتي التي عشتها في فلسطين بدون إثارة وبدون أي مؤثر خارجي.

وفي كل الأحوال، يتضح لي هنا ضرورة تعريف صلة الوصل بيني وبين حيفا.. صلتي بها توغل عميقاً في داخلي، بدأت مع الأيام الأولى من طفولتي الباكرة.. إنها مسقط رأسي ومهد صباي، فيها تفتحت عيوني وبدأت حياتي.. علاقتي بها أقوى من كل شيء يمكن للإنسان أن يحسه، فيها أشعر بالسعادة وأعرف من أنا ومن أكون.

ولدتُ في حيفا في منزل يقع تحت منحدر هضبة منخفضة في الجهة الشرقية من المدينة، تتسع أمامه ساحة كبيرة فارغة متاخمة لشارع الناصرة، يمتد على جانبها الأيمن شارع يتجه صعوداً إلى جبل الكرمل، وعلى جانبها الأيسر توجد بناية من طابقين يمتلكها الحاج محمد أبو حوا تعرف باسم عمارة أبو حوا، تقع على مقربة من عمارة الكرنك ومقهى العجمي وعدد كبير من المحلات التجارية المقامة على امتداد جانبي شارع الناصرة باتجاه مركز المدينة.

أخبرني والداي أنني ولدت في صبيحة آخر يوم من أيام عام 1938، كانت أسرتي تعيش في حيفا وقتذاك. حيث كان يعمل أبي موظفاً في القسم الفني في دائرة البريد والتلفون والتلغراف (البوسطة). لم يكن والداي من حيفا في الأصل، فقد ولدا في قرية بُرقة التي تنحدر منها عائلتاهما، ويمتلك فيها جدي الأكبر أراضيَ بمساحات شاسعة.

تقع بُرقة(**) على جزء من امتدادات جبل النار إلى جانب الطريق الواصل ما بين نابلس وجنين في الشمال الغربي من مدينة نابلس، على مسافة تقارب 18 كيلومتراً منها، وهي بلدة كبيرة كانت تعد في الفترة العثمانية من قرى الكراسي المسؤولة إدارياً عن عدد من القرى الصغيرة المجاورة لها التي ارتبطت معها ارتباطاً حياتياً في سهل وادي الشعير الشرقي المنبسط على امتداد مساحة واسعة من الأراضي الزراعية الخصبة، منها: سبسطية والناقورة واجنسنيا وبيت امرين ونص جبيل ودير شرف وبزاريا.

فيما أمد أمامي أوراقي الآن، وتتحرك أيامي الماضية في صور تلمع في ذهني، تطوف بي في كل مكان، أتذكر أحاديث أمي وأبي عن وقت ولادتي، كانا يتحدثان بحماس بأنني بدأت حياتي وأبصرت النور مع أحداث العام الثاني لثورة «36» التي اندلعت ضد قوات الانتداب البريطاني.

كثيراً ما كرر والدي أمامي في أحاديثه بأنني ولدت يوم انفجار عدة قنابل يدوية في إحدى أسواق حيفا المكتظة بالناس، ما أدى إلى استشهاد عشرات المواطنين من سكان المدينة، وأنّه في أيّامي

الأولى زُرعت لأول مرة ألغام موقوتة كهربائياً في سوق مكتظ في حيفا.

كان يتابع أحاديثه في هذا الشأن ضمن مجراها العام، قائلاً وتعابير الحزن تطل من عينيه: «في عامك الأول ازدادت الثورة انتشاراً في كل أنحاء فلسطين، وأيامك الأولى كانت مثقلة بأحداث كثيرة مجبولة بأصوات متفجرات وأصوات زخات طلقات في أحياء البلدة التحتا من حيفا، ومع انتصاف عامك الأول تراجعت بريطانيا عن مشروع تقسيم فلسطين الذي اقترحته لجنة بيل من قبل، وقبل أن تكمل عامك الأوّل توقفت الثورة في أيلول 1939 مع اندلاع الحرب العالمية الثانية».

برغم يفاعة سني استطعت أنْ أتفهم أحاديث أبي وأتحسس ما يجري في حيفا من أحداث. ساعدت أحاديثه على تدافع أسئلة كثيرة في رأسي، كنت أطرحها عليه بين الحين والحين، وأسمع منه أجوبة رسخت في نفسي فرط اهتمام زائد بأحداث بلدي.

كانت أمي منذ نعومة أظفاري تدعم أحاديث أبي بتفاصيل منها تتألف من أحداث كثيرة تكشف عنها بتعبيرات خاصة بها، وحين أعود الآن بذاكرتي إلى لقطات أحاديثها عن وقت ولادتي بالذات، تبرز أمامي فجأة صورتها وهي تختصر الأمور في أحاديثها بحكاية واحدة كانت متجذرة في داخلها، ردّدتها على مسمعي كثيراً بحزن شديد وبصوت تخنقه الغصة.. كانت تقول لي وهي رافعة ذقني براحة يدها: «في شهورك الأولى استشهد أحد أبناء عمومتي ؛ قائد الثورة العام عبد الرحيم الحاج محمد آل سيف «أبو كمال»».

كنت أنظر إليها محدّقاً في وجهها وهي تردد تلك الكلمات، وأزداد تعلقاً بها كلما رأيت الدموع تنحدر من عينيها على إيقاع حديثها عن أهوال أحداث استشهاد قريبها.

كرّرت أمي هذه الكلمات على مسمعي مئات المرات، كانت تارة تضيف إليها بعض الأوصاف لابن عمومتها الراحل، مثل: المجاهد والقائد وزينة الرجال. كانت تكسر في داخلي ظلال الحاجز القائم بين الصحو والحلم.. بين الواقع الخارجي المعيش، وداخل الطفل الصغير، وتصوير الواقع له بجوانبه المتعددة المعقدة المختلفة والمتنوعة.

بدأت بسماع هذه الأحاديث مبكراً، ومع مرور السنين، بدأت أتفهم مكنون تلك الأحاديث. كانت يقظتي مبكرة ومحتشدة على إرهاصات ما يحصل حولي من أحداث سياسية وصدامات كثيرة تقافزت مع الأيام، رسخت في نفسي فرط عشق زائد بمسقط رأسي، كما نسجت علاقات حميمية بكل ما يتصل ببلدي على إيقاع مؤثرات وانفعالات مفعمة بالأحلام والتأمل.

مع الأيام، استوعبت مكانة قريب أمي «أبو كمال» في ثورة «36»، بعد أن قرأت الكثير عن مسيرته النضالية على صفحات المجلات والجرائد، تعرفت على حقائق هامة عنه كقائد تاريخي كبير تعج بها كتب التاريخ.. أضربت القرى والمدن الفلسطينية يوم استشهاده ورفعت الأعلام السوداء.

قرأت في كتب التاريخ أنَّ أحد الخونة المنضمين إلى «فصائل السلام» ساعد القوات البريطانية على الظفر بقريب أمي، وهي الفصائل العميلة التي كان وراءَها سيئ الذكر فخري النشاشيبي الذي كان يتعاون مع البريطانيين كعميل رخيص لهم ضد الثورة، هو نفسه الذي جلس أيضاً مع عمه راغب النشاشيبي بجانب بلفور ساعة افتتاح الجامعة العبرية في القدس في عشرينيات القرن

الماضي.. لاحقت الثورة فخري النشاشيبي بعد أنْ حكمت عليه بالإعدام، وتم قتله بعد عامين في بغداد وألقي كأمثاله من العملاء في مزابل التاريخ.

***

شاءت المصادفات أنْ أمر قبل أعوام في شارع يتفرع من الدوار السادس في عمان باتجاه حي الصويفية أحد أحياء عمان الحديثة، وجدت نفسي فجأة أمام شارع كبير يحمل اسم «الشهيد عبد الرحيم الحاج محمد «أبو كمال»، يمتد من أعلى نقطة في حي الصويفية على مقربة من الدوار السادس إلى أدنى نقطة من هذا الحي عند شارع الوكالات.

كلما أمر من هذا الشارع أتذكر أحاديث أمي عن قريبها، التي كانت تحدثني بها في عز اليفاعة، في أيام خوال قبل سنوات طويلة، في لحظات عشتها معها في ذاك الزمن البعيد.

(3)

تُضيء ذاكرتي بصور كثيرة من أيام الطفولة الباكرة، أجد واحدة منها بؤرة لاقطة لا تختفي أبداً، تتسرب في أعماقي وتستوطن ثنايا الذاكرة موشومة بكثير من الأحزان، تتصل بمرض شلل مفزع أصابني منذ ولادتي، أقعدني طوال سنواتي الخمس الأولى، وبذل والداي تضحيات جسيمة طوال تلك السنوات، بمنحي الوقت الكافي عند الأطباء، بالتنقل معي من طبيب إلى طبيب في حيفا وغيرها من المدن الأخرى.

عشت في ثنائية وجدانية في سنوات يقظتي المبكرة، محاطاً بصعوبات مرضية عميقة الوقع من ناحية، وحياة حلوة هنيئة مليئة بالحب والعطف في حمى أب رؤوف وأم رؤوم من ناحية أخرى.

ونظراً لأن والدي كان يمارس عمله بدوام منتظم على مدار الأيام الجارية، فقد كانت أمي تتحمل العبء الأكبر في أمور علاجي وأخذي إلى الأطباء، والتنقل بين العيادات الطبية والمستشفيات، وبخاصة مستشفى حمزة والمستشفى الإنجليزي والمستشفى الإيطالي.. كنت أرى الحزن في عينيها وهي تحملني، وتبكي بكاء مضاعفاً عندما ترى الأولاد من أبناء جيلي يلعبون في الساحة الواسعة المتاخمة لمنزلنا، كنت أسمعها وهي تبتهل إلى الله بكل ما في الابتهال من ضراعة، كانت تنذر النذور طوال الوقت وتقدم المساعدات للمحتاجين من أجل شفائي.

مضت أيام طفولتي الباكرة في حيفا بطيئة. التفكير بها الآن يرفع من آماد خيالي، أحلق فيها أبعد وأبعد، وأفتح آفاقاً واسعة للعلاج وللأطباء والمستشفيات.

كنت طوال سنواتي الخمس الأولى مقعداً أجر ساقيّ جراً، لا أستطيع المشي واللعب مع الأطفال.

وذات يوم عند عودة والدي من عمله، كانت أمي بانتظاره عند الباب الخارجي، وفيما اجتازا ممشى ساحة البيت، أخذ يحدثها بنبرة حالمة عن طبيب ألماني جديد انضم إلى مستشفى «حمزة». كنت أجلس على كرسيي المتحرك. اتجهت نحوهما وتجلى لي أكثر وأكثر اهتمام والدي بالطبيب الأجنبي الجديد.

في وقت لاحق بعد ظهيرة ذلك اليوم الدافئ، اصطحبني والداي إلى مستشفي حمزة لمقابلة الطبيب الجديد.. كان هذا المستشفى أهم مستشفيات حيفا في ذلك الوقت، تم تأسيسه في عام 1938، واعتبر كمستشفى حكومي للانتداب، كان يديره الدكتور نايف حمزة، ويعمل فيه أطباء بتخصصات مختلفة عرب وأجانب، منهم الدكتور شفيق حداد والدكتور سيمون بطيش والدكتور عبد اللطيف اليشرطي(***) من حي المجادلة في عكا، وهو لايزال حياً حتى الآن جاوز التسعين من عمره يقيم في سكوتلندا.

بعد برهة وجيزة من وصولنا المستشفى دخلنا عيادة الدكتور هانس، وسرعان ما أخذ يتجاذب أطراف أحاديث روتينية مع والديّ من خلال مترجم عربي يتقن اللغة الألمانية.. بعد كل هذا العمر لاأزال أتذكره بصلعته الواسعة ونظارته الطبية الصغيرة المستديرة، شخص محبب في أواخر الأربعينيات من العمر عريض المنكبين، ترتسم دوماً على وجهه ابتسامة هادئة، ويفيض حيوية ونشاطاً وصحة.

حملني والدي إلى غرفة معاينة صغيرة في العيادة مضاءة بأنوار ساطعة.. تمرُّ الدقائق مثل ساعات فيما أراقب الدكتور هانس وهو يعاينني بعناية بطريقة مختلفة لم أتعود عليها من قبل مع غيره من الأطباء؛ ركز على معاينة الأعصاب بتحريك ساقيّ نحو اليمين واليسار، ومن ثم رفعهما إلى أعلى وأنزلهما إلى أسفل، وضرب الركبتين بأداة صلبة أشبه ما تكون بالمطرقة، كما وكرر غرس إبرة في أماكن مختلفة من الجزء السفلي من جسدي.

بعد معاينتي، قال لوالديّ عبر مترجمه: «ابنكم أعصابه سليمة ومرضه قابل للشفاء.. كل ما يحتاجه تقوية عضلات رجليه، بتناول الأدوية بانتظام، والدوام على جلسات للعلاج الطبيعي لمدة عام كامل لتقوية عضلات رجليه، ولا بد أنْ أراه كل أسبوع مرة للتأكد من تحسن أحواله».

كانت أمّي على وشك الإغماء من شدة السعادة، فركت يديها بحسرة ومرارة وقالت: «إنه الآن في الرابعة من عمره، هل حقاً سيسير على قدميه بعد عام من العلاج؟»

أكد لها الدكتور هانس أنني بعد انتهاء فترة العلاج سأسير على قدمي وألعب كبقية الأولاد! وهذا ما تمَّ فعلاً، فقد بدأت صحتي بالتحسن رويداً رويداً، وما من كلمات تصف شعوري عندما بدأت المشي بشكل طبيعي في نهاية العلاج، أخذت أخطو خطوات الأصحاء خطوة تلو أخرى، اتسعت خطواتي إلى دائرة أوسع من الخطوات كشفت لي عن حقيقة كثير من المعاني الطبيعية الرحبة في حياة الأصحاء كنت أجهلها.

(4)

في ليلة صيفية كانت السماء فيها صافيةً والقمر يرسل ضوءه الحريري في كل اتجاه، أقام والدي حفلة ساهرة بمناسبة شفائي، دعا لها الدكتور هانس ومترجمه وممرضة من قرية جبع اسمها عائشة، امرأة في منتصف العمر نحيفة الجسم ذات عينين تتسمان باللطف، كانت تهتم بي اهتماماً خاصاً أثناء علاجي وعلى مدى أيام زيارتي للمستشفى توثقت علاقتها بأمّي فتوطدت صداقة متينة استمرت طوال حياتهما. ودعا أيضاً جميع جيراننا وعدداً من أصدقائه المقربين.

أقيمت الحفلة في ساحة قريبة من منزلنا مليئة بالورود والياسمين والفل، ونباتات نجيلية خرجت من باطن الأرض بخضرتها الزاهية. جلس الضيوف مشكلين دائرة غير منتظمة يقف في وسطها حدّاء طويل القامة بعينين ثاقبتين، يرتدي قمبازاً مخططاً وبيده عصا يلوح بها تتسق حركاتها مع إيقاع أغانيه بكل ما فيها من انفعالات وعواطف جياشة. خيمت على الحفلة أجواء مشحونة بالإثارة.. دبكة وأغانٍ شعبية على أنغام شبابة، أوف وميجنا ودلعونا وجفرة وزريف الطول، إضافة إلى الزجل وأغانٍ وطنية وحماسية للشاعر الشعبي نوح إبراهيم، غناها الحدّاء من الأعماق تفيض بالبطولات وتحرك الأمل في النفوس.

من الأغاني التي سمعتها في تلك الليلة:

يا ميجنا، يا ميجنا، وياميجنا

يا حسرتي تاه الدلول وتهت أنا

كان لويح الدبكة متميزاً، وقد ردّد له الكلّ بأعلى صوتهم:

نزل ع الدبكة اللويح الشاطر

لوحة يمينه بتُجبر الخاطر

كان حوله أصدقاء والدي يدبكون في دائرة واسعة بأذرعهم المتشابكة.

ومن الأغاني الأخرى التي أذكرها من تلك الليلة:

جفرا ويا ها الربع ابتخبز ع الصاجة

مدقوق ع صدرها خرفان ونعاجي

وأذكر أغنية أخرى وطنية:

وَعد بلفور هالمشؤوم جائر

على الإسلام والنصارى جائر

تناسى العدل وأضحى الظلم جائر

ملوك العرب ما فيها رجا

ردد الحداء الكثير من المعارك التي حدثت أثناء ثورة «36» مثل معارك بلعا وجبع وبيت امرين ووادي التفاح والخضر وترشيحا وكفر صور، كما ردد مراراً وتكراراً في زجله اسم أبي واسمي واسم الدكتور هانس، كذلك رددت أمي اسم الدكتور في كلام منغوم كانت تقوله على إيقاع زغاريد عالية، وكذلك فعلت جدتي من أمي عائشة التي جاءت خصيصاً مع سبع من خالاتي وقريباتي من القرية للاحتفاء بشفائي، ولا أنسى مساهمة شقيقها الشيخ ديب (أبو النجي) خال أمي.. بدأت مداخلته بأهزوجة معروفة يكثر ترددها في الأعراس وفي مثل هذه المناسبات:

يا حلالي يا مالي

يا ربعي ردوا عليّ

بمدح (..)

صاحبنا زينْ المكانْ

يا حلالي يا مالي

يا ربعي ردوا عليّ

ثم أخذ يردد بصوته الجهوري أشعاراً شعبية وطنية يحوم فيها حول تشديد الهمم وتعزيز الفداء من أجل الوطن الحبيب، والتذكير بالثورة التي شارك فيها.. ومن الأبيات الشعرية التي رددها كثيراً:

سجل يا قرن العشرين

ع اللي جرى بفلسطين

ثلث سنين بالليالي

ما نمنا بالعلالي

وحنا بروس الجبالي

للحرب مستعدين.

انتهت الحفلة بعد منتصف الليل بقليل. اقترب مني طبيبي مع مترجمه وقد ارتسمت على وجهه نظرة وديعة، وقال لي بصوت خافت: «أريدك أن تلعب مثل كل الأطفال وأن تكون طالباً نشيطاً في المدرسة».

يجيب والدي مبتسماً: «لن ننسى أفضالك، سوف أذكر لابني دوماً ما قدمته إليه».

تعلق أمي قائلة: «سيدخل المدرسة بعد سنتين، الدراسة عندنا تبدأ مع اكتمال السنة السابعة من عمر الأطفال».

بطريقته المعتادة قام المترجم بترجمة كل ما يدور حوله من أحاديث. بعد ذلك سرعان ما ودع الدكتور الضيوف فرداً فرداً، ومضى بخطوة عجلى نحو شارع الناصرة، وما أن خرج حتى أخذ الكل بالخروج واحداً تلو الآخر.

تلك الأمسية لحظات مسرّة مميّزة يزدهي بها ألبوم ذكرياتي، تمر بذهني كشريط سينمائي أعيدها مرة بعد أخرى، وتوقظ في داخلي دوما شهوة الحياة في رحاب حيفا، وتغرقني في بحر من

التأملات، أسترجع فيها وجوهاً كثيرة تتجلى أمامي بعد كل تلك السنين، أرى فيها أصدقاء والدي الذين دعاهم للحفلة: جودس زميل والدي في العمل، وأبو أنطون الطويل من حي وادي الجمال في حيفا، وإميل جبران بيروتي من موظفي مكتب شركة نفط العراق في حيفا «اي بي سي»، ورشيد الإدريسي مغربي زوجته فلسطينية من عائلة الناشف زميل والدي في العمل ويسكن قرب منزلنا في بناية أبو حوا، وأحمد الطرابلسي تاجر من طرابلس ويسكن في البناية نفسها، وعلي شعبان من دمشق تاجر معروف في سوق الشوام ويمتلك منزلاً قريباً من منزلنا، وحسنين الصاوي من القاهرة موظف في سكة الحديد، زوجته فلسطينية، ويسكن في منزل على مقربة منا، وأصدقاء آخرون من بُرقة وجبع والرينة والرامة ودبورية ويعبد وبيت امرين وعبوين والناقورة، منهم: خالد أبو زيان وأحمد داود وعامر العبد ونافع حافظ وفوزي محمد عارف ويوسف محمد يوسف ونصري عازر.

أستعين على استعادة أسمائهم ليس على ذاكرتي فحسب بل على معلومات أوراق ومفكرات كثيرة تركها والدي بين مقتنياته، سجل عليها أسماء أصدقائه وجيراننا وبعض الحوادث الكثيرة التي عاشتها أسرتي في زمن مضى، كقصة مرضي وعلاجي على يد الدكتور هانس، والحفلة وغيرها من الأمور الأخرى المتعلقة بعمله وعضويته في النقابة القُطرية للعاملين في السكك الحديدية والبريد والبرق والتلغراف في فلسطين (فرع حيفا) وعضويته في جمعية العمال العربية التي كان يتزعمها النقابي الشهير سامي طه.. أحبس نفسي بين سطور تلك الأوراق بين الحين والآخر، وأعيد تصحيح معلومات ذاكرتي على هواها، أشم من تلك الأوراق رائحة الحياة الماضية، تُشكّل حروفها شيئاً لا ينفصل عني، تترابط معي وأشعر كأنني وإياها بتلاحم دائم.

***

كلما أسترجع ذكرى حفلة تلك الأمسية، أغمض عيني وأعيد رسم العديد من الوجوه في فضاءات رحبة، تظهر أمامي وأتلمس فيها وجه طبيبي، ووالديّ وخال أمي الشيخ ديب عوض (أبو النجي) من سيلة الظهر. تعيدني عقارب الساعة إلى الوراء كثيراً وألقاه يجلس في ركن مهم من ذاكرتي. كان شيخاً عجوزاً ذا لحية بيضاء، وعينين رقيقتين، طيب القلب، يرتدي دوما قنبازاً مقلماً بخطوط زرقاء نصف معوجة، ويتوكأ على عصا معقوفة يقبض عليها بيد مرتعشة. تعود أنْ يزور أسرتي في حيفا بين الحين والحين، كان بالنسبة إليّ الأقرب بين كل ضيوفنا. كنت أقتات في الأماسي من حكاياه الطويلة عن بطولاته مع ابن قريته القائد أبو خالد في ثورة «36».

كانت حكاياه سلسلة متصلة من الأحداث، يمزج فيها الواقعي بالأسطوري على مدى مساحات واسعة، يسردها على إيقاع مؤثرات صوتية يخرجها بصوته الجهور، تعلو وتهبط مع تراقص يديه بحركات يلوح بها في الهواء بلا انتهاء.. وفي أحيانٍ كان يبكي بكاء حاراً أكثر فأكثر بشهقات عالية كلما ذكر استشهاد أحد أصحابه الثوار، وكانت أمي تتابع أحاديثه باكية منتحبة حين يذكر قصة استشهاد ابن عمومتها من ذنابة قائد الثورة العام الراحل الكبير عبد الرحيم الحاج محمد آل سيف (أبو كمال) في مرج صانور.

أذكره وهو يربت على رأسي حين أشعر بالخوف من بعض تفاصيل حكاياه المؤثرة، كان يُغير مجرى حديثه، ويمزج حكاياه بأشعار الأغاني الشعبية، يسافر فيها عبر الزمن تراثاً وتاريخاً، عبر كل القرى والمدن الفلسطينية، كنت أحسّ بها خشخشة أوراق الزيتون، وأسمع صدى أغاني النساء والرجال في مواسم الحصاد، وإيقاعات سحجة عالية تشكل خلفية رائعة.

حكايا الشيخ ديب كانت لي مرآة شديدة الصفاء، فتحت عيني على أرجوحة شبكية منسوجة من الحروف والأخبار الملونة.. كنت أحاول تقليده كثيراً في صغري، أردّد ما كنت أختزنه من حكاياه، كنت أضبط حديثي بصوت يهتز انفعالاً بكيفية سريعة متصاعدة. كانت أمي تضحك عند سماعي وتقول لي «يكفيني حكايا خالي».

وأذكر في ذات يوم أنّني خرجت مع أمي للتنزه في منطقة على سفح الكرمل مليئة بأشجار الصنوبر والخروب البري. شبكت يدها بيدي الصغيرة، لأظل معها، لأنني كنت دوماً أحث خطواتي لأتقدمها، أو أتلكأ لأغدو خلفها.. سرنا معاً صوب أشجار الخروب المترامية على أطراف الكرمل السفلية، جلسنا على مقعد خشبي ورحنا نثرثر، وعلى حين غفلة رأيت عن بعد قطار سكة الحديد خارجاً من المحطة الرئيسة، متجهاً إلى الشرق.. استمتعت بمنظره وهو يتلوى في مجراه على مقربة من الشاطئ تاركاً خلفه حلقات طويلة من الدخان على امتداد الطريق.. حدثت أمي بصوت عال بحواشي وصفية للقطار مفعمة بألوان صور ساذجة من التخيل عن سرعته وانزلاقه المتواصل فوق القضبان الحديدية.

امتلأ قلبي بفرح زائد، حين ابتسمت أمي عند توقفي عن الحديث.. احتضنتني، وهمست بنبرة حنان زائد «أنت مثل خالي الشيخ ديب كثير حكي».. كاد يغمى عليّ من فرط الفرح لما قالته، شعرت بالرضا، ولاأزال أتذكر إحساسي بالرضا حتى الآن.

(5)

شفائي من المرض نقطة فاصلة في حياتي، يقترن في ذاكرتي بالطفولة الطبيعية بمعناها الواسع والعميق، تحيلني إلى معين لا ينضب من لحظات لا تنسى، تعرفت فيها على جوانب كثيرة من الحياة لم أعرفها عندما كنت مقعداً لا أمشي.. كنت أشعر بسعادة عارمة وإثارة لا حدود لها وأنا أشارك أطفال الحي ألعابهم. كان الجوار مليئاً بالأولاد من سني، أذكر منهم: محمد شلبي، وجمال وحامد حمدان، ومحمد نجيب، وعبد محمود الحامد، وباسم عازر، وسهيل زيان، وعلي الصاوي وحسين العبويني وجميل الخوري.. كانوا كلهم لطفاء وطيبين، أسعدهم شفائي وانضمامي لهم كواحد منهم.

أتذكر في أول لقاء معهم عرّفوني على «صندوق العجائب».. ذهبت معهم إلى حي الحليصة من أحياء حيفا الشرقية، وجدنا جمهرة من الأطفال على مقربة من جسر رشميا، اتجهنا إليهم، وشاركناهم بالوقوف أمام «صندوق العجائب».. سمعت لأول مرة كلمات صاحبه وهو يتمتم بحكاياه المسلية.. لاحقت حكيه عبر طاقة أمامية صغيرة تترامى فيها صورٌ داخل الصندوق ممزوجة ببقايا أساطير وحكايا أزمنة غابرة، وملاحم شعبية، أشهرها ملحمة أبو زيد الهلالي، كان صاحب الصندوق ينشدها، ويتصرف بكلماتها على هواه، كما يحلو له.. كانت تستهويني مغامراته الهلالية.

أحببت حكايا صندوق العجائب.. كنت أحس أنها تجسّد كل الدنيا، تتقافز فيها الصور والمعاني وأخبار الحروب.. يوماً إثر يوم اكتشفت منه كنه التخيُل الذي نتجاوز فيه فهم الواقع، كل شيء فيه دائم الإنشاء والتحول على إيقاع مؤثرات وجدانية تترسب في النفوس. حكايا صندوق العجائب بإيقاعها وحلاوة سجعها، رسخت في نفسي رغم سنواتي الباكرة فرط عشق للحكايا الشعبية بتجلياتها التخيلية.

مع توالي الأيّام كنت أذهب مع أولاد الجيران للتنزه واستكشاف شاطئ البحر، نسبح ونبني بيوتاً على الرمال ونجمع الأصداف ونلعب كرة القدم بطابة صغيرة كثيراً ما كانت مصنوعة من الأقمشة والخرق وبقايا الملابس. وفي أحيان نجوب شوارع المدينة، نُمضي ساعات في التنقل من شارع إلى آخر، نمرُّ بالقرب من واجهات صفوف من المحلات التجارية، ونسمع صوت موسيقى تصدح من بعض تلك المحلات.. كنت أتمتّع معهم في سرور بالتعرف على أحياء حيفا ودكاكينها.. كنا نشتري التوفي والقضامة والبزر والكعكبان والنعومة (حمص مطحون مع السكر) على شكل أصابع، من محلات كثيرة منها دكان قريب والدي محمود الحامد، في شارع الناصرة على مقربة من مقهى العجمي، ودكان سويدان في ساحة الحناطير (الخمرة)، ودكان نعيم العسل في سوق الشوام.

كنا نشتري من محلاتٍ أخرى يتوافر فيها العسيس والكازوز وشراب الخروب والسوس وشوكولاتة محلية كانت تقلد الكيت كات والكادبري، كما كنا نتردد كثيراً على محل للحلويات في الطابق الأرضي من مسجد الاستقلال، اشتهر ببيع هريسة معطرة يكثر فيها حب اللوز، يعرضها صاحب المحل بصوانٍ كبيرة يضعها فوق بعضها البعض بطريقةٍ مثيرة؛ ولا أنسى أيضاً أنّنا كنا

نذهب إلى بوظة التوفيق داخل محل في بيت قديم أمام سينما الأمين الصيفية لشراء البوظة العربية، ومن محل علي سقيرق للبوظة والمرطبات في ساحة الحناطير، كان يشتري كلّ واحدٍ منا كوزاً من البوظة الكثيفة التي كانت تقطر دوماً من الأسفل على أيدينا.

رغم أنّني كنت أستمتع بما تقدمه لي أمي من المأكولات الخفيفة كمنقوشة الزيت والزعتر التي كانت تسمى عند البعض وأمي منهم «فتة على فتة» إلا أنني شعرت بسعادة لا توصف عندما عرفني أصدقائي من أولاد الجيران على سندويشات فلافل مقهى العجمي في شارع الناصرة أمام عمارة الكرنك.. كنا نتردد كثيراً على هذا المقهى ونقف في صف طويل أمام «معلم الفلافل»، كان ضخماً عريض المنكبين يلقب بالبطل، ويصرّ على أنْ نقف بصف مستقيم أمامه لانتظار ما يقدمه لنا من سندويشات لا أنسى مذاق طعمها حتى الآن.

لا أنسى في ذات يوم، أنّني اتفقت مع أصدقائي من أبناء الجيران على الصعود إلى قمة جبل الكرمل (جبل الأنبياء كما ذكر في الكتاب المقدس) للتمتّع بهوائه النقي ومناظره الخلابة وأشجاره الصنوبرية الباسقة.. تعرفت معهم في تلك الرحلة على عين الحايك، وكنيسة سيدة الكرمل، ومقام الخضر ودير الكرمل للاتين بجانب الفنار ومقام كبير للبهائيين تحيط به حدائق مغروسة بالأشجار والأزهار تعتبر في الوقت الحالي من الحدائق النادرة(****). وتعرفت على تكوينات عمرانية على سفوح الكرمل اتصلت مع قرية عسفيا الدرزية.. رأيت مع أصدقائي منازل كثيرة جميلة تطل على حيفا والبحر من علٍ وأمامها أدراج حجرية جميلة متدرجة الطبقات في انحدارها من سفح الكرمل إلى أحياء حيفا العربية.

وتعرفت معهم أيضاً على دير مار إلياس، وقفنا فوق تلة قريبة من الدير تطل على مشهد بانورامي رائع لحيفا كلها.. رأينا من علٍ امتدادات الأزقة والشوارع وبيوت كل الأحياء: حي وادي النسناس والألمانية(*****) وحي وادي الصليب وكل جوانب البلدة التحتا، ورأينا وراء المباني الميناء ومحطة سكة الحديد الرئيسة وشاطئ بيت جليم يحيط به مجموعة من القوارب الصغيرة، ويتصاعد فوقه ضبابٌ كثيفٌ من البحر.

كان مدى حيفا يتسع أمامي بعد أن أخذت أمشي بشكل طبيعي على قدمي؛ انتهت لحظة الضعف وانتظار أحد ليحملني أو يدفع كرسيي المتحرك.. أصبحت على درجة من القوة للركض ومسابقة أقراني، وتضاعف كل شيء حولي، وزادت رغبتي في معرفة كل أجزاء حيفا، وشيئاً فشيئاً وجدتني أعرف كل شيء فيها حتى رفيف الفراشات في الليل.

وهي معي حتى الآن في حضور دائم، أراها في كل شيء حولي، وحين أعود بذاكرتي إلى الوراء إلى صفو الطفولة الأولى، ألتقي بالطفل الذي كنته أنا، أكثر ما أراه في مسقط رأسي حيفا حين كنت صغيراً فيها كانت السماء أكثر زرقة متوجة بتصاوير الكواكب، وكانت الرمال الممتدة على الشاطئ، وأمواج البحر، وحتى زخات المطر، ولطمات عصف الرياح، ليست من صنوف ما لدينا الآن.. كان التراب يستدرج الندى في الظهيرة في سهول الأقحوان وشقائق النعمان، وهاتيك الأتلام الممتدة في كل الجهات على امتداد أرضها في الكرمل كانت أكثر فسحة للصنوبر والخروب وغيرها من الأشجار.

مرارة الغربة تردُني دوماً إلى أيام مضت لا يطويها النسيان، أتحسس فيها وميض ضوء أراه يحبو على أمواج بحر حيفا، ينفضُ عن كاهلي عبء السنين، يعيدني ثانية إلى حيفا عبر حروف أكتبها

نثراً وشعراً في جريدة الاتحاد الحيفاوية، أمد بها خيطاً من التواصل مع أيامٍ مزهرةٍ مضت في طفولتي الباكرة، تفاصيل صُورها في أرجاء مشاهد كثيرة لاتزال باقية في نفسي حتى الآن.. لن تختفي، ستبقى دائماً جوهراً ثابتاً للروح حتى آخر لحظة في الحياة.

(6)

في ذات يوم صيفي جميل، وفيما بدأت تقترب فترة العصر، وبدأ يقترب موعد رجوع والدي من العمل، وقفت أنتظره بجانب الجهة الشرقية من بناية أبو حوا، على مقربة من موقف باص نمرة 5 الذي يخترق شارع الناصرة قادماً من أقصى أحياء حيفا الغربية، ومارّاً بساحة الحناطير «الخمرة» وشارع فيصل وشوارع أخرى في وادي الصليب.. كنت أنتظر قدوم والدي مع أحد الباصات التي تمر بين الحين والحين بانتظام في أوقاتها، وعلى حين غرة وجدته قادماً عن بعد يشق طريقه ماشياً على قدميه، لوح لي بيده مبتسماً، ركضت نحوه ونثرت أصابعي الصغيرة في كفيه.

لحظة دخولنا المنزل أخبر والدي أمي بأن إجازته الصيفية ستبدأ في اليوم التالي، واقترح أنْ نقضيها في بُرقة، وأضاف موضحاً لها أنه حان الوقت لكي يُعرفني على بُرقة وعلى الأهل فيها بعد أن تعافيت من المرض.

واستطرد قائلاً موجهاً كلامه لي: «ستفرح بك جدتك عائشة كثيراً وسوف أعرفك على أراضينا وعلى بيت العيلة بيت جدك مسعود وعلى محطة سكة حديد المسعودية».

اتسعت عينا أمي، اقتربت من والدي مبتسمة وأومأت له برأسها موافقة على اقتراحه، موضحة أننا سنقضي نحو شهر في القرية بعيداً عن الرطوبة التي تعم حيفا في الصيف، وبينت لي أنّ الصيف في بُرقة فصل غلال، تنضج فيه الفاكهة بمختلف أنواعها، وكررت عدة مرات «بتقطعُه عن أُمه» أي عن أغصان الأشجار المزروعة في أراضي والدي.

والداي من القرية نفسها، أمي تنحدر من حمولة آل سيف التي تقلدت مشيخة وادي الشعير الشرقي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ولعب أكثر شيوخهم شهرة الشيخ عيسى البرقاوي دوراً رئيساً في ثورة الفلاحين عام 1834 ضد إبراهيم باشا، وتتميز حمولة أمي بانتشار بطون كثيرة لها في ذِنّابة وطولكرم وعارة والبروة ودمشق.

في المقابل ينحدر والدي من حمولة الحجة، جده مسعود أحد أهم شيوخها، ولاه إبراهيم باشا حسب أصول النظام المشيخي العثماني المطبق في الريف على أمانة وادي الشعير الشرقي لتمثيل السلطة وجمع الضرائب من السكان لخزينة الدولة، عُرف باسم الشيخ مسعود حمدان الحجة، كما لُقّب أيضاً في بعض الأوراق العثمانية باسم الشيخ مسعود آغا الحمداني.. اشتهر بامتلاكه أراضي شاسعة في قرى وادي الشعير.

لم يحظ والدي بطفولة هانئة، فقد والديه في عامه الأول، لم يتعرف على أمه وأبيه، وعاش يتيماً متنقلاً بين منازل إخوته، وعملت على رعايته وتنشئته زوجة أخيه الأكبر التي هي في الوقت نفسه ابنة عمه واسمها الحاجة سُكر، حفظ لها لفضلها عليه محبة خاصة طوال عمره وقدرَها كأمٍ ثانية له.

في صباح اليوم التالي، أفقنا على رنين الهاتف، كان المتحدث على الطرف الآخر الممرضة عائشة، أنبأت أمي بأنَّ الدكتور هانس انتهى عقده مع مستشفى حمزة وأنّه سيرجع إلى بلده ألمانيا

بعد أيام قليلة.

على ضوء ما جاء في هذه المكالمة قرر والدي أن نذهب في الحال إلى مستشفى حمزة لتوديع الدكتور هانس.

اتجهنا ثلاثتنا إلى شارع الملوك لشراء هدية لطبيبي بمناسبة رجوعه إلى بلده.. دخلنا محلاً يقع على مقربة من فندق نصّار، اشترى والدي منه لوحة جميلة من خشب الزيتون عليها رسم لكنيسة المهد حُفر بعناية فنية فائقة.. تم لف الهدية بورق خاص ملون وكتب له والدي على بطاقة صغيرة كلمات شكر له باللغة العربية نظير ما بذله نحوي أثناء مرضي.

بعد قليل وصلنا مستشفى حمزة في منطقة بيت جليم.. التقينا بالدكتور هانس في صالون الضيافة بحضور مترجمه والممرضة عائشة. تبادل والداي معه كلمات التوديع المعتادة وودعته بدوري، وابتسم عندما أخبره والدي أنني سأدخل المدرسة في الخريف القادم.. تمنى لي النجاح في المدرسة، وفيما كنا نخرج من صالون الضيافة، قال له والدي بصوت عال: «لن ننساك أبداً.. لن ننساك».

وفعلاً لم أنس طبيبي الإنسان، تذكرته طوال حياتي، وكلما أزور ألمانيا أو أمرّ مروراً عابراً في مطاراتها أتذكر الدكتور هانس بحماس زائد، وأتذكره دوماً كلما أشعر بموجات الحركة المستمرة الناقلة لأقدامي في المشي، وكلما أتحسس بأصابعي نبض العروق الملاصقة لركبتيّ.

(7)

في وقت لاحق من ذلك اليوم الصيفي الجميل، بعد الظهيرة بقليل وقفت أمام منزلنا سيارة أجرة استأجرها والدي «سكارسه» خصيصاً لنقلنا إلى بُرقة.. ودّع والداي كل الجيران، وودع بعض أصدقائه عبر اتصالات هاتفية قصيرة.. أغلقت أمي باب المنزل وسلمت المفتاح لجارتنا زوجة حسنين الصاوي، عادة درجت عليها أمي عندما نسافر.

اتجهنا عبر شارع الناصرة بخط مستقيم، مروراً ببلد الشيخ وحواسّة وبعدها العفّولة وجنين ومن ثم جبع وسيلة الظهر.. استغرقت الرحلة نحو ساعة، وصلنا بُرقة، وبعد دقائق معدودة من دخولنا بيتنا سرعان ما وصل للسلام علينا عدد كبير من الأهل والجيران والأصدقاء.ارتسمت الدهشة على وجوههم عندما وجدوني سالماً ومعافى وأمشي بشكل طبيعي على قدميّ كبقية الأصحاء.. سمعت زغاريد مميزة بصوتٍ عالٍ من جدتي عائشة وخالتي فاطمة وعمتي مريم وزوجة عمي الحاجة سُكر التي اعتنت بوالدي في صغره وابنة عم والدي أم رشاد وغيرهن كثيرات.

بعد كل هذا العمر يتجلى في ذهني بوضوح مدهش كل الذين تجمّعوا في منزلنا، وهم يتحدثون ويضحكون ويتشاطرون القصص في أحاديثهم عن حياة أهل القرية. كان والدي يستقبل الجميع بحلو الكلام، وتقدم لهم أمي ما طاب من الحلويات، «توفي» و«نوقة» أحضرناها خصيصاً من حيفا، وتقدم لهم جدتي عائشة حلويات جهزتها خصيصاً لهذه المناسبة تشكّلت من الكلاج والزنقل والبحتة. أتذكر حيثيات تلك الأمسية، نقشت في ذاكرتي، ولاتزال تختبئ في داخلي.

ترتسم صورة بُرقة في مخيلتي كما رأيتها عند زيارتي لها في ذلك اليوم الصيفي الجميل.. بيوت تتناثر على مجموعة من التلال، يقع أحدثها في الجزء الغربي، أو ما يسمى بالحارة الغربية، يمتد أمامها سهل زراعي كبير، وتكثر في أراضيها المزروعة، الخضروات بمختلف أنواعها، وأشجار الزيتون واللوز والكرز والبرقوق والمشمش والتين والعنب والرمان والخوخ والأسكدنيا.

وجدت منزلنا في الجهة الغربية من القرية تحت الطريق التي تؤدي في نهايتها إلى العين التحتا جنوباً، وتمتد شمالاً إلى أعلى تلة تميل إلى الانحدار باتجاه عين الليمونة. تكون منزلنا من ليوان طويل تطل عليه عدة غرف، له بوابة عالية في محاذاة الطريق العام، في وسطها بوابة صغيرة تسمى خوخة.

وفي الجانب الجنوبي تمتدّ أمام المنزل حديقة مليئة بالأشجار المثمرة من اللوز والتين والمشمش والخوخ والدراق والكرز، تتقافز العصافير فوقها مزقزقة بين الأغصان، كما يوجد فيها عريشة كرمة كبيرة وارفة الظلال ؛ تتدلى منها عناقيد العنب الحمراء والخضراء، وتنتشر فيها مصاطب مزروعة بالورد الجوري والفل والياسمين.

أثار انتباهي أن منزلنا يقع على حافة دير القرية، حديقتنا ملاصقة لساحته الشمالية؛ تقع على بعد أمتار معدودة من الساحة، وتقع على الجهة الشرقية من الدير قطعة أرض واسعة تسمى السدر يمتلكها ابن عم والدي فارس، عليها منزله ومنازل أولاده، ملاصقة للدير من جهته الشرقية.. دير

كبير بزخارف داخلية جميلة ومقاعد خشبية مبطنة بمخمل أزرق، تُسمع منه أصوات الأجراس، وأصوات المصلين وما يردّد فيه من تراتيل دينية.

علمت من والدي أن ابن عمه فارس الذي تولى المشيخة بعد وفاة والده وكان في أيامه واحداً من أهم أعيان بُرقة وغيرها من قرى وادي الشعير، قد قدّم الأرض التي أقيم عليها الدير هدية منه لمسيحيي بُرقة.. قدم لهم عشرة دونمات لكي يبنوا عليها ديراً مجاوراً لمنزله، وأعطى بهذا مثالاً عملياً قلّ نظيره بأن تعامل الإنسان مع الإنسان هو جوهر تعامله مع الله، كما أثبت بمكرمته مصداقية المقولة الشهيرة «الدين لله والوطن للجميع»، وأنَّ علاقة الإنسان بربه علاقة شخصية وخاصة لا دخل للآخرين بها بأي حال من الأحوال.

أخبرني والدي أنّ مسيحيي بُرقة ينتسبون إلى الغساسنة، لهم جذور وطنية عميقة وراسخة متشبثة في ترابها، ليسوا طارئين فيها، وعلاقتهم بالآخرين من المسلمين علاقة ألفة ومحبة، وكما هو الحال في كل فلسطين لا توجد حساسيات طائفية بين المسلمين والمسيحيين.

تعلمتُ من هذه القصة الجميلة في سنواتي الباكرة فضيلة التسامح وحب الآخر واحترامه والتعايش معه بعلاقات مترعة بالمحبة والإخلاص والأخوة خالية من أيّ تعال أو كبرياء أو إقصاء، ولهذا أشعر باعتزاز خاص بعمي فارس الذي دفعني موروثه المميز في التسامح إلى محبة كل الناس بالقول والفعل في تعاملي اليومي معهم طوال حياتي بغض النظر عن اختلاف الدين والمعتقد.

وهذا يتناقض مع كل ما يجري في هذا الزمن الحالي الذي نعيشه في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين حيث يكثر تكفير الآخر والتعالي عليه، وتعزيز هذه الأباطيل بفتاوى مُضللة لا تتفق مع صحيح الدين، ولا الحس الوطني مع إخوة يتقاسمون معاً الأرض والتراب، وتتناقض جملة وتفصيلاً مع ممارسات كانت تتم في قريتي بُرقة وفلسطين عامة إبان الثلث الأول من القرن الماضي.

وقد قدّر مسيحيو بُرقة هدية عمي فارس التي قدمها لهم أيّما تقدير، وقدّرها أيضاً المستشفى الإنجيلي الشهير في نابلس، وقام بفتح عيادة له في بُرقة منذ ثلاثينيات القرن الماضي لتقديم الخدمات الصحية اللازمة لسكانها وكل سكان القرى الأخرى المجاورة.

كان يحضر طبيبٌ من المستشفى برفقة ممرضة (كانت الست سَعدة في أغلب الأحيان ولفترة طويلة من الزمن، وأذكر من الأطباء الدكتور سميح طقطق) في كل يوم أربعاء لتقديم الخدمات الطبية اللازمة على اختلافها بما فيها من أدوية بمقابل مادي زهيد يتلاءم مع مداخيل السكان وأحوالهم المادية.

في اليوم التالي أخذني والدي إلى بيت العائلة، بيت جده مسعود؛ وجدته ينتصب عالياً في وسط القرية القديمة، على جانب شارعها الرئيسي، كل جدرانه من الحجر الأبيض المدقوق، وهو البيت الوحيد في القرية الذي يعتليه قرميد أحمر، علامة مميزة لا شبيه لها في كل القرى المجاورة.. يقع على مساحة واسعة من الأرض، له بوابة ذات أقواس عالية، منها يفضي المدخل إلى ساحة سماوية واسعة تمتد حولها صفوف متراصة من البيوت والعقود الكثيرة في كل الجهات عليها طوابق علوية، سكن فيها زوجات جدي وأولاده وأحفاده، وقد بلغ عددهم عند وفاته كما هو مسجل في وثيقة حصر إرثه نحو 120 من النساء والرجال والأطفال عاشوا معاً متنقلين من بيت إلى آخر ومتدفقين صعوداً ونزولاً على السلالم وهم ينادون بعضهم بعضاً. وبعد وفاته أضاف حفيده فارس

السابق ذكره للبيت القديم طابقين جديدين وقرميداً وشرفات تطل على الشارع، وأضاف صالة كبيرة في الطابق الثالث بسقف خشبي يمتلئ بزخارف ملونة ذات طابع أوروبي، تحيط به أجزاء من قطع خشبية محفورة بالزخارف البارزة من الجهات الأربع تشكل إطاراً جذاباً للسقف.

عَرّفني والدي على عقدين في الجزء الأرضي من بيت جده الكبير ورثهما عن والده، هما منزله الذي تزوج وعاش فيه في ريعان شبابه قبل رحيله من القرية والتحاقه بالعمل وعيشه فترة طويلة من حياته في حيفا.. بعد ذلك شيد منزله المجاور للدير الذي تحدثت عنه قبل قليل، وأبقى على البيت القديم في بيت جده الكبير كجذر له لايزال باقياً حتى الآن لي فيه شظايا بعض جذوري.

بعد أن عرّفني والدي على بيت جده الكبير، رافقته في رحلة إلى سهل آل مسعود، تجولتُ معه في قطع أراضٍ له منها قطعة كان يهتم بها كثيراً اسمها الشلعوطية، تقع قرب بناية طاحونة كبيرة بناها جدي لطحن القمح للناس باستخدام حجارة الرحى والمياه السريعة المتدفقة من علٍ عبر قنوات خاصة.. بعدها ذهبنا إلى محطة سكة حديد المسعودية، وهي محطة رئيسة أقيمت في العهد العثماني على أراضي جدي وسميت بالمسعودية تكريماً له.

لن أفاجأ من قراء هذه السطور استغرابهم لاهتمامي بتسجيل مثل هذه الأمور الشخصية، وأطمئنهم أنَّ هدفي من كل هذا هو إثبات عمق جذوري في بلدي بتجرد وبعواطف بعيدة عن مشاعر الذات وأهوائها وتميزها عن الآخرين.

***

أواصل اقتفاء آثار تلك الأيام في ذاكرتي.. تزداد حراكاً في مزيد من صور لاتزال عالقة بذهني، أرى فيها منطقة باب الجامع في وسط القرية، تقع بين جزئيها الشرقي والغربي، تعتبر بمثابة سوق تجاري يوجد فيها أغلبية دكانين بُرقة التي يمكن منها شراء كل مستلزمات الحياة اليومية، وفي جنباتها يتم عرض الخضار والفاكهة في سلال مختلفة الأحجام، وفي أوعية مصنوعة محلياً من قش القمح تسمى بالجونة والقبعة، ويُعرض بصورة دائمة أيضاً لبن رامين المعبأ بأوعية فخارية خاصة يسمى الوعاء الصغير منها مغطاس والأكبر بقلولة.

منطقة باب الجامع، ليست للشراء والبيع فحسب، بل يلتقي فيها رجال القرية أيضاً، يجلسون أمام الدكاكين على كراسٍ صغيرة يتجاذبون أطراف الحديث. كثيراً ما جلست بجانب والدي، كنت ألزم الصمت، وأستمع إلى أحاديثهم عن أحوال القرية وأحوال فلسطين عامة، وعن الصراع الدائر مع الصهاينة. كنت أنقل نظري بينهم، وبين الدكاكين المجاورة، وبين أناس آخرين يمرون على عجل من أمرهم يتجهون بما اشتروه إلى بيوتهم شرقاً وغرباً.

كانت تستهويني وتجذبني أحاديث الكبار، كنت أستمع لهم مشدوهاً، أتذكرها بعد كل تلك السنين، أستشعرها ضمن ما سمعت في طفولتي، أسمع أصواتهم بنغمة جميلة تأتي من زمن مضى تشع بمبادئ حب الوطن.

منطقة باب الجامع في بُرقة، آهلة بشخوص وأحاديث ومشاهد كثيرة لها زاوية تستوطن في ثنايا ذاكرتي، توقظ فيَّ شهوة العيش في الأجواء الريفية البسيطة المجبولة بتراب الوطن، وتقترن ببراءة الطفولة بمعناها الواسع، أعود إليها كثيراً في الزمن الحالي، وأكتشف من جديد جلسات أهل بلدي أمام دكاكين باب الجامع، وعلى وجه الخصوص دكاكين: أبو حاتم، الشيخ صبري، أبوعبد الله

الشاويش، ملحمة حامد، أبو عساس، عارف الزرقا، أبو جابر، أبو طالب الراغب، أبو مهدي، عبد العزيز أبو عيد، قاسم الشيخ حسين، عبد الكريم دغلس، عبد الله الجميل، عبد الرحمن أبو علي، محمد حسن، عمر اللحام، أبو عدنان بخيته.

دون الاعتماد على مسلمات مسبقة، والانسياق نحو روابط القربى، اختزنت ذاكرتي عدة أشخاص أثاروا انتباهي في تلك المرحلة المبكرة من طفولتي:

أولهم عارف الزرقا صاحب دكان بسيط، حوّله إلى مكتبة ازدحمت بعدد كبير من الكتب على اختلاف مجالاتها، خصّصها للإعارة بمقابل نقدي زهيد واستحدث لها أسلوباً متميزاً للحفاظ على حقه في استرجاع الكتب المعارة والحفاظ عليها، وقد اشتهرت مكتبته في المنطقة كلها وكان هو نفسه بسبب عمله الريادي هذا ملء السمع والبصر.

وثانيهم أسعد البزاري، كانت له أرض مروية يعتاش مما ينبته فيها بيديه، يبيع منتجاته بنفسه.. وأبرز ما أثار انتباهي فيه، أنّه كان مفوهاً، لبق الحديث، تزخر حكاياه بمعلومات عامة لم أسمعها من غيره، يهفو دوماً للحديث في السياسة بأجواء مشحونة بالإثارة، يركّز فيها على أهمية الاتحاد السوفييتي وافتتانه به وبالشيوعية، وقد سمعت كلمة «بلشفيك» لأول مرة في أحاديثه.

وثالثهم سمير أبو طاقة، كان يعمل في فلاحة الأرض وبيع الخردوات، كثير الكلام في القضايا الوطنية، يتحدث عن ضرورة مواجهة الواقع السياسي الزريّ بالثورة المتواصلة.. سمعت منه لأول مرة اسم القسّام. كان يجمع الأطفال حوله، ويتظاهر معهم في المناسبات الوطنية، يخطب فيهم ويطلق بصوته الجهوري شعارات تتلاءم مع تلك المناسبات ويردد الأطفال وراءه شعاراته بصوت عالٍ وهم يجولون في كل أنحاء القرية.

رابعهم مسعود الحاج أسعد ابن عم والدي، أثارني كثيراً بأناقته، ولاهتمامه الزائد بتربية النحل كهواية أتقنها دون غيره في بُرقة وقراها المجاورة.. كان يرتدي ألبسة خاصة لها يغطي بها وجهه وكل جسده عندما يقوم بجني العسل من جرون كان يحفظها في حقول مليئة بالزهور والأشجار المثمرة.. لم تكن منتجاته مخصصة للبيع، كان كل ما يقوم به للاستمتاع بهوايته فقط، كان يوضح ذلك في أحاديثه، وكثيراً ما كان يطعمها بكلمات فرنسية، فقد كان يتقنها نتيجة دراسته في مدرسة الفرير المعروفة.

***

وأنا أخطُّ هذه الكلمات عن بعض الناس في سطوري، أحسُّ بأناس آخرين أثاروني في تلك الفترة المبكرة من طفولتي، لهم مكانة في ذاكرتي أعيد معهم استحضار بُرقة دوماً بما فيها من وجوه وتلال وحقول وكل حكايا أيّامها الزاهرة.

(8)

مرّت الأيام الأولى في بُرقة بسرعة، أمضيت فيها وقتاً ممتعاً مع أبناء عمومتي: مصطفى أحمد وطارق داود وجهاد نظمي وعبد اللطيف أسعد ومحمد أمين، كانوا في مثل عمري، لقيت حظوة لديهم، انضممت إليهم وأشركوني في ألعابهم مع آخرين من أولاد الحارة الغربية منهم نعمان البزاري (الذي أصبح في شبابه مناضلاً معروفاً) وأكرم البزاري ووليد البزاري ومصطفى حسن وعبد الله قاسم وفاروق شبيب وفتح الله عبد الرحيم وغازي حسين ومحمود ياسين.

عرفوني على مناطق كثيرة من القرية وضواحيها، خصوصاً القبيبات وبايزيد ؛ المكان الذي نام فيه صلاح الدين الأيوبي وهو في طريقه إلى جنين، وتعرفت معهم على مناظر طبيعية رائعة الجمال مندّاة بالدحنون والنرجس والياسمين والأقحوان تتجدد ألوانها وأشكالها في ساعة الصباح الباكر وفي ساعة الأصيل.. وجدت فيها ذاتي مشغولاً بالأرض، سارحاً على امتداد حواكيرها وسهولها المليئة بنباتات طبيعية قابلة للأكل مثل السنارية واللوف والشومر والزعتر والمرار والبريدة والخرفيش والسيسعة والصيبعة والقرصعنة وغيرها.

انتشيت معهم بعيون نبع ماء كثيرة منها: عين الدلبي، الحوض، الخسيف، العين الفوقة، العين التحتة، عين الليمونة، عين الرشراش، عين جمره، بير دار مسعود، وتعرفت معهم على مناطق كثيرة منها: الفوّار، الموارس، السهل، محطة المسعودية، الشلعوطية، البوبع، إجنيفشة، سرطاسة، وادي الشامي، وادي البلد، الخلايل، المريج، راس الطبيب.. استمتعت بالنظر إلى صفوف طويلة من أشجار اللوز والزيتون والتين والصبّار والرمان ومعرشات الدوالي وأشجار السرو الباسقة، أمضيت حولها وقتاً طويلاً جيئة وذهاباً، واستشعرت فيها نفسي من جديد.

تعرفت معهم على الشّنار وعصافير الدوري والزرازير والحمام والبلابل والهداهد والغربان والصقور والقبرة بأصواتها المتباينة التي تملأ الأجواء بمختلف الألحان المطربة والنشاز، وتعرفت معهم على الحشرات الطائرة والزاحفة والماشية والفراش بأنواعه الكثيرة، وعلى الكركعة (السلحفاة) والحرباء والخنفسة والخلند والنيص والسحلية والحرذون والطزيز (صرصور) وسراج الغولة (دودة منيرة على شكل فراشة)، وأم أربعة وأربعين.

ولعبت معهم ألعاباً كثيرة مثل السيجة والسبع حجار والسبع جور وعسكر وحرامية والصنم (المصلح) وشد الحبل والزقيطة والدامة والرنة (تشبه لعبة البيسبول الأمريكية) والكورة (تشبه لعبة الهوكي على الجليد) والطُميمية (أو الطُماية) والحاب والدقة والبنانير والبلبل وهو هيكل خشبي صغير مغزلي الشكل يلف عليه خيط خاص به، يلقى على الأرض بطريقة سريعة ليحرر من الخيط ويدور بسرعة على الأرض.

ولعبت معهم لعبة الطاقية، كنت أجلس معهم في دائرة ويدور أحدهم خلف الجالسين وهو يحمل بيده طاقية، يضعها وراء أحدنا دون أن ينتبه، ويغني أثناء دورانه خلفنا:

طاق طاق الطاقية

فنرد عليه:

طاقتين بعليّة

ثم يقول ثانية:

رن رن يا جرس

فنرد عليه:

حول واركب ع الفرس.

بعدها يقوم الذي وضعت الطاقية خلفه بحملها ويلحق زميله الذي وضعها ليضربه بها، ومن ثم يجلس اللاعب الأول مع الجالسين في المكان الذي شغر، ويبدأ اللاعب الثاني بالدوران من جديد وهو يردد:

طاق طاق الطاقية

..

ولعبت معهم لعبة أخرى تسمى الغُميضية (أو الغُميضة) حيث كان أحدهم يقول وهو معصوب العينين لا يرى شيئاً:

يا عمي وين الطريق

ويرد الجميع حوله:

قدامك حجر وإبريق.

ويحاول الطفل المربوط العينين الإمساك بأحد اللاعبين الذين يدورون حوله، متنقلين من جهة إلى أخرى، مصدرين أصواتاً قصد إزعاجه وإظهار عدم تمكنه من الإمساك بأحدهم، وهو بدوره يتابع الأصوات الصادرة عن بقية الأولاد، ويبقى يدور وراءَهم، ولا تحل العصبة عن عينيه إلا عندما يتمكن من الإمساك بأحدهم ليحل محلّه.

ولعبت ألعاباً تعكس ملامح الحياة الاجتماعية والثقافية في بُرقة وغيرها من قرى فلسطين، وتحمل ألفاظها المستخدمة وأغانيها وتعبيراتها الخاصة بها باللهجة المحكية.

كما وعرّفوني على الشّبابة، وكيف تصنع من القصب وضلوع بعض النباتات، تحفر فيها فتحات تُخرج بالنفخ أصواتاً جميلة كصوت الناي ويعزف عليها في الليالي المقمرة.. كما وعلموني كيفية صنع سيارة لعب من السحارات المرمية في الطرقات (صناديق خشبية) باستخدام عجلات متحركة من «عجال البيليا أو القلول» وكذلك كيفية صنع الطابات من الأقمشة والخرق، وذلك بلفّ بقايا القمصان والقنابيز والسراويل والأثواب على بعضها، وحياكتها وإضافة المزيد منها وحياكتها ثانية حتى تصبح على شكل طابة لها قابلية الارتداد عن الأرض.

***

ذات مرة، قضيت طوال النهار معهم في حقول القمح الخضراء قبل الحصاد، كانت ترف السنابل بلونها الذهبي، تتماوج مع نسيم الهواء برقصة دائمة على امتداد الحقول. في ذلك اليوم جُلت أيضاً في حقول مزروعة بالذرة البيضاء، بأوراقها الخضراء العريضة الكثيفة، تتدلى منها قطوفها

(كيزان الذرة) وتتمايل جذوعها الطويلة المعقوفة في أعلاها باستدارة كاملة تحاول أنْ تستظل من أشعة الشمس وقت الظهيرة.

زرت معهم الحقول وقت الحصاد أيضاً، أثارتني المناجل الحادة في أيدي المزارعين وهم يجزون بها عروق القمح الطويلة بعد جفاف سنابلها.. رأيتهم وهم يضمون العروق في غمور سهلة الحمل، ثم ينقلونها إلى البيادر محملة على الجمال؛ قوافل طويلة من الجمال كانت تتجه من السهل إلى بيادر واسعة ومستوية تقع على مقربة من مدرسة البنات من أجل درس القمح.. التقيت ذات يوم في منطقة البيادر مع ابن خالتي محمد علي الأصهب وهو يدرس قمحه، عرفني على الدرّاسة والمذراة وكيف يتم درس السنابل حتى ينفصل عنها حب القمح، ويصبح الحب مهيَّأً للطحن وصنع الخبز البلدي منه في الطابون.

وبعيداً عن الأوقات التي كنت أقضيها مع أبناء عمومتي وأبناء الحارة الغربية، كانت جدتي عائشة تكثر من أخذي معها إلى بساتين التين، أمشي معها في طرقات وعرة وهي تمسك يدي الصغيرة بيدها ونستنشق معاً رائحة أزهار الصيف العطرة.. كانت تأخذني إلى أماكن كثيرة للتجوال في أراضيها وأراضي والدي تمتد على جنبات العين السفلى والحوض والموارس والمنازل وسهل دار مسعود والبوبع وجبل البد.

تبدأ رحلتي معها مبكراً قبل بزوغ الشمس، مع انتشار رذاذ الندى فوق أوراق الشجر، وعندما يكون حب التين فوق الأغصان مغسولاً بالندى، عندها أقطف الحبة تلو الحبة، أضعها في قرطل خاص بالتين (سلة صغيرة ملفوفة من جذوع القصب) وأستمتع بأشكالها وألوانها المختلفة.. حماري وخرطماني وعجلوني وسوادي وخضاري وعسالي وموازي وغيرها.

بعد أن أنهي مع جدتي قطاف التين من فروع الأشجار المتشابكة، كنت أجلس معها تحت شجرة وارفة الظلال، أجلس بجانبها وأضع رأسي على حجرها وأصغي باهتمام زائد إلى حكايا كثيرة رائعة كانت ترددها عن جدي وأخوالي وشخصيات من عائلة والدي ومن عموم أهل القرية.. تُحسن حبك حكاياها وتثيرني وهي تنتقل بعناية من حكاية إلى أخرى وهي تضع يدها فوق جبيني في حنو زائد.

كان نهاراً رائعاً عندما رافقت جدتي في قطاف الزيتون، توقظ تلك الذكرى في داخلي ومضات مترعة بالماضي، تعيدني إلى صفوف أشجار الزيتون الرومي المترامية على امتداد سهول وربى بُرقة. أتذكر حَب الزيتون الصلب متوهجاً بلونيه القرمزي والأخضر، يتناهى إليَّ رنين أصوات المزارعين المتعبين من كد الأرض، نسوة ورجالاً يعملون بعزم شديد في عِباب معاناة يومية من بزوغ الشمس وحتى الغسق، يقطفون الحَب بالأيدي، ويضربون الأغصان العالية بعصي طوال كالمذراة، تنحني على ضرباتها الأغصان الرهيفة بأكاليلها الخضراء، ويتناثر الحَبُّ في كل مكان فوق وسائد التراب، يلملمونه ويضعونه في أكياس كبيرة من الخيش ذات الحزوز (الخطوط) الحمراء، التي تنقل بعد ذلك إلى المعاصر لاستخراج الزيت من حب الزيتون.

زرت معصرة زيت زيتون لأوّل مرة في حياتي، تنقلت بين الأكياس جيئة وذهاباً، وسمعت صرير حب الزيتون وهو يُسحق تحت حجري (درّاسة) طاحونة ثقيلة بإيقاع يُداني القلوب، يُعجن من فرط السَحق، ويصبح معجوناً بنياً داكناً، ورأيت الدرّيس وهو يضع ذلك المعجون بعد ذلك في قفف مستديرة من الحبال (المصيص)، تُرص تحت مكبس كبير، وينساب منها الزيت مخلوطا مع الماء

على حوافها مُنحدراً إلى قعر حوض في أسفل المكبس، تكتحل به العيون وكأنه ذهبٌ مصفى، بعدها يفرز الماء، ويعبأ الزيت (الفغيش) بكراً في أجرار فخارية.

وقفت مع عدد كبير من الأولاد الصغار في صفوف في المعصرة، حاملين أرغفة من خبز الطابون الساخن في أيدينا، لتغميسها بالزيت الجديد، تلذذت بما يتركه طعم الزيت الجديد البكر على اللسان من أثرٍ لاذع يُجل طعمه عن الوصف.

أفهمتني جدتي عائشة أنّه مع مواسم القطاف تُبعث الحياة من جديد؛ غلة الزيتون نبض الحياة في القرى، من عوائده يشترون الطعام والكساء، (والقنابيز) الجديدة، وترفع مداميك البناء والإعمار، لهذا فكلما أرى زجاجة زيت في الشتات، أستشعر دورة حياة أهلي الأبدية المترعة بنبض عنائهم من شظف العيش، وشدتهم على الثباتِ جذراً عميقاً في رحم الأرض.

(9)

مع اقتراب نهاية الإجازة في بُرقة، كنت ألاحظ جدتي متعبة بعينين حزينتين، سألتها مراراً عن سبب حزنها وكانت تجيب بصوت خفيض، أنها بخير. وفي ذات يوم أصرت والدتي على معرفة سبب حزنها، ردّت عليها بصوت تخنقه الغصة: «لأنّكم سترجعون إلى حيفا وأبقى هنا لوحدي».

كانت تعيش في بيت خاص بها، وترفض أنْ تعيش مع أبنائها أو بناتها عالة على أحد، وبالطبع كانت ترفض أنْ تترك القرية وتعيش مع أسرتي في حيفا.

في صبيحة ذات يوم، فيما كنت أقطف التين مع جدتي من حديقة منزلنا من تينة «خرطمانية» ضخمة، أغصانها طويلة كانت بامتداداتها تعرش على جزء كبير من حديقتنا وحديقة جارنا أبو أنور، سمعت جدتي تقول لي: «هايي آخر تلقيطة قبل سفرك يا ستي».

نظرت إليها، مرت الدقائق مثل ساعات وأنا أنظر إليها، وعلى حين غفلة قلت لها: «سأعيش هنا معك في بُرقة سأطلب من والدي أنْ يسجلني هنا في المدرسة».

تأثرت كثيراً عند سماعها هذه العبارة، كانت على وشك الإغماء من شدة السعادة، أخذت تبكي.. أحاطتني بذراعيها، وشعرت كأنني اتخذت قراراً لا يتخذه الأطفال بل الكبار وكلّ ما كنت أسمعه هو صدى صوتي يردد ما قلته لها بأنني سأكون جزءاً من حياتها.

بعد قليل أخبرت والديَّ بقراري؛ قادر الآن على استرجاع ذكريات تلك اللحظة بتفاصيلها، شعرت وكأن أمي أسقطت في نفق عند سماعها قراري.. عجزت عن الكلام لشدة المفاجأة، وفيما كنت أنتظر رد فعل والدي، اقترب منيَ وضمني بحنان أبوي قائلاً: «هذي قرارات رجال بتستاهل ستك، لكنك ستزورنا في حيفا كل يوم خميس وتعود في صبيحة أيام السبت قبل بدء المدرسة».

في اليوم التالي، تم تسجيلي في مدرسة بنين بُرقة الحكومية بعدما قدم والدي شهادة ميلادي وأثبت بلوغي السنة السابعة التي تؤهلني لدخول الصف الأول الابتدائي حسب القوانين المرعية حينذاك.. وبعد أيام قليلة عدت مع والديّ إلى حيفا، بقيت فيها مدة أسبوع واحد، جهز لي والدي خلاله كل ما أحتاجه عند بدء الدراسة: قمصان وبناطيل كاكي من صنع «آتا» التي كانت بمثابة زي موحد للتلاميذ، وكل ما يلزمني من أقلام وأوراق وكتب وأدوات مدرسية، كما أخذني عند الحلاق وحلق شعري على «الزيرو»، حسب ما تقتضيه أنظمة دائرة المعارف العمومية في فلسطين.

أذكر أنه توالت في أيّام ذلك الأسبوع عدة حوادث وصدامات مؤلمة ما بين العرب والصهاينة في أجزاء كثيرة من فلسطين.

في وقت لاحق من تلك الحوادث، سمعت أمي تقول لأبي: «إسَه أنا راضية يكون الولد بعيد عنا في بُرقة، هيك بكون بعيد عن الحوادث في القرية عند سته».

هزّ والدي رأسه والتفت إلى أمي قائلاً: «نعم، الظاهر أنَّ الحوادث ستزداد، وحيفا مستهدفة أكثر من غيرها، إنّهم في أعلى الهدار والأحياء العربية كلها تحت رحمتهم».

أحسست بالخوف لأن حيفا مهددة بالأخطار، بينت لأصدقائي وأبناء الجيران بأنّني لا أهرب من الأخطار، وأنَّ كل ما يهمني هو أن أكون قريباً من جدتي لا أكثر.

تفاجأت من رد فعل بنت الجيران عبلة الصاوي وقد كانت بعمري، شعرت بحزنها الشديد لأنني سأعيش خارج حيفا.. كان ذلك أول تصرف بريء في تلك المرحلة من الطفولة تعبر به فتاة صغيرة عن شعورها نحوي، وتأكد لي صدق ذلك الشعور العذري عندما أهدتني قبل سفري إلى بُرقة هدية كانت أول هدية أتلقاها من أحد من غير أفراد أسرتي، عبارة عن لعبة تُجسد تمساحاً مصنوعاً من المعدن. بقيت تلك الهدية محفوظة لدي طوال سنوات طويلة، فقدتها قبل عدة سنوات فقط، ولاتزال تُعيدني تلك الهدية إلى أحلام طفولتي، يرفُ ذكراها في داخلي مع الأيّام على وهج ضوء خفّت حدّته.. ألتفتُ بذكراها إلى الوراء شيئاً فشيئاً، إلى رغبات يصعب تحقيقها وإدراكها ومنحها شيئاً من الواقع المعيش، وتشغلني في الوقت نفسه كأنني لاأزال ذلك الطفل الصغير في زمن مضى.

(10)

عدت إلى بُرقة مع قرب بدء السنة الدراسية، كانت أنسام أواخر فصل الصيف تهُب نقية، والحواكير مكسوة أشجارها - مع اقتراب الخريف - ببقايا ألوان خضراء وظلال بقايا تموجات ألوان أخرى متقلبة، والأرض خاوية من لوحاتها التي اعشوشبت طوال أيام الربيع وبدايات الصيف.

فرحت جدتي بقدومي، غمرتها السعادة، أحضرت لها معي من حيفا هدايا كثيرة، بينها لوكس يضيء باستخدام السبيرتو، وقنديل كاز للإنارة، وشمعدان كاز من زجاج «الأوبالين» الأبيض لايزال في حوزتي حتى الآن، كلها ضرورية للإنارة لعدم وصول الكهرباء إلى بُرقة في ذلك الوقت.

كانت المدرسة تبعد مئات الأمتار عن منزلنا، يحدّها من الجهة الشمالية منازل أبناء عم والدي فارس، ومن الجهة الشرقية منزل وبقالة ابن أخيه أحمد أبو سمرة، ومن الجهة الجنوبية الشارع الرئيسي، ومن الجهة الغربية بيوت آل الأشقر. كان الصف الأول يقع في عقد ألحق بالمدرسة بعد اكتمال إنشائها، موقعه آخر الجهة الشرقية من المدرسة وكانت بقية الصفوف تمتد بخط مستقيم مقابل العقد باتجاه الغرب، وتتسع أمامها ساحة يمتد على أجنابها سورٌ من كل الجهات.

بدأت رحلة العمر الدراسية مع مطلع العام الدراسي في أيلول من عام 1945، في صباح يوم سبت رن جرس المدرسة، ووقف التلاميذ في صفوف مستوية.. أنشدوا النشيد الوطني نشيد موطني بصوت واحد، ودخلت الصف الأول، التقيت بزملائي في الصف، أبناء عمومتي وأبناء الحارة الغربية الذين سبق ذكرهم، وتعرفت على مجموعة جديدة من أبناء القرية، أذكر منهم: نسيم نصر الله، فؤاد البدري، محمد الشيخ كامل، يوسف أبو عليه،عبد الحميد أبو عمر، عبد الرحيم حميد، عدنان سعيد، طاهر عمر، عمر ومحمد أبو عودة، ابراهيم وعبد الحميد شبيب.

كثيرة هي ذكريات اليوم الأول في المدرسة، لا أزال أذكر منها الكثير، وأهم ما أذكره، أستاذ اللغة العربية حمزة الدسوقي الذي تخصص طوال حياته العملية بالصف الأول الابتدائي، وساهم في إعطاء الدروس الأولى إلى عدد كبير من تلاميذ أجيال كثيرة من بُرقة والقرى المجاورة لها، ونال بجدارة حبهم واحترامهم.

كان مرحاً قريباً من التلاميذ، يتبع منهجاً بسيطاً لتحبيب التلاميذ باللغة العربية، بكتابة الحروف والكلمات على السبورة بخط كبير واستخدامه طباشيرَ ملونة في الكتابة، معتمداً في ذلك على كتاب اللغة العربية للصف الأول الابتدائي للمربي الفلسطيني المعروف خليل السكاكيني، الذي يبدأ بدرس كلمتي «راس روس» المدعمة بالصور والشرح، وقد اعتمد هذا الكتاب في مدارس فلسطين منذ بدايات العشرينيات.

وأكثر ما أتذكره من دروس الأستاذ حمزة اهتمامه (على طريقة السكاكيني) بتعليم طلابه الحركات الطويلة: الواو والألف والياء، يعلمهم أصواتها وشكلها بالفم والأصابع، ثم يكتبها على السبورة (أو اللوح) مفردة وضمن كلمات.. وفي مرحلة ثالثة يطلب من طلابه لفظها وكتابتها على السبورة

وكتابتها عشرات المرات في دفاترهم، بعد ذلك ينتقل إلى حرفي السين والراء وغيرها من الحروف الأخرى، وفي مرحلة لاحقة يعلمهم تشكيل كلمات من هذه الحروف تبدأ بـ«راس روس، دار دور»، وهكذا يتمكن طالب الصف الأول الابتدائي خلال فترة وجيزة إتقان وإجادة قراءة وكتابة كل ما في كتاب اللغة العربية، حتى وأنه كان يتمكن من قراءة الصحف والمجلات.

***

مع بدء المربعانية (أول أربعين يوماً من فصل الشتاء) كنت في المساء أجلس مع جدتي حول كانون كبير مليء بالجمر، وأبدأ بمراجعة دروسي بصوت عال على مسمع منها.. أردد بشغف زائد «راس روس، دار دور» وأكرر الحروف «ألف ياء واو سين راء».. كان هذا يفرحها، خصوصاً عندما كنت أخبرها عن تمكني من كتابة الحروف، ومعرفة جزء من جدول الضرب، وحفظ سور قصيرة من القرآن، كنت أردّدها على مسمعها باستمرار، وأردّد بعض الأناشيد الوطنية بصوت ممطوط، كانت تتابعني بشغف زائد، وأزداد فرحاً وأنا أراها أمامي، تهتز أمام عيني يداها وهي تصفق لي.

بعد انتهاء مراجعة دروسي كانت تأخذ جلساتي مع جدتي منحىً آخر، أجلس أمامها بصمت، وتبدأ هي تحدثني بما تحفظه من حكايا شعبية.. لم تكن حكاياها مجرد تسلية لي، بل كنت أتعلم منها الكثير، أحفظ بعض ما تقوله، وينجرف خيالي في مشاهد أعيد فيها تركيب حكاياها عن الزير سالم وأبو زيد الهلالي، والغيلان، وأردّد ما تقوله على لسان الغول: «لولا سلامك سبق كلامك، لأخلي كل الجبال تسمع قرش عظامك».

بعد انتهاء الحكايا الشعبية، كانت تبدأ بالحزازير، ترددها في جمل حسنة البناء والتكوين، كانت تحزرني بها مثل قولها «باطية على باطية من هون لقباطية»، و«إمي جابت أمه وأخو جوزي عمو» و«عمتك أخت أبوك خال ابنها إشو بقربلك»، و«إشي بقرط ما بُسرط»، و«وشعر مندوف لا هو قطن ولا صوف»، و«إشي في القبة عليه طناشر جبه».

كان يمسني الانفعال في تلك الأماسي عندما تحدثني عن أهلي الذين فارقوا الحياة، خصوصاً حديثها عن زوجها جدي الذي مات قبل ميلادي بعام واحد.. كنت ألتفُّ حولها وأضع رأسي على حضنها، وأصغي بذهول إلى قصصها عن جدي وهي تقول لي بافتخار: «كان جدك ينقل الأسلحة للثوار من قرية كفر سوم، كان ينقلها بخياش قمح على ظهور الجمال».

أحاول بجهد أنْ أستوعب ما تقوله، وفيما أستغرق أكثر في حلم اليقظة، أفيق على صوت جدتي وهي تواصل الحديث قائلة:

«كفر سوم في شرقي الأردن على حدود سوريا، كان لجدك فيها أصدقاء أجاويد من عيلة الخطيب، كانوا من خيرة الرجال وطنيين ساعدوا في توفير السلاح فشك ومراتين (بنادق) لثوار ثورة «36» في فلسطين».

كانت تلك الجلسات في أماسي الشتاء تزداد تألقاً بأطياف حكايا أخرى كثيرة، عندما يزورنا شقيق جدتي وخال أمي الشيخ ديب عوض (أبو النجي) الذي تحدثت عنه فيما سبق، وكان يفرحني بزيارة أهلي في حيفا، أتخيله كثيراً، وأعمل على إحياء صورته في ذاكرتي، وأشعر أنني مدين له بحب التخيل والشعر والكتابة.

(11)

كانت الدراسة يوم الخميس في المدارس الحكومية نصف دوام، تنتهي قبل الظهيرة، وحسب رغبة والديّ كنت أزورهما في أيّام الخميس.. عند انتهاء فترة الدروس كنت أتوجّه إلى منطقة «السحيلة» في الجهة الغربية من القرية، حيث الشارع العام الذي تمر منه الحافلات المتوجهة شمالاً نحو حيفا، أصعد في إحداها، تستغرق الرحلة نحو ساعة، أستمتع فيها بمناظر جميلة تلوح وتختفي، قرى ومدن كثيرة وحقول على امتداد المدى. أبقى يوم الجمعة بصحبة والديّ، وفي صبيحة كل سبت أعود راجعاً إلى بُرقة قبل بدء فترة الدراسة الصباحية.

كانت رحلاتي مثيرة ورائعة، تُسعفني الذاكرة وأستحضر تفاصيلها بسهولة ويسر دون تخييل، وأدرك أنّها لم تكن مجرد ساعات محدودة في حافلات الخياط أو الجليل أو التميمي، بل كانت فضاءات حياتية آهلة بالناس والقرى والمدن والمشاهد والأحاديث مع الصغار من المسافرين، تدبق كلها في خبايا الذاكرة، أعود لها بين الحين والآخر، لا أستطيع التخلص منها، مليئة بصور ملونة لأيّام مضت، تربطني بحبل سري بحيفا وبُرقة، وبكل ذرة تراب منثورة في رحاب أمكنة أخرى كثيرة في فلسطين.

تقترن في ذاكرتي تلك الرحلات ما بين المدينة والقرية في معناها الواسع والعميق، لأنها تحيلني إلى معين لا ينضب من اللحظات المميزة، التي تؤكد لي دوماً أنّني حظيت بطفولة هنيئة.

بتاريخ 16 تموز 1946 انتهى العام الدراسي، وحصلت على شهادة النتيجة النهائية للسنة المدرسية 1945/ 1946 وقد وجدتها محفوظة ضمن أوراق والدي ولاتزال لديَّ حتى الآن، مسجل فيها عدد طلاب الصف 59 وترتيبي في الصف 14، وفي جهتها السفلى ملاحظات معلم الصف: أخلاقه جيدة، ذكي، مداوم، قليل الاجتهاد، وملاحظات مدير المدرسة: ترفيع.

عندما تسلمت الشهادة، سلمني الأستاذ حمزة الدسوقي رسالة خاصة منه إلى والدي، علمت فيما بعد عندما اطلع والدي على مضمونها بأنَّ أستاذي يرى أنه من الأفضل لي أن أدرس وأعيش في حيفا على مقربة من والدي، لأنَّ بعدي عنهم وسفري المتواصل يؤثر سلباً على دراستي وتحصيلي، ويجعلني مشتت الفكر منفصلاً عن حياتي الأسرية، ويمكنني إن عشت في كنفهم أنْ أحقق نجاحاً أفضل.

المفارقة أنَّ والديّ وجدتي توصلوا أيضاً إلى مثل هذه النتيجة، وقرر والدي أنْ يسجلني في مدرسة البرج الخاصة في حيفا لإتمام تعليمي فيها.

ودعتُ جدتي، كانت حزينة لفراقي وفي الوقت نفسه فخورة بي لأنّني أثناء وجودي معها في بُرقة تمكنت من «فك الخط» حسب تعبيرها، أي أنّني أقدر على كتابة اسمي والقراءة في كتاب «راس روس» وحفظ بعض الآيات، وترداد الأناشيد الوطنية.

شعرتُ بحزن لأنني لن أعود ثانية للعيش مع جدتي بين جمع من الخالات والأقارب والمعارف والأصدقاء، خصوصاً بعد أنْ عودتني على سماع حكاياها وقصصها المسلية وعلى حياة القرية البسيطة، وتناول الطعام على طبلية تعلو قليلاً عن الأرض.

وعودتني على أكل أصناف طعام كثيرة تقليدية كانت تجهزها بالطابون (فرن بلدي تفرش قاعدته بحجارة صغيرة تسمى الرظف) تتكون في أغلبها من المسخن وملفوف اللسينة والزعمطوط والمسلوعة واللخنة والخبيزة والفريكة والجريشة والمجدرة وشرائح الدجاج والحمام المشوي وأنواع من المعجنات الشهية المخبوزة بالزيت والزعتر والأجبان.

وعودتني على تناول حلويات كانت تتقن صنعها مثل: البسيسة والهيطلية والمهلبية والبحتة والمسرولة ولقمة القاضي والحلبي والخبيصة من الخروب، وعودتني على أشربة كانت تعدها من القرفة والبابونج والميرمية.

وعودتني أيضاً على شرب الماء العذب من منابعه الطبيعية، إذ إنّ نساء القرية كنّ ينقلنه من آبار النبع الكثيرة إلى البيوت في جرار فخارية كبيرة (الصغيرة منها تسمى عسلية) كانت تصنع في القرية من تراب أرض المريج؛ نوع خاص من التراب يجعل الجرار مسامية يرشح منها الماء.. كان يمكن الشرب مباشرة من الماء المعبأ بالجرة بعد تفريغ الجرار بشربات وأباريق فخارية مسامية يرشح الماء منها أيضا، وبذلك يصبح بارداً في أيّام الصيف الحارة.

كما عرفتني على مفردات كثيرة لم أسمعها في حيفا من قبل مثل: مقحار، جاروشة، خاشوقة، بقلولة، مغطاس، جونة، قبعة، خابية، موكدة، مصيص، جرّة، عسلية، قدحية، قسريّة، وغيرها من المفردات الأخرى المتعلقة بالحياة الريفية.

(12)

عدت إلى حيفا، وفي مساء أول يوم، أمضيت وقتاً طويلاً في سماع مناقشات كثيرة جرت في منزلنا بين والدي وبعض أصدقائه، صدمت لسماع تفاصيلها حول ضعف قدرات القيادة الفلسطينية التنظيمية والإدارية والسياسية، وانحيازها شبه التام إلى مصالحها الضيقة على حساب المصلحة الوطنية، وتمزقها من شدة صراعات المصالح العائلية التي تعصف بها.. وأنها أنهت الثورة ووضعت ثقتها بإدارة الانتداب المخولة تنفيذ المشروع الصهيوني، وركنت إلى وعود هذه الإدارة، وإلى تلقي الكتب البيضاء والسوداء منها بين الحين والآخر، في وقت تضاعف فيه عدد المستوطنين، وازدادوا قوة اقتصادية ومالية وإعلامية وعسكرية وإدارية وتعليمية وتنظيمية، وارتفع مستوى تنظيمهم وانضباطهم درجات كبرى وأصبحوا قوة فاعلة في الصراع الجاري كأنهم دولة داخل الدولة قادرة على استخدام مختلف الوسائل العنيفة.

كثيراً ما كان والدي يلتقي الأصدقاء والجيران، كانت لقاءاته بهم شبه يومية في أماسي الصيف الدافئة.. كانوا يأتون إلى منزلنا، ويجلسون في الجهة الأمامية من الساحة المطلة على شارع الناصرة، على مقربة من عمود كهرباء في أعلاه لمبة كبيرة تضيء الساحة الواسعة الممتدة ما بين منزلنا والشارع، يجلسون على كراسي قش صغيرة، ويدور حديثهم دوماً حول الأحداث الرئيسة البارزة من مستجدات حيفا وبقية المدن والقرى الفلسطينية الأخرى.

كنت أزودهم بأباريق الشاي والقهوة التي تجهزها أمي، وفي أحيان تجهزها زوجات جيراننا ممن يحضرون تلك الجلسات، بعد أنْ أضع أمامهم ما أحضره؛ أجلس بجانب والدي، وأصغي بصمت إلى أحاديثهم.. كانوا يكرّرون ذكر أسماء سياسيين كُثر محليين وعرب وإنجليز، ويستحضرون تفاصيل قصص بطولات بتعابير مؤثّرة جرت أحداثها على أرض فلسطين، كانت تحرك أوتار الوطنية الوليدة في نفسي، ويكررون ذكر قصص تفوح منها رائحة الخيانة تتصل بشخصيات عميلة للإنجليز.

تفهّمت مبكراً ما يجري حولي من أحداث مخيفة، وخوف من المجهول الآتي، خصوصاً وأن الوجدان العام الذي أخذ بالتبلور آنذاك، لم تُغره وعود حماية الوطن التي كانت تؤكدها القيادة الفلسطينية، وحكام الدول العربية، وبيانات الجامعة العربية.

سمعت صديق والدي رشيد الإدريسي (ذكرت أنفاً أنَّ أصله من مدينة فاس المغربية) يقول بصوت تخنقه الغصة:

«الكارثة قادمة سوف تضيع فلسطين كما ضاعت الأندلس من قبل، ويضيع معها المفتي وجماعته ويضيع معها راغب النشاشيبي وغيره من زلم الإنجليز وأصحاب الصهاينة سيتوزعون على الدول العربية مثلما توزع أهل الأندلس في المغرب العربي».

لقاءات والدي مع أصدقائه تُشكل حيزاً كبيراً في ذاكرتي عن تلك الأيام، أتذكر منها الكثير، أعيد صياغتها الآن بدون شطحات خيالية وصياغات نصوص مكتوبة.. أستمدها من صدى نبرات أصوات سمعتها في زمن مضى، أستحضر منها أحوال تلك الأيام بوعي ذاتي ؛ وأنا أجري وراء

جذور المكان العميقة التي أصبحت بعيدة عن الأجيال المعاصرة، أعيد تشكيلها لهم حتى يظل الوطن وشماً في عيونهم، ويظلون أوفياء لتاريخهم وهويتهم الوطنية على مدى السنين.

***

في صبيحة اليوم التالي لوصولي حيفا، التقيت أبناء الجيران، أخبرتهم عن أنباء آخر أيامي في بُرقة وإنهائي الصف الأوّل الابتدائي، وعن رجوعي إلى حيفا نهائياً، وتسجيلي في مدرسة البرج الخاصة للدراسة فيها بعد انتهاء العطلة الصيفية.

فرح أصدقائي بما سمعوا مني، وتفاجأت بأنَّ ستة منهم من طلاب مدرسة البرج، ثلاثة أنهوا فيها الصف الأوّل الابتدائي، هم: حسين العبويني وعلي الصاوي وسهيل زيّان، وثلاثة منهم أنهوا الصف الثاني الابتدائي، هم: حامد حمدان وعبد الله الحامد ومحمد نجيب، حدثوني عن الدراسة والمدرسين في مدرسة البرج وعن وجود مشايخ فيها من المعلمين، يهتمون كثيراً في استظهار القصائد والخطب والآيات القرآنية وبعض النصوص النثرية.

طلبت منهم أنْ يعرفّوني على المدرسة، وهذا ما حصل في وقت لاحق من ذلك اليوم الصيفي القائظ، ذهبنا كلنا معاً لزيارة المدرسة.. اتجهنا إلى شارع طولي يقع في الحي الذي نعيش فيه في مقابل منازلنا، يتجه صعوداً من شارع الناصرة باتجاه الكرمل، مشينا فيه على أقدامنا نحو ثلث ساعة حتى وصلنا إلى منطقة عالية تسمى تلة البرج، تقع على مقربة من منطقة الهدار اليهودية، يُرى منها بيسر الميناء ورمال الشاطئ وأمواج البحر وهي تتلاطم بزبدها الأبيض البراق برقصة أبدية.

توقفنا عند شارع البرج حيث توجد مدرسة البرج على جهته اليسرى بين أشجار الصنوبر والكينا والسرو.. لا أعرف حتى الآن من الذي سبق في أخذ اسم البرج الشارع أم المدرسة.. جذب انتباهي أن هذا الشارع أحد الحدود الفاصلة بين الأحياء العربية والحي اليهودي، كما جذب انتباهي وجود دار الزاوية الشاذلية الصوفية بجانب المدرسة في الشارع ذاته على طرف سلسلة درج سمي باسم درج عجلون ؛ ينحدر على مقربة من الزاوية باتجاه أسفل حي وادي الصليب في حيفا الشرقية.

كانت المدرسة مغلقة بسبب العطلة الصيفية، لكننا وجدنا أستاذاً من أساتذتها يجلس وحيداً في البهو.. أسعدته زيارتنا للمدرسة أثناء العطلة.. أظهر اهتماماً واضحاً بنا وأخذ يحدثنا عنها وعن خلفيات تأسيسها، بيّن أنها من أقدم وأعرق مدارس حيفا أُسّست في عام 1922، تابعة للجمعية العربية الإسلامية، وتحدث بافتخار بأنَّ الشيخ عز الدين القسّام قد عمل فيها مدرّساً، وهو نفسه الذي دعا في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي إلى استخدام الثورة ضد الإنجليز والصهاينة، ورغم استشهاده إلا أنَّ دعوته للثورة قد ساعدت على احتدام المقاومة وتصاعد أعمال العنف حتى بلغت أوجها قي ثورة «36».

وقد شاءت المصادفات أن أسمع هذه المعلومات ذاتها بعد عقود طويلة من الراحل خالد الحسن (أبو السعيد) لأنّه تلقّى تعليمه في مدرسة البرج ودرّس فيها، وكان يردّد اسمها بأحاديثه كلما استذكر ماضي أيّامه في حيفا؛ وذكر مسكن أسرته على مقربة من عمارة آل عابدي في شارع ستانتون الذي يصل بين شرقي المدينة وغربها، ويتجه صعوداً إلى منطقة البرج، وحسبما ذكر لي كان يمرّ به باص نمرة 6 الذي يتجه مساره إلى أعلى الكرمل.

بعد انقضاء فترة من الوقت، ودّعنا الأستاذ وشكرناه على ما قدمه لنا من معلومات قيّمة عن المدرسة. بعد ذلك اتجهنا نحو المخرج وواصلنا التقدم في شارع البرج نحو الشوارع المجاورة، ستانتون و عمر الخيام ودوار البرج وشارع حسن شكري على سفح جبل الكرمل، ثم عدنا ثانية إلى شارع البرج، ومنه اتجهنا إلى درج عجلون المجاور للمدرسة.. واصلنا السير فيه على طول درج عرضي شديد الانحدار يمتد نزولاً نحو حي وادي الصليب، كنت أسمع أصوات أقدامنا على حجارة الدرج فيما كنا نتوجه إلى أسفل شرقي المدينة.

وصلنا آخر نقطة في الدرج على مقربة من حمّام الباشا، وأسرعنا وسط حشود من الناس باتجاه ساحة الحناطير.. توقفنا بعض الوقت أمام بقالة سويدان للحلويات، ومنها اتجهنا إلى سوق الشوام المسقوف، ومن ثم اتجهنا غربا إلى ملتقى شارعي الجبل واللنبي، وعندئذ وصلنا حي وادي النسناس في الجهة الغربية من المدينة، وفيما كنا نقترب من وسطه تعرّفنا على فرن أبو جورج الدر في شارع عتليت، أول فرن في حيفا بدأ العمل على الكاز بدلاً من الجفت.

بعد ذلك اقترح حامد أن نذهب إلى بقالة المر في شارع الخوري عند بداية الحي، بقالة صغيرة كانت مشهورة بالبوظة والمثلجات ونوع واحد من الحلوى يتكون من تفاحٍ مطبوخ مغطى بقطرٍ سكري أحمر.. سرعان ما دخلنا تلك البقالة وتناولنا من تفاحها ما لذَّ وطابَ، وبعد ذلك طفنا في شارعي حداد والحريري في وادي النسناس، في وقت كانت فيه الشمس تتجه نحو المغيب.

بعد انقضاء فترة من الوقت، أخذ الظلام يهبط فوق المدينة، بدت الأزقّة مظلمة تثير في النفس قدراً خافتاً من الاضطراب.. اتفقنا على الذهاب إلى سينما الأمين الصيفية في شارع يافا، لمشاهدة أول عرض لفيلم «الوردة البيضاء» لمحمد عبد الوهاب.. في غضون دقائق وصلنا سينما الأمين.. جلسنا في الصفوف الأمامية، وأخذت صورٌ متلاحقة تنساب على الشاشة البيضاء في أضواء تنبع من داخلها، تتحول إلى انعكاسات تراكيب وكلمات وألحان ساحرة ممتعة، وأغانٍ من الشعر مثل أغنية «النيل نجاشي» للشاعر أحمد شوقي وأغنية «جفنه علّم الغزل» للشاعر بشارة الخوري.

انتهى عرض الفيلم في ساعة متأخرة من الليل.. شعرت بتوتر داخلي بسبب تأخري خارج البيت، وزاد توتري عندما سمعت دوي متفجرات وقت الخروج من السينما، أعلن بعض المارة بأنها نتيجة كمائن زرعت في الأحياء التحتا من المدينة، على مقربة من شارع الناصرة حيث يوجد الحي الذي أعيش فيه.

اتفقت مع أصدقائي على استخدام باص نمرة خمسة للرجوع إلى منازلنا.. انتظرنا طويلاً قدوم الباص في وقت متأخر من الليل، لأنَّ الباصات التي تتجول في الشوارع ليلاً أقلّ كثيراً من الباصات التي تعمل في أوقات النهار، وتتعاقب في مرورها على المحطات خلال وقت أطول.

في وقت لاحق من تلك الليلة صعدنا إلى أوّل باص، مرت الدقائق مثل ساعات أثناء ركوبه.. أخيراً توقف في محطته أمام عمارة أبو حوا القريبة من منازلنا، وكانت المفاجأة أنَّ أهالينا كانوا بانتظارنا عند محطة الباص، شعروا بقلق زائد لعدم معرفتهم سبب تأخرنا، وزاد قلقهم عند سماعهم صوت المتفجرات ودوي طلقات نارية في وسط المدينة.

أخطأنا لأنّنا لم نخبرهم عن رغبتنا في دخول حفلة مسائية في سينما الأمين.. عاتبني والدي بلطف، ووعدني أنْ نزور السينما مع أمّي بين الحين والحين في أوقات ليست متأخرة، وهذا ما حصل بعد تلك الليلة فقد شاهدت معهما عروضاً لأفلام سينمائية عربية كثيرة أذكر منها «رصاصة في

القلب» لمحمد عبد الوهاب وسلسلة أفلام لليلى مراد، منها «ليلى بنت الفقراء» و«ليلى بنت الأغنياء» و«ليلى بنت الريف» و«ليلى بنت المدارس» و«ليلى في الظلام»، وفيلم «عفريتة هانم» لفريد الأطرش وسامية جمال، وفيلم «قبلة في الصحراء»، أول فيلم روائي عربي من إخراج إبراهيم لاما وبطولة بدر لاما وكلاهما من أصل فلسطيني من مدينة بيت لحم، وأفلام أخرى غيرها كانت تبعث البهجة في نفسي، وتبث انفعالات وأحاسيس مرتعشة في قلبي حول حكايا الحب المصورة تنبض ببراءة مفعمة بالبساطة الساذجة.

(13)

أنبش في ماضي تلك الأيّام، وأجد صوراً كثيرة لأيام العطلة الصيفية لعام 1946 تتراكب فوق بعضها بعضاً، أجد نفسي فيها منجذباً إلى سماع الأغاني ونشرات الأخبار من جهاز الراديو.. كان جهازنا كبيراً من نوع فيلبس المعروف، بعينه السحرية الخضراء لتضبيط الموجة.. كنت أتنقل فيه ما بين «إذاعة الشرق الأدنى» (صوت بريطانيا) التي كانت تبث برامجها من مدينة يافا، والإذاعة الفلسطينية التي كانت تبث باسم «هنا القدس» وقد أسست عام 1936 قبل وقوع الإضراب الشهير بأيّام معدودة، وكانت ثالث إذاعة عربية، بعد إذاعة القاهرة والإذاعة العراقية.

سمعت في تلك الأيام نشرات الأخبار لأول مرة بأصوات موسى الدجاني ونجاتي صدقي من أهمّ مذيعي إذاعة الشرق الأدنى، ونزار أبو السعود وإبراهيم سليم نسيبة وعصام حماد وعقيل هاشم من إذاعة هنا القدس.

سمعت أغانيَ وألحاناً لحليم الرومي وتعليقات وتمثيليات لسليم اللوزي من إذاعة الشرق الأدنى. كانت برامج إذاعة هنا القدس كثيرة، من أهمها برنامج ما يطلبه المستمعون، تقدم فيه أغانٍ لمطربين محليين وعرباً، منهم المطربة ماري عكّاوي، والمطربة الشعبية رجاء الفلسطينية، والمطرب روحي الخمّاش والمطرب فهد النجّار، والمطرب يحيى السعودي.. ومن أهم ما أذكره من المغنين العرب المطربة سهام رفقي صاحبة أغنية شهيرة كانت تتردّد كثيراً على ألسنة الناس في ذلك الوقت، من كلماتها:

يا فلسطين جينالك

جينا وجينالك جينالك

كلنا رجالك جينالك

تنشيل حمالك جينالك

وأتذكر ما كانت تقدمه إذاعة هنا القدس من تقاسيم موسيقية للموسيقيين العاملين فيها، مثل عزف على العود للمطرب يحيى السعودي، وعزف على الناي لتوفيق جوهرية، وعزف على العود للمطرب روحي الخمّاش، وعزف على البزق للمطرب محمد عبد الكريم، وعزف على القانون لمحمد عطية، وعزف للموسيقار يحيى اللبابيدي المعروف بالتأليف والتلحين، وهو الذي لحن لفريد الأطرش أولى أغنياته التي غناها عبر الأثير «يا ريتني طير لطير حوليك» واستطاع بها شق طريقه إلى الشهرة(******).

في ذلك الصيف أتذكر أنني سمعت بثاً حياً ومباشراً من إذاعة «هنا القدس» قُدمت فيه مجموعة من الخطب سبقت بداية مباراة جمعت بين أهم فريقين من حيفا في الدرجة الأولى، هما فريق «نادي شباب العرب»، وملعبه في الموارس، وفريق «النادي الإسلامي».

في الوقت الذي كنت أكتب فيه هذه السطور وجدت في مقالة الدكتور مصطفى كبها السابق ذكرها، ما يفيد بأنَّ «هذه المباراة هي مباراة «دربي» جرت بعد ظهر يوم الأحد 17 حزيران 1946

على ملعب «الموارس» التابع لنادي شباب العرب، وقد أدار المباراة الحكم عطا الله قديس، وساعده على الخطوط إبراهيم نسيبة وفوزي معتوق».

وقُدر ـ كما جاء في المقالة ذاتها ـ أنّ «عدد الجمهور الذي حضر لمشاهدة المباراة بخمسة آلاف متفرج، كان في مقدمتهم قائممقام حيفا فريد السعد، وقنصل المملكة المصرية في حيفا محمد البرعي والقاضي أحمد الخليل وعدد كبير من وجهاء المدينة، بما فيهم إسكندر غماشي نائب رئيس نادي شباب العرب، ويونس نفاع رئيس النادي الإسلامي وعبد الرحمن الهباب ممثل اتحاد الكرة الفلسطيني».

ويتضح من المرجع نفسه أن «المباراة انتهت بنتيجة (2: صفر) لمصلحة «نادي شباب العرب»، وقد تألق في هذه المباراة من النادي الفائز، حارس المرمى فوزي، وقلب الدفاع مباريكي ولاعب الهجوم جبرا الزرقا، وتألق في المقابل من «النادي الإسلامي»: حارس المرمى خليل نفاع، ولاعب الهجوم جورج مارديني الذي شكل خطراً على مرمى الشباب أكثر من مرة.. وقد تحدث مراسل إذاعة هنا القدس في تقريره عن أجواء حماسية وأخلاق رياضية عالية رافقت هذه المباراة، وامتدح المشجعين الذين بقوا جالسين في أماكنهم طوال شوطي المباراة وأثناء فترة الاستراحة».

***

هناك مشاهد أخرى كثيرة مسجلة في ذاكرتي غير مباراة كرة القدم «دربي» من أيام العطلة الصيفية في عام 1946، من أهمها احتفال حيفا بعيد مار الياس، الذي يتم فيه حسب التقليد المسيحي التبرك والتيمن بالنبي إيليا أو مار الياس الذي انتصر على أنبياء بعل على جبل الكرمل.

بمناسبة هذا العيد اتجهت مع أصدقائي إلى شارع الجبل، ومنه انطلقنا صعوداً الى جبل الكرمل، مررنا بشوارع تتقاطع معه، شارع اللنبي وشارع الملك جورج وشارع عباس بعدها وصلنا أعلى جبل الكرمل، ومن ثم اتجهنا نحو دير مار الياس على مقربة من دالية الكرمل في موقع ستيلا مارس المشرف على البحر الابيض المتوسط، حيث استمر الطابع الاحتفالي بطقوسه الدينية داخل وخارج الدير لفترة طويلة من الوقت بحضور أعداد كبيرة من الناس من داخل وخارج حيفا وسواح من خارج فلسطين، كانت تمتلئ بهم باحة الدير، وتُسمَع أصوات لهمساتهم باللغة العربية ولغات أخرى غيرها، تزداد ارتفاعاً مع بدء حفلات وموائد الغداء ورقص الدبكة بعد القداس.

لاحظت وجود مجموعة من المسلمين يجلسون على مقربة من جمع المصلين وحّدتهم حيفا، وأكدت على وحدة مصير شعبها العربي المسيحي والمسلم معاً، وكلما أتذكر ذلك وأقارنه بما في هذا الزمن من تعصب، لا أملك نفسي من الإحساس بالحزن والغضب.

رجعت مع أصدقائي مع غروب الشمس واكتساء الشفق حمرة قانية شفافة تنساب بأطياف ضوء خافتة تتراجع شيئاً فشيئاً مع علامات مبكرة من الليل.

اتجهنا إلى أسفل المدينة من حيث أتينا، سرنا نزولاً في شارع الجبل الذي صعدناه من قبل، كنا نسير بسرعة على امتداد الشارع ونتبادل التحيات التقليدية مع أناس مجاملين كنا نلتقي بهم قربنا.

وبينما كنا نمضي في طريقنا إلى شارع الملوك، قال حامد وهو أكبرنا سناً: «مار الياس» هو النبي إيليا عند اليهود وهو الخضر أيضاً، كنيته «أبو العباس» عند المسلمين و«أبو ابراهيم» عند الدروز، يحتفلون به منذ القدم، له مقامات كثيرة في فلسطين، ومقامه في حيفا موجود على سفح

جبل الكرمل قبالة البحر، عند مدخل حيفا الجنوبي، كل المنطقة المحاذية لمقامه يطلق عليها أهل حيفا والقرى المجاورة اسم الخضر».

فيما اقتربنا من نهاية الطريق وجهت سؤالاً إلى نصري قائلاً: «في أي زمن ظهر مار الياس أو إيليا؟».

رد نصري قائلاً: «ظهر في القرن التاسع قبل الميلاد متنقلاً في مناطق فلسطين وجوارها داعياً الناس إلى الإيمان بالله الواحد وبهذا اشتهر بجرأته وغيرته على عبادة الإله الحقيقي وحفظ نواميسه ونبذ العبادات الوثنية والصنمية وتقديم الأضحيات والقرابين لآلهتها».

وأضاف قائلاً: «احتفال اليوم يتم دوماً في كل عام بحسب التوقيت الشرقي الأرثوذكسي ويحضره إلى جانب العرب زوّارٌ من الروس واليونان، وتتواصل التراتيل متناغمة بثلاث لغات روسية وعربية ويونانية، وهناك احتفال آخر حسب التوقيت الغربي يتم فيه الاحتفال حسب الطقوس الكاثوليكية حول سيدة جبل الكرمل الواقعة فوق مغارة مار الياس».

***

في تلك الليلة عندما عدت إلى المنزل، أخبرت والديّ عما شاهدت في الاحتفال، زادت ثقتي بنفسي أكثر فأكثر وأنا أكرر مقتطفات من الأحاديث التي أجريتها مع أصدقائي، أحسستُ بشخصية ناضجة تنمو في داخلي تمنحني شعوراً طيباً بالسعادة.

يُعلمني والدي: «الموروث الشعبي بكل تجلياته وما يدور حوله من أعياد وأحداث وأفكار له أهميته في حياتنا، علينا تقبل اختلافاته والاستمتاع بها واحترامها وتقديرها وجعل الوطن قاسماً مشتركاً في حياتنا».

هذه كلمات أحد الدروس الأولى التي تعلّمتها من والدي في مجال محبة الآخر وتقبله واحترامه والتعاطف معه في أفراحه وأتراحه.. لاتزال محفوظة لديَّ تجعلني قريباً دوماً ممن هم حولي.

(14)

إنّه الأسبوع الأخير من العطلة الصيفية، بدأت فيه التجهيزات اللازمة لدخولي المدرسة، بعد أيام معدودة ذهبت للحلاق لقص شعري على الزيرو، واشترى لي والدي ملابس كاكي «آتا» وحذاء جديداً من «باتا»، كما اشترى كل ما يلزمني من دفاتر وأقلام عادية وملونة ومحايات وأحبار، أذكر المكتبة التي اشتراها منها، كانت تقع في الجهة الشرقية من صف الدكاكين الموجودة تحت مسجد الاستقلال.

وفي ذات يوم من تلك الأيام المتبقية من العطلة الصيفية، اتفقت مع أصدقائي للذهاب معاً لزيارة مسبح العزيزية لنسبح ونتسابق ونلعب قبل افتتاح المدارس، وهذا المسبح كان أفضل مسبح في حيفا أنشأه عزيز خياط في غرب حيفا في منطقة بيت جليم، سمي بالعزيزية مشتقاً من اسم منشئه.

كنا ستة أولاد، اتجهنا من حيِنا سيراً على الأقدام عبر شارع الناصرة إلى شارع الملوك الراقي الذي تم شقه بعد طمر مساحات واسعة من البحر، كي يُبنى عليها الميناء الجديد.

وفيما كنا نمر بالقرب من واجهات المتاجر الحديثة، ننظر للمارة المقبلين والمدبرين، كان يقف رهط من الناس أمام فندق نصّار الفخم الذي يقصده الزوار القادمون إلى المدينة.. نظرنا إليهم طويلاً، ولفت انتباهنا في الوقت نفسه صورة كبيرة لقطة سوداء مرسومة بإتقان على الواجهة الزجاجية لدكان كبير يقع على مقربة من الفندق، كُتب ببنطٍ كبيرٍ في أسفلها ثلاثة حروف سوداء باللغة الإنجليزية.

واصلنا التقدم في البلدة التحتا، ثم دخلنا ميداناً بجانب مقبرة البشوات يتوسطه عمود (مكسور الرأس عمداً) أقيم تخليداً لذكرى الملك فيصل الأول الذي توفي في سويسرا، ونقل جثمانه إلى حيفا ومنها نقل إلى بغداد.. ساهماً في بحر من الأفكار سرعان ما لاحظت ثمة كلمات كتبت في أسفل العمود، قرأها صديقي حامد بصوت عالٍ: «الاستقلال يؤخذ ولا يعطى».

تابعنا السير إلى مسجد الاستقلال الذي يُطل على طرف وادي الصليب، ومنه اتجهنا بعدها إلى ساحة الحناطير «الخمرة» في وسط المدينة.. توقفنا أمام دكان لتأجير الدراجات.. استأجر كل منا دراجة ليوم كامل، واتجهنا بها بسرعة واحداً تلو الآخر نحو محطة سكة الحديد، ومن ثم غيرنا وجهة سيرنا عند فندق فكتوريا الجديد (لأصحابه عطايا إخوان) بالاتجاه نحو شارع الميناء، وفيما كنا نجتاز تلك المنطقة من المدينة مسرعين بدراجاتنا كنا نسمع عن قرب أصوات صفير القطارات، ورنين أجراسها، قطارات كثيرة تتجول ما بين حيفا وبقية المدن الفلسطينية ومدن عربية أخرى كثيرة.

وصلت مع أصدقائي إلى المسبح في منطقة بيت جليم.

بعد كل هذا العمر لاأزال أتذكر أن والد أحد أصدقائي كان يعمل في المسبح، بمساعدته تمكنا من الدخول، لأن اللوائح المتبعة كانت تجيز دخول الأطفال بصحبة عائلاتهم فقط.

صورة المسبح معلقة في خيالي حتى الآن.. كان أكثر من مسبح، إنه مكان كبير مفعم بالحيوية، فيه عارضة عالية للقفز تتكون من طبقتين عاليتين، وفيه قاعات رياضة مزدانة بمجموعة رائعة من الألوان الجذابة، وطاولات كثيرة عليها أزهار جميلة مقطوفة حديثاً من أزهار الصيف العطرة وُضعت بترتيب في مزهريات موضوعة على الطاولات. وجدنا عدداً كبيراً من الرجال والنساء والأطفال يسبحون ويقفزون من أعلى في الماء.. لبسنا ألبسة السباحة، وأسرعنا بحيوية وسط الحشود إلى مكان السباحة، انتعشنا بالمياه الباردة تحت أشعة الشمس الجميلة.

مرت الساعات بلمح البصر، أمضينا وقتاً ممتعاً في السباحة والجري واللعب بكرة القدم والكرة الطائرة، وفي المساء راقبنا غروب الشمس، مشهد مدهش، بينما الشمس تغيب، كانت السماء تشع بألوان برتقالية وأرجوانية ساحرة، جعلت لتلك اللحظات في العزيزية نكهة خاصة، لا تزال ذكراها عذبة في خاطري.

بدأنا رحلة الرجوع في المساء عندما بدأ الليل يسدل ستائره شيئاً فشيئاً.. سلمنا عند مدخل ساحة الحناطير الدراجات المستأجرة إلى صاحبها، ومن ثم اتجهنا سيراً على الأقدام في شارع الناصرة باتجاه منازلنا في شرقي المدينة.

وصلت أخيراً إلى منزلي، وكعادتي حدثت والديَّ عن الأوقات الجميلة التي قضيتها مع أصدقائي في مسبح العزيزية، وتلمست ما يشير إلى اهتمامي بالقطة السوداء المرسومة على الزجاج الأمامي للدكان الذي وقفت أمامه مع أصدقائي في شارع الملوك، واهتمامي أيضاً بالزوارالذين وقفوا أمام فندق نصار.

أخبرني والدي أنَّ القطة السوداء عبارة عن شعار لشركة مقاولات أنشأها في حيفا في ذلك الدكان، كامل عبد الرحمن(*******)، فلسطيني، رئيس غرفة تجارة حيفا، مع زميله في الجامعة إميل البستاني، لبناني كان يعيش ويعمل في حيفا، وهي شركة «الكات» نفسها للمقاولات التي اشتهرت في خمسينيات وستينيات القرن الماضي ونفذت مشاريعَ ضخمةً في الدول العربية النفطية وفي أفريقيا.

نعم كانت بداية هذه الشركة في دكان صغير في شارع الملوك، منه انتشرت وأصبحت من كبريات شركات المقاولات العربية.. إنّه مثال آخر عن مآثر حيفا، بداية خيوط شركة مهمة نُسجت فيها وانبثت فيها بأجل محدود، تشابكت معها تحت ظلال شارع الملوك، وبقيت في الذاكرة مع تتابع الأيام مغروزة فيها، رغم توقف إقامتها في حيفا وجوداً ونشاطاً.

بعد ذلك طال حديث والدي عن زوار فندق نصّار.. أخبرني بأنهم من أعضاء نقابات عمالية حضروا من مدن وقرى فلسطينية إلى حيفا للمساهمة في أعمال مؤتمر نقابي كبير، قدم فيه النقابي العمالي المعروف سامي طه خطاباً مهماً حول مجريات الحياة السياسية في فلسطين، وضآلة إمكانات القيادة العائلية التقليدية المتوارثة وتنامي توجهاتها الاستبدادية ودورها المشبوه في ارتداد الثورة على نفسها وإشعال أوار الحرب الأهلية في نهايات ثورة «36»، بسبب التشاحن الداخلي والانقسام والتنافس وتصفية الحسابات بين العائلات والعشائر المتنافسة.

ثمة حيز كبير في ذاكرتي لحديث والدي عن النقابات بصفته كان عضواً في جمعية العمال العربية، فرع نقابة البريد والتلفون والتلغراف (البوسطة)، ولديَّ حتى الآن بين أوراقه نسخٌ من سندات قبض تبيَّن سداد رسوم اشتراكه فيها على مدى سنوات طويلة.

وأتذكر من أحاديثه أن بداية العمل النقابي قي فلسطين قد بدأ عام 1922، وأن مجلة «حيفا الأسبوعية» كانت تنطق باسم العمال العرب في فلسطين ابتداء من عام 1924، بعدها تم تأسيس مجلة باسم «حيفا مجلة العمال» بدلاً منها، شمل اهتمامها القضايا العمالية والسياسية والنضال ضد الانتداب البريطاني.

(15)

في صباح اليوم التالي، استيقظ والدي متأخراً في يوم عطلته الأسبوعية، حلق ذقنه وصفف شعره، وبعد أن تناولنا طعام الإفطار، طلب مني ومن أمي مرافقته لقضاء بعض الحاجات في المدينة. قصدنا معاً محل بوتاجي الشهير، أمام مدرسة الفرير في شارع يافا، وبعد محادثة أحد الباعة، اتجهنا إلى فرع آخر لبوتاجي في عمارة صاحب هذا المحل الكائنة أمام بستان الانشراح في شارع البوتاجي، ابتاع منه والدي فونوغراف صوت سيده مع عدة اسطوانات منها أغنية «على بلد المحبوب وديني»، فرحت كثيراً لأن الفونوغراف سيمكنني من سماع الاسطوانات التي تستهويني أغانيها.

بعد ذلك اتجهنا إلى شارع ستانتون، إلى محل ملابس بجانب المعهد الوطني، ومن ثم اتجهنا إلى محل آخر للساعات في شارع أمية يملكه صديق والدي عبد الفتاح أبو زيد.

عند الظهيرة، اتجهت مع والديّ نحو الطرف الأيمن من ساحة الحناطير «الخمرة» المحاذية لحارة الكنائس حيث يوجد مطعم ابو علي القلعاوي الخاص بالعائلات بجانب بقالة سويدان، دخلناه، وتناولنا طعام الغداء.. كنت منتشياً لحديث والدي عن مدرستي الجديدة، كان يجول بعينيه في أنحاء المطعم ويتحدث برقّة.. وفي لحظة وجّه حديثه إليَّ قائلاً: «بعد ثلاثة أيّام ستفتح المدارس أبوابها، وتدخل الصف الثاني الابتدائي في مدرسة البرج، وبهذه المناسبة سوف نقضي بقية اليوم في متنزه «الانشراح» لتوديع أيام عطلتك الصيفية».

ارتسمت على وجه أمي ابتسامة عريضة، استدارت نحوي وقالت بصوت هامس: «إن شاء الله بالنجاح يمّه في المدرسة الجديدة».

كنت فرحاً مبتهجاً عندما خرجنا من المطعم.. سرنا في سوق الشوام قي وسط المدينة، كان مزدحماً بالمارة، ومحلاته التجارية مفتوحة تعرض بضائعها في «فترينات» منسقة بإتقان ملحوظ، من اشهرها محل «العشرة بقرش».. تجاوزنا هذا السوق، واندفعنا منه سيراً على الأقدام بخطوات ضيقة بطيئة إلى عدة شوارع مررنا بها، وعند ناصية توقف والدي فجأة، نظر إلى بناية جميلة في حيفا الغربية، أشار بيده عليها وقال لي: «هذا هو النادي الأرثوذكسي أحد الأندية المهمة في حيفا، الشاعر الكبير عبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» من الأعضاء المهمين فيه، تُلقى فيه المحاضرات العلمية والأدبية والسياسية، وكثيراً ما كانت إدارة النادي تستضيف بعض الأدباء من خارج فلسطين لإلقاء المحاضرات، كما أنَّ فيه مكتبة كبيرة ووسائل للتسلية والترفيه وله فرق رياضية مهمة».

أعطاني هذه المعلومة في سياق حديثه الدائم عن التسامح والتآخي بين أبناء الوطن الواحد، وأضاف لي مثالاً آخر في السياق نفسه مفاده أنَّ جورج مرديني من لاعبي حيفا المهمين في كرة القدم يلعب قلب هجوم في فريق «النادي الإسلامي» في حيفا.

تابعنا السير معاً على الأقدام، كان هدفنا متنزه الانشراح الشهير لقضاء بعض الوقت فيه.. وصلنا بعد فترة قصيرة شارع البنوك الذي يشق المتنزه بالطول. كان المتنزه يمتد من شارع اللنبي في

أعلاه إلى شارع يافا في أسفله، إنه من الصور الجميلة التي لم تخنها ذاكرتي، لاتزال راسخة فيها رسوخ اليقين، أذكر فيها منظر الأشجار الممتدة في محيط مجاور له تشكل إطلالة خلفية جميلة له تجلّ عن الوصف. إنّه فسحة واسعة من الأرض، يصعب وصف ما فيها من جنائن بظلالها وأفيائها التي تتمازج مع رائحة الياسمين في كل شبر فيها.. إنّه كان متنفساً لأهل حيفا، ليس بسبب جمال حدائقه وأشجاره فقط بل إنّه اشتمل على مسرح مهم، تقام عليه المهرجانات الخطابية والأعمال المسرحية والحفلات الغنائية.. سمعت والدي يقول إنّ «منيرة المهدية «غنت على خشبته، ومثّل «يوسف وهبي»، و«فرقة عكاشة»، وغيرها من الفرق العربية الأخرى التي كثيراً ما زارت حيفا.

شعرت بنشوة لا توصف لزيارة متنزه الانشراح، لعبت مع أولاد من عمري، واستخدمت أرجوحة قلّابة نصبت في أحد أطرافه.. عشت في تلك الأجواء أوقاتاً سارة طيبة في التسلية واللهو قبل بدء السنة الدراسية.

كان والدايَّ على مقربة ينظران إليّ ويبتسمان بابتهاج، والأرجوحة تتابع دورانها حول محورٍ مركزي بأقصى سرعتها وتتحرك باهتزازات دائرية متواصلة نحو الأعلى والأسفل، والأطفالُ يصرخون بأعلى أصواتهم من شدة الانفعال، ومع زيادة سرعتها كان البنات يطلقن صيحات ذعر عالية، ظلَّ الأمر على هذه الحال نحو عشر دقائق توقفت بعدها الأرجوحة، ونزلت مع الأولاد من مقاعدها.

تركت الأرجوحة خلفي واتجهت نحو والديّ، تفاجأت عندما وجدتهما يجلسان مع جارنا حسنين الصاوي وزوجته وابنته عبلة.. علمت أنَّ اللقاء كان مصادفة بدون موعد متفق عليه من قبل، فرحت كثيراً لرؤية عبلة، وزاد فرحي حين طلبت أمها مني أن أساعدها على استخدام الأرجوحة. أصر والدي على أنْ يدفع تذكرة «ركبة» الأرجوحة، ناولني قرشاً مخروماً، يساوي تعريفتين ثمن تذكرتين لي ولعبلة.. نظرت لي أمّي بحنان في تلك اللحظة، همست وكأنّها تحدث نفسها: «الله يرضى عليك يمّه دير بالك عليها».

أسعدني طلب أمي، أشعرتني كلماتها بأنني أصبحت قادراً على الاهتمام بغيري، إحساس بزهو تأجج داخلي، وزادت سعادتي عندما نظرت إلى عبلة ووجدتها ترسم على وجهها ابتسامة صغيرة، وتقول بفرح ظاهر: «يله على المرجيحة نوقف على الدور».

بينما كنا ننتظر دورنا لركوب الأرجوحة أخبرتني عبلة أنّ أهلها اختاروا لها مدرسة جديدة خاصة تسمى مدرسة الراهبات، لأنها أفضل من مدرسة الحكومة التي أنهت فيها الصف الأول الابتدائي، وبينما كانت تتحدث معي، اتجهت عيناها إلى الأسفل، وقالت بخجل واضح: «يا ريت في حيفا الأولاد والبنات بدرسوا معاً في نفس المدارس، كان أنا وأنت يمكن أن ندرس في نفس المدرسة وكل يوم انروح ونيجي مع بعض».

بلعت ريقي بصعوبة وأجبتها: «يا ريت».

بفرح، التفتت نحوي ونظرت إلي، أرادت أنْ تتحدث، للأسف لم تقل شيئاً، لأنه جاء دورنا لركوب الأرجوحة.. جلسنا معاً في أحد مقاعدها المربوطة بشكل آمن، وأخذت تدور بأقصى سرعة لها، والأطفال يصرخون بأعلى أصواتهم، وعبلة تصرخ معهم بصرخات حادة متواصلة، وفي لحظة

زاد فيها توترها من شدة اهتزازات الأرجوحة، قامت بمسك يدي الصغيرة، تشابكت أصابعنا وعيناها مشدودتان إلى الأرض.

شعرت بمتعة نادرة منقاداً لسحر لحظة لم أعشها من قبل.. إحساس غريب راودني تخيلت فيه نفسي، من دون الناس، حافظها وحاميها، شعرت نحوها بشعور غريب يصعب عليّ كطفل في الثامنة من عمره، من عمرها المبكر نفسه أنْ يدرك كنه ذلك الشعور في تلك اللحظات.

بخروجنا من متنزه الانشراح بعد عصر ذلك اليوم، اقترح جارنا حسنين الصاوي أن ننهي يومنا بزيارة جبل الكرمل.. وافق الجميع على اقتراحه، واتجهنا مشياً على الأقدام بخطى بطيئة نحو شارع الجبل.

***

ها هي الذكريات تتدفق في داخلي من جديد، تتقافز فيها مناظر طبيعية ساحرة، وحشود من المتنزهين، أولاد يتمشون مع أهاليهم، وباعة ينتشرون على امتداد شارع الجبل ينادون بأعلى أصواتهم على بضائعهم، هريسة وعرانيس ذرة مشوية وترمس وكستنة مشوية وبزر على أنواعه.

وعلى مقربة منهم ينتشر باعة الخروب والسوس والتمر هندي، الذين يتميزون بزيهم التراثي ذي الشروال «السروال» الواسع والصدرية المطرزة، والطربوش الأحمر، يقدمون عصائرهم بأباريقهم النحاسية الكبيرة التي يحملونها على ظهورهم، ويعلنون عنها بأعلى أصواتهم على إيقاع رنين يخرج من ضرب صناجتين نحاسيتين يحملونها في أياديهم.

توقفنا عند بائع خروب، احتسينا من شرابه المثلج، وواصلنا طريقنا، وسرعان ما وصلنا إلى الكبابير، ومنها تابعنا المشي في منحدرات جبل الكرمل باتجاه منطقة وادي السياح عند المدخل الجنوبي لمدينة حيفا، حيث يوجد بستان الخياط.

بالمصادفة التقينا بصديق لوالدي من آل الخياط، دعانا للدخول والتعرف على معالم البستان المخصص فقط لأبناء عائلة الخياط وأصدقائهم.. استجاب والدي لدعوته، وأعتبر الآن أن تعرفي على بستان الخياط ذكرى جميلة لم تمحُها الأيام من ذكريات وعيي الأول بالحياة في حيفا.

يتكون البستان من مساحة واسعة من الأرض مرصعة بشجيرات زينة جميلة وأشجار مثمرة من مختلف الأنواع، وفيه مدرجات حجرية واسمنتية وبرك وقنوات مياه متشعبة ونوافير وشلالات صغيرة تجري فيها المياه تحت تأثير انحدارات أرضية مصنعة، تأتيها المياه من عين السياح، تتدفق نحو البستان من بقعة عالية ما بين الصخور.

طفنا فيه، تعرفنا على كل أجزائه، كل شيء فيه جميل.. تعود إلى ذهني الآن ذكريات زيارته بصورة متقطعة ولمحات سريعة.. أتأمل منظر شلالاته كومضات تسطع من الماضي، أتذكرها بذهول، كان صوت سقوط مياهها يهدر بأصوات مفعمة بالموسيقى، تحلو باختلاطها مع شدو عصافير كانت ترفرف على مقربة منها، وكان أريج الأزهار المتفتحة والأعشاب وأبسطة النجيل تفوح في كل مكان.

أذكر أن والدي قال لنا: «هذا البستان قطعة من الجنة، أمد الله بعمر الثري الحيفاوي فكتور خياط الذي أقامه لعائلته في هذا المكان الساحر».

وأضاف: «يا ريت كل الأثرياء يقتدون به وبأعماله الخيّرة».

فيما كنا نتنزه أوشكت الشمس المتوهجة على الانطفاء، بدأت بالغروب مع اقتراب الليل.. إنّه مشهد مدهش، بينما الشمس تغيب، تشع السماء بألوان برتقالية وأرجوانية على امتداد المدى، وشيئاً فشيئاً يبدأ الظلام بالانتشار، وتبدأ النجوم بإرسال أنوارها السرية عبر السماء الواسعة.. هذا المنظر يتكرر في تتابع تجلّياته في كل الدنيا منذ ملايين الملايين من السنين لكنه في جنة حيفا له نكهة أخرى، إنّه لوحة ساحرة مؤطرة بإطارٍ كمالهُ لا يوصف.

مع حلول الليل غادرنا بستان الخياط، واصلنا السير صعوداً إلى الكبابير، حيث توجد الطائفة الأحمدية، ومنه اتجهنا إلى سفح الكرمل، وبعد فترة قصيرة وصلنا شارع الجبل، مضينا فيه نزولاً حتى شارع الملوك، ومنه انحرفنا شرقاً إلى شارع الناصرة.

عندما أتذكر الآن بعد كل تلك السنين متنزه الانشراح وبستان الخياط، ومرافقتي لأهلي في ذلك اليوم من أيام طفولتي، أشعر بومضات ساطعة تضيء فجأة مناطق الظل في حياتي الحالية، وألتقي بالطفل الذي كنته أنا في لوحات متشابكة من نسيج أيامي الماضية.

(16)

بدأ مطلع العام الدراسي 1946 / 1947 في الأول من أيلول 1946، أعدّت لي أمي في صباح ذلك اليوم العادي شنطة المدرسة، وضعت لي فيها الدفاتر والكتب والأقلام وغيرها من أدوات التعليم الابتدائي المقرّرة على الطلبة وقتذاك. تناولت إفطاري، وخرجت إلى الساحة العامة المتاخمة لمنزلنا، وجدت بانتظاري ستة من أبناء الجيران ممن يدرسون في المدرسة نفسها، اتجهنا معاً إلى شارع قريب يتفرع من شارع الناصرة، سرنا فيه صعوداً إلى شارع البرج حيث توجد المدرسة في منطقة مرتفعة مليئة بأشجار الصنوبر والكينا والسرو، تُطل على الميناء والبحر كما أشرت من قبل.

دخلت الصف الثاني الابتدائي في مدرسة البرج، وكنت وقتذاك في الثامنة من عمري، كنت على معرفة بأصول الحياة المدرسية من مدرسة بُرقة الابتدائية التي أنهيت فيها الصف الأول الابتدائي.

أول ما لاحظته في مدرستي الجديدة الاهتمام الزائد بطابور الصباح الذي تلتقي فيه كل الصفوف في فناء المدرسة لمدة تقرب من نصف ساعة، إذ كان يحتوي على مراسم متنوعة تبدأ بترداد النشيد الوطني من قبل الطلبة، وتأدية تمارين رياضية على إيقاع لازمة يكرّرها أحد الأساتذة بصوت أجش عالٍ كل صباح «العقل السليم في الجسم السليم»، ومن ثم يبدأ التفتيش على الكتب والدفاتر والأقلام في الحقائب، وعلى نظافة الملابس والأظفار.

كانت مدرسة البرج تتبع نظام المدارس الحكومية، وتطبق مناهجها المقرّرة من دائرة المعارف العامة، وقد تكوّنت مواد الدراسة في الصف الثاني الابتدائي من الدين، اللغة العربية، التاريخ والجغرافية، علم الصحة، الطبيعة (مبادئ العلوم)، الرسم، التدريب اليدوي، الزراعة وكان ثمة اهتمام بدروس الرياضة، يلعب فيها الطلبة ويجرون ويقفزون، ويلعبون كرة القدم والسلة والكرة الطائرة في ملعب خاص بالمدرسة، يتم فيه أيضاً إجراء مباريات مع فرق تابعة لمدارس أخرى حكومية وأهلية.

أذكر من معلمي المدرسة، أحمد كريم مدير المدرسة، والمعلم عمر أستاذ مادة اللغة العربية، كان يدرسها بالاعتماد على كتاب درجات الكتابة من تأليف مربي الأجيال خليل بيدس، والشيخ جلال أستاذ الدين، وقد كان يعتمر العمامة ويلبس الجبة، ويشتهر بقسوته على الطلاب، يحمل دوماً في يده عصا من الخيزران، تعوّد على استعمالها بكثرة لمعاقبة المتأخرين والمقصرين والمشاغبين، لأنَّ الضرب بالخيزرانة على الأرداف والركل بالقدم والصفع بالكف على الوجه والركوع على الأرض كانت وسائلَ مسموحاً بها آنذاك.

وبالنسبة إلى الطلاب يعلق في الذاكرة أسماء أبناء جيراني الستة الذين سبق ذكرهم، وأذكر من طلبة صفي الثاني الابتدائي طالب من الطيرة اسمه عصام أبو غيدة، وآخر اسمه عادل ياسين كان يسكن في الحليصة على مقربة من جسر رشميا (فوق وادي رشميا) وقد زرته في بيته عدة مرات، وتحتفظ الذاكرة بأسماء زملاء آخرين: حسن زهران وراشد القاضي وأحمد شبلاق وحسين خليل.

تشاء المصادفات أنْ أرى صورة راشد القاضي وحيثيات مقابلة أجراها معه موقع «حيفانت» بتاريخ 27/4/2010 مسجلة في زاوية بعنوان «حيفا ذاكرة وتاريخ»، تحدث فيها عن طفولته في مدرسة البرج وعن أسرته وعن حيفا آنذاك، كان في الثالثة والسبعين من عمره عند إجراء المقابلة، واتضح لي من سياق حديثه أنّه لم يهاجر من حيفا ؛ لايزال يعيش ويعمل فيها مقيماً في حي وادي النسناس، شارع حداد رقم 14 (********).

لاحظت من اليوم الأوّل في مدرسة البرج أنَّ للغة العربية أهمية خاصة، يركز فيها على النحو والصرف والنصوص الأدبية من نثر وشعر، واستظهار قصائد لكبار الشعراء من القدماء والمعاصرين، خصوصاً المتنبي والبحتري وأبو تمام وغيرهم من القدماء، وعبد الرحيم محمود وعبد الكريم الكرمي وإبراهيم طوقان وأحمد شوقي وخليل مطران وبشارة الخوري وإيليا أبو ماضي من المعاصرين، وكذلك استظهار خطبٍ رفيعة المستوى لعلي بن أبي طالب والحَجّاج وواصل بن عطاء.

كان أستاذ اللغة العربية لطيفاً وصبوراً من خريجي الكلية العربية الشهيرة في القدس، لم يمارس عقاب الطلبة بالضرب كما هو حال غيره من المعلمين، ولهذا كان أحب المعلمين إلى الطلبة، أغراهم بحفظ دروسه على خير وجه، وأغراني بشكل خاص على حفظ مئات أبيات من الشعر، وحفظ حكاياه، وساعدني مبكراً على تكوين ذاكرة أدبية، تشكلت وقويت مع الأيام.

كان كل شيء مختلفاً في مدرسة البرج.. صحيح أنّني تضايقت في الأسبوع الأول لأنني لم أجد حولي أصدقائي من مدرسة بُرقة، لكنني شيئاً فشيئاً تحسنت أموري وتعودت على الوجوه الجديدة، وتعودت على سماع أخبار سياسية عن الأوضاع الفلسطينية لم أسمعها من قبل من معلمي مدرسة بُرقة.

كان مدير المدرسة أحمد كريم وطنياً معروفاً بعيد النظر يتتبع الأصداء السياسية ويتحدث بين الحين والحين في طابور الصباح عن المستجدات السياسية.. أذكر أنّه تحدث في مرات عديدة عن ضرورة تشكيل لجان قومية في المدن والقرى الفلسطينية تكون بمثابة صورة مصغرة عن الهيئة العربية العليا.. فروع لها تعمل على حماية المواطنين من أخطار الصهيونية خصوصاً وأن ميزان القوى أخذ يميل إلى مصلحتها غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية.

تتبعت تفاصيل هذه الأمور السياسية في منزلنا أيضاً، أذكر جيداً أحاديث والدي مع زوارنا من الأهل والأصدقاء.. تمحور حديثهم دوماً عن أخطار قادمة لا محالة.. كنت أخبر والدي عن أحاديث أحمد كريم مدير المدرسة أثناء طابور الصباح، وعرفت منه أن مدير مدرستي من الشخصيات الوطنية المهمة، له مكانته في أوساط الحركة الوطنية، وله الفضل أيضاً في زرع الحس الوطني وحب الوطن في نفوس طلابه مبكراً في مرحلة الطفولة، وأنا واحد منهم.

لمدرسة البرج طقوسها عند انتهاء السنة الدراسية، تحتفل بهذه المناسبة بوقوف الطلاب بصفوف متوازية في ساحة المدرسة أمام مدير المدرسة وكل المعلمين، ويبدأ الاحتفال بنشيد «موطني»، وتلاوة خطب وأشعار وطنية حماسية من الطلبة، وينتهي بكلمة جامعة يلقيها مدير المدرسة، ثم توزع الشهادات على الطلبة ويردد نشيد موطني في الختام:

موطني.. الجلالُ والجمالُ السناءُ والبهاءُ في رُباك

والحياةُ والنجاةُ والهناءُ   والرجاءُ في هواك

هل أراك

سالماً منعما   وغانما مُكرما

هل أراك في عُلاك   تبلغ السماك

موطني

***

الجديد في احتفال المدرسة في نهاية السنة الدراسية 1946/1947، على وجه التحديد في الأول من حزيران 1947، أنَّ مدير المدرسة أحمد كريم.. تحدث في كلمته بنور رؤية واضحة عن تداعيات إحالة القضية الفلسطينية على الأمم المتحدة لتقرير مصيرها، واعتبر هذا القرار بمثابة قرار بالتخلي عن الانتداب لتمكين اليهود من إنشاء دولتهم اليهودية.. كان يتحدث، قبل اتخاذ قرار التخلي عن الانتداب بعدة شهور(********)، كان يضغط بإحدى راحتيه على الأخرى وهو يتحدث، وفي لحظات يعرضهما مفتوحتين، مشيراً في يده اليمنى نحو الهدار القريب من المدرسة حيث تتكدس الأسلحة عند العدو الذي يزداد في كل يوم قوة وتنظيماً. طالب بنهاية كلمته بضرورة تشكيل قيادة عليا في كل مدينة وقرية تمسك دفة الأمور فيها لمواجهة تبعات الخطر المرتقب.

(17)

بدأت الإجازة المدرسية في الأول من حزيران 1947، وفي اليوم التالي، غادرت حيفا مع والديّ للاصطياف في بُرقة.. وفيما اجتزت الطريق المؤدية إلى منزلنا، وجدت جدتي بانتظارنا، قلت لها وهي تستقبلني بالأحضان: «غدا سأذهب معك في الصباح الباكر إلى أشجار تين بستان سيدي عند العين التحتا».

أجابت مع ابتسامة عريضة: «إن شاء الله».

وبالفعل كنت في اليوم التالي مع ساعات الفجر الأولى أقطف معها ثمار التين الطازج المغسول بالندى.. عدنا إلى المنزل بسلتين كبيرتين، تناولنا بعض ما فيها مع طعام الفطور.

التقيت بأصدقائي وأبناء عمومتي، حدثتهم عن مدرسة البرج، وعن حوادث كثيرة دامية وقعت في حيفا، كان آخرها انفجار قنبلة في سوق الخضار وضعت في داخل أحد صناديق الخضار المموهة، وحدثتهم عن أخطار آتية في أيام مقبلة تحدث عنها مدير المدرسة بمناسبة انتهاء السنة الدراسية.

كنت فخوراً بأنني أتحدث مثل الكبار البالغين بالسياسة. لاحظت من نظراتهم أنّني أحدثهم عن أمور لا علاقة لهم بها، أثارني إعجابهم بما أقول، وإذ ذاك خيل لي أنني كمدير مدرستي أعي حقيقة أيام قادمة غير مرئية تغشاها الظلمة ويكتنفها الغموض.

ملأت وقتي في بُرقة متجولاً في السهول والبساتين، وتسلق الهضاب المزهرة واستنشاق الهواء النقي، كنت أحس بلذة ثملة من هذه التركيبات الجميلة التي تملأ نفسي بالرقة والسعادة. لم أشعر برغبة باللعب مع أصدقائي كما كان الأمر من قبل عندما درست في مدرسة بُرقة، أخذت أفضل الحديث معهم حول ما يدور حولنا من أحداث وطنية، اختزنتُ في ذاكرتي لوقت طويل فيما بعد حيثيات تلك الأحداث.

كان اهتمامي ينصب على مستوى الأسرة في الجلوس مع أمي وجدتي، أسمع بشغف زائد ما يقولانه لي من حكايا وأشعار وأغانٍ شعبية بكلمات وأنغام عذبة جميلة لا يزال وقعها في أذنيّ حتى الآن... ساهمت تلك الحكايا والأغاني في غرس حب التخيل في وجداني والركض وراء أحلام تأملات شاعرية أنسجها بصور متشابكة تبعدني عن الواقع المعيش، تبقى معي وينساب نبضها في أعماقي، وتلمع أطياف خطوطها أمامي لمعان البروق في ليلة من ليالي الشتاء المظلمة.

في ذات يوم دخلت حديقة منزلنا في بُرقة، وجدت والدي يقف ملصقاً ظهره بجذع شجرة زيتون كبيرة، وينظر بسعادة إلى ثمارها وأوراقها النضرة، أعلمني بأنه زرعها أحد أعمامه قبل سنوات طويلة، وردد على مسمعي عبارة لم أسمعها من قبل «غرسوا فأكلنا ونغرس فيأكلون».

ثم أضاف قائلاً: «شجرة الزيتون شجرة طيبة ومباركة تعيش طوال مئات السنين ويوجد في بُرقة زيتون رومي من أيّام الرومان».

كنت سعيداً بما سمعته من والدي عن شجر الزيتون.. لاحظ أنني أرغب في معرفة المزيد من المعلومات، وهكذا جمع شتات أفكاره وتابع حديثه بالكشف عن جوانب أخرى كثيرة عن الزيت

والزيتون(********).

نظر إليّ والدي في ذهول، عندما قلت له: «إذاً شجرة الزيتون ليست فقط وريقاتٍ وأغصاناً خضراءَ غضةً، وليست مصدراً للزيت وأكلة «المناقيش» إنها أكثر من كل هذا بكثير».

أومأ برأسه موافقاً، واستمر ينظر حوله متمتعاً بمنظر أغصان نضرة للأشجار المزروعة في حديقة منزلنا.

وفيما كان والدي مستغرقاً في حلم اليقظة، يجول ببصره دون انقطاع في كل أجزاء الحديقة، أسند ظهره إلى جذع شجرة الزيتون وقال في هدوء ووجهه يتوارى بين أغصانها الملساء الجديدة: «جذور قرامي الزيتون من جذورنا، تمتد في باطن أرضنا منذ أزمان بعيدة، لن تقتلع منها، ستبقى فيها مدى الحياة ميراثاً للأحفاد في أيام قادمة».

رنّت كلماته في أذني، عرّفني بها في تلك اللحظة على المعنى الحقيقي للجذور الممتدة في الأرض، تسرّبت تلك الكلمات إلى أعماق ذاكرتي، وتوارت في داخلي مملوءة بأصوات خفية، فصلتني عن واقعي كطفل في التاسعة من عمره، وشدّتني إلى زمن آخر بألوان وأشكال أخرى رأيت فيها واقع أرضي كما ينبغي.

(18)

تتواصل أيام العطلة الصيفية في بُرقة من يوم إلى آخر، يبدأ النشاط فيها مع بزوغ خيوط الفجر وتتسع فيها مجريات الحياة الريفية الهادئة في أطياف صور مختلطة متشابكة على مساحات واسعة من الأرض على امتداد الحقول والحواكير المغروسة بكل أنواع الأشجار.

في ذات صباح شعرت بالسعادة عندما أخبرتني أمي بأننا على وشك الذهاب إلى قرية سبسطية الأثرية التاريخية القريبة من بُرقة لزيارة عمتي مريم شقيقة والدي الكبرى والوحيدة، تزوجت من قريب لنا في تلك القرية، واعتدت مع والديّ على زيارتها في الأعياد وغيرها من المناسبات الأخرى.

أعاد والدي على مسمعي كلاماً محفوراً في ذاكرتي يكرره دوماً عندما نزور عمتي: «سنمشي سيراً على الأقدام لمدة نصف ساعة فقط».

ويضيف أيضاً: «سبسطية قريبة، أنظر يمكنك رؤية بيوتها بالعين المجردة من هنا، من منزلنا، أولادها يأتون كل يوم سيراً على الأقدام لمتابعة دراستهم في مدرسة بُرقة».

واصلنا السير من منزلنا إلى ما بعد الساحة الرئيسة في بُرقة باتجاه «راس الطبيب».. هضبة في الجهة الجنوبية من القرية ترتفع على طول حافة منخفض يتجه نزولاً إلى وادي الشامي، ومنه تتجه الطريق صعوداً إلى أعلى، بالقرب من أشجار وارفة الظلال تحيط بها على جانبيها، تكثر فيها على امتداد سطور طويلة أشجار اللوز والزيتون والتين والمشمش والرمان والعنب.

نقف دوماً على أرضٍ مستوية في نهاية الطريق تُطل على مشهد بانورامي جميل لعدد كبير من القرى من بينها بُرقة، ندور بوجوهنا في كل الجهات، نشاهد الشمس وهي تلقي أشعتها على جدران بيوت حجرية بيضاء، وتمتد حولها مساحات أراضٍ شاسعة تتشابك فيها أجمل الألوان.. يقول والدي من وحي هذه المناظر الساحرة لازمة كرّرها على مسمعي عشرات المرات: «بلادنا جنة الخلد وأكثر».

في نهاية الطريق وصلنا ساحة القرية، يوجد في وسطها مقهى حديثة يندر وجود ما يشبه بنايتها في كثير من المدن، بعد ذلك وصلنا بيت عمتي، كانت سعيدة بنا، تبتسم بابتهاج واضح، التقينا بابنها وبناتها وعدد من أحفادها، كنت على معرفة جيدة بواحد منهم واسمه حريص، طلبت منه أنْ نزور الأماكن الأثرية وخصوصاً مقبرة الملوك.

رافقني مع آخرين من أصدقائه، توقفنا مطولاً مع مجموعة من السياح الأجانب عند المدرج الروماني، وقصر القلعة، ومعبد أغسطس، وكنيسة الراس، والملعب المدرج، والبرج، وشارع الأعمدة، ومقبرة الملوك، فيها مدفون أحد ملوك الرومان، وتتميز بدقة صنع تماثيل منقوشة على القبور تجسّد ملوكاً وحراساً وأطفالاً يحملون عناقيد عنب.

والمعروف أنَّ الرواية الدينية المسيحية تُشير إلى أن يوحنا المعمدان مدفون في سبسطية، وقد بُنيت كاتدرائية على ضريحه، هُدمت في زمن ماضٍ ولا أثر لها في الوقت الحالي.

فيما كان أحد السواح يجلس على قرب مني في شارع الأعمدة يمسح عدسات نظارته المغبشة، عرض عليه بعض الأولاد مجموعة من العملات القديمة.. استجاب لعرضهم وأخذ يقلبها وينظر إليها بعدسة مكبرة، ويواصل معهم بإشارات يُرددها بأصابعه لعدم إتقان الأطفال الباعة الصغار لغته أو أية لغة أجنبية أخرى، وبعد أخذ ورد بالإشارات تمت صفقة البيع، وحصل الأطفال على ما ابتغوه من نقود ثمناً لنقودهم القديمة.

علمت من حريص أنّ أطفال القرية يهتمون كثيراً بالتنقيب عن العملات القديمة في الحقول المجاورة وفي أمكنة كثيرة داخل القرية، نبهني إلى وجود عدد منهم كانوا يُنقبون على مقربة منا، طلبت منه بإلحاح أن نشاركهم عمليات التنقيب، استجاب لطلبي بعد تردّد.. أخذنا نحفر بأيدينا على مقربة من سلسلة حجارة أثرية كبيرة، استغرق الحفر بعض الوقت، وتمكنت من تجميع خمس قطع قديمة رومانية مسكوكة من النحاس وثلاث قطع أخرى مسكوكة من الفضة، فرحت بها كثيراً.. تملكني السرور وداخلتني المتعة، وشعرت كأنني ربحت كل أموال الدنيا.

سرت في طريق العودة مع حريص وصحبه، وحين وصلنا إلى ساحة القرية، رأيت والدي جالساً في المقهى مع اثنين آخرين، لوّح لي بيده عن بُعد طالباً مني الانضمام إليهم.. دخلت المقهى ووجدت أن الجالسَين مع والدي أحدهما ابن عمتي موسى والآخر عبد الهادي كامل قريبنا وزوج بنت عمتي، وقد زارنا في منزلنا في حيفا عدة مرات.

كان كل شيء مختلفاً في حديثهم، لم يتطرقوا إلى السياسة، بل إلى أمور كثيرة تتصل بواقع عشيرتنا عشيرة آل الحاج (أو الحجة) بناسها وأراضيها.. أعادوا على مسمعي أقوالاً عن أهمية الدراسة والتعليم والأنشطة النقابية ما تزال محفورة في ذاكرتي حتى الآن.

بعد فترة من الزمن غيّر والدي مسار حديثهم وسمعته يسأل قريبنا عبد الهادي عن الشِعر وعن آخر نتاجاته الشعرية.. فهمت من إجابته أنه كان ينشر في بداياته الشعرية باسم مستعار «الهادي المحجوب» ثم بدأ ينشر باسمه الصريح بعد أنْ نشر قصيدة له في مجلة الرسالة المصرية الشهيرة، وأنه بدأ يبرز في الأوساط الأدبية في فلسطين والدول العربية بعد أن فاز بمسابقة هيئة الإذاعة البريطانية في لندن عام 1942 بالجائزة الأولى عن قصيدته المعروفة بعنوان «الوحدة العربية» ومطلعها:

أأراك يا علم العروبة تخفقُ

فوق الديار وأنت حر مطلقُ

شعرت بارتياح لحديث قريبي عن شعره، أعطيته مكانة متميزة في ذاكرتي، فضاءً رحباً يتسابق فيه مع القوافي في سخاء، مجتازاً في ذلك صفاً طويلاً من مجايليه من الشعراء، سجّل هذا التفوق على إيقاع قصائد كثيرة نشرها على صفحات عدد كبير من الصحف العربية.

أمضينا وقتاً رائعاً في سبسطية، وفي فترة بعد عصر ذلك اليوم ودعنا عمتي وأقاربنا، وبدأنا رحلة العودة إلى منزلنا في بُرقة.. وفيما كنا نقترب من «راس الطبيب» أخبرت والدي عن النقود القديمة التي جمعتها، قلبها في يده، ونظر بعمق في وجهَي كل قطعة منها، ثم أخذ يشجعني على الاهتمام بجمع النقود القديمة، وبفضل تشجيعه أصبحت جامع قطع نقود قديمة سُكت في عصور مختلفة

تحمل أسماء رجالات سكّوا تلك النقود أو أمروا بسكّها، كما جعلتني أيضاً على علاقة مع مجموعات عربية وأجنبية تُعنى بجمع المسكوكات وحفظها والكتابة عنها(********).

(19)

إنها الليلة الأخيرة من العطلة الصيفية في بُرقة، وكالعادة في كل عطلة يزورنا الأهل والأصدقاء في هذه الليلة لوداعنا قبل الرجوع إلى حيفا، سرعان ما وصلوا، وامتلأ البيت بهم، انصبَّ حديثهم حول مستجدات الأحداث الخطيرة التي كانت تتلاحق نتيجة تحيز الرئيس ترومان السافر لمصلحة الصهيونية وتأييده تقسيم فلسطين، وتوقع الجميع أياماً مضطربة تتوالى بسرعة فائقة بعد انتهاء الانتداب.

نظرت إلى جدتي، كانت تجلس في زاوية قرب خالاتي، تضع يديها في حجرها في وضع متشابك، وتنظر إلينا وعلامات حزن في عينيها من تفاصيل الحديث الذي يدور حولها بين الحضور، أجابها والدي على نظراتها المستفسرة قائلاً بطريقته الهادئة: «ليس هناك من شيء نخافه في حيفا، ستبقى الأوضاع كما كانت من قبل».

لم تجبه جدتي، اكتفت بالنظر إليه بنظرة لا توحي بالارتياح.

غداة تلك الليلة عدنا إلى حيفا، وفي اليوم نفسه التقينا عدداً كبيراً من الأصدقاء والجيران، زارونا كالعادة في منزلنا من أجل السلام والترحيب، ودار الحديث حول القرار المرتقب للجنة التحقيق الدولية، وتوقع صدور قرار عن الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين.

***

بعد عدة أيّام فتحت المدارس أبوابها في الأول من شهر أيلول.. بدأت السنة الدراسية 1947/1948، في اليوم الأول من سنتي الثالثة في مدرسة البرج.. طلب أستاذ اللغة العربية أنْ يتحدث كل تلميذ شفاهة عما فعل في العطلة الصيفية، تحدثت عن الأيام التي قضيتها في بُرقة وزيارتي لسبسطية، تحدثت بأسلوب حماسي عن شجر الزيتون وامتداد جذور قراميها في باطن الأرض لفترات زمنية طويلة.. عبر مئات السنين المتعاقبة، تعقد صلة قوية بين الأجيال دونما انفصال.

أسعدني تعقيب أستاذي على ما قلته عن الأرض والزيتون، كلمات تهنئة وإعجاب قليلة تركت أثراً إيجابياً في نفسي.. لا أزال أذكر تلك الكلمات، وأقر أنها أثّرت في زيادة اهتمامي بمواضيع الإنشاء واهتماماتي الأدبية بشكل عام، ونفوري من الرياضيات والمواضيع العلمية.

وساعدت أيضا على زيادة اهتمامي بالقراءة، قراءة كل ما تقع عليه عينيّ، وشجعتني على تصفح الصحف التي يحضرها والدي إلى المنزل، فلسطين، والدفاع، والاتحاد.. كنت في البداية بالكاد أستطيع قراءة العناوين الكبيرة، ومع الأيام أخذت أتدبر أمري بسهولة وأقرأ صفحات بكاملها بأخطاء محدودة.

***

ذات مساء سمعت والدي يحدث أصدقاءه عن قدرتي على قراءة الصحف، إنّهم أصدقاؤه أنفسهم الذين كان يجتمع معهم في الساحة القريبة من منزلنا في أشهر الصيف الدافئة، ومع بدء الشتاء

أخذت اجتماعاتهم تتم في داخل المنزل. طلب مني والدي في تلك الأمسية أن أقرأ بنفسي أمام أصدقائه أخبار الصفحة الأولى من جريدة فلسطين، قرأت على مسمعهم خبراً كُتب بحروف كبيرة نافرة، تحدث عن تبني الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً(********) يقضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين واحدة يهودية، والأخرى عربية، وتقع حيفا ضمن حدود الدولة اليهودية الموعودة كميناء رئيسي لها.

أثر هذا الخبر على توجيه الحديث في تلك الأمسية نحو مواضيع كثيرة تعلّقت بالقرار.. مرّ وقت طويل، ساعات لا أعرف عددها وهم يتناقشون، فهمت منهم أنَّ القيادة الفلسطينية رفضت القرار، وجدت أنّه لا فائدة تُرجى منه.. أُعيد الآن إحياء ما جرى في تلك الأمسية بالاعتماد على أوراق سجلها صديق والدي جابر حسين، وجدتها بين أوراق والدي، وقد أجريت عليها بعض التحسينات الشكلية مع إبقاء نصها الأصلي على حاله دون تغيير.

كان صديق والدي جابر حسين نقابياً بارزاً يتباهى دوماً بانتماءاته اليسارية، وبخطّه النضالي من أجل نصرة الطبقة العاملة، كثيراً ما كان يكرّر في أحاديثه اسم إميل توما وإميل حبيبي وتوفيق طوبي وغيرهم من كتّاب جريدة «الاتحاد» اليسارية(********)، بيّن في حديثه أن القادة السياسيين التقليديين ارتكبوا ويرتكبون الأخطاء تلو الأخطاء، وأنهم يتلاعبون بمقدرات البلاد على أهوائهم، وأنّ أغلبهم لا ينظرون إلى البعيد، وأنهم يوجهون القضايا الوطنية في خدمة مصالحهم وخدمة أحزابهم وعائلاتهم وعشائرهم.

تحدّث في بطء شديد كأنما يخشى الوقوع في خطأ فيما ينقل من وجهة نظر مخالفة لوجهة النظر الرسمية:

«وصف بالتفصيل أن الإنجليز أوجدوا الأرضية اللازمة لتحقيق الحلم الصهيوني، شجعوا الهجرة وقدموا لهم أجزاء كبيرة من الأراضي المشاع على طبق من فضة، وامتد المجال الاستيطاني في أماكن كثيرة، وهناك الآن حولنا في منطقة حيفا عشرات المستوطنات، وأصبح الهدار عبارة عن ثكنة كبيرة مليئة بالمقاتلين والعتاد قادرة عند انتهاء الانتداب على احتلال حيفا وطرد السكان العرب بالقوة».

انفعل العبويني أحد جيراننا، لكنه تمالك نفسه بسرعة وعلّق ضاحكاً: «صحيح أن زعامتنا وقعت بأخطاء كثيرة، أولها وقف ثورة «36»، استجابة لدعوة زعماء الدول العربية، لكنها ستقف في وجه التقسيم وإقامة الكيان الصهيوني، وبهمة الدول العربية سنحافظ على عروبة فلسطين».

عند هذا الحد من النقاش، تناول والدي جريدة ملقاة على طاولة صغيرة في زاوية الصالون، كانت جريدة الاتحاد.. قلب صفحاتها وتوقف عند عمود كتب عنوانه ببنط عريض، قرأه والدي بصوت عالٍ، واستطرد بعد الانتهاء من قراءته قائلاً بنبرة جادة: «هؤلاء غير مقتنعين بأسلوب الزعامة التقليدية، لأنّ جعجعتها على الفاضي، رموز الزعامة التقليدية من المجلسيين والمعارضين يتشاطرون ويتآمرون على بعض، ولايزالون يراهنون على الإنجليز أتباع بلفور أن ينصفوهم، ويراهنون على الزعماء العرب لكي يقدموا لهم السلاح والعتاد مع أنَّ أغلب هؤلاء الزعماء يتلقون الأوامر من الإنجليز».

اعترض العبويني على حديث والدي، هز رأسه متعجباً لما سمع وقال بشيء من الاستغراب: «أراك تدافع عن التوجهات اليسارية هل أصبحت واحداً منهم؟».

أجابه والدي بهدوء زائد: «أنا لست سياسياً؛ إنّني أهتم فقط بالعمل النقابي، وقد تعلّمت من نشاطي النقابي أن أكون مع الحق، صحيح أنّني لست معهم في توجهاتهم النقابية اليسارية، وكنت دوماً عضواً في جمعية العمال العربية، لكنني بصراحة تعجبني تحليلاتهم السياسية التي تعتمد على درجة عالية من المنطق والجدية، كما أعجبتني كثيراً إدانتهم أسلوب الاغتيال السياسي واستنكاره وشجب اغتيال الزعيم النقابي سامي طه(********)، وتوجيه النقد للقيادة الفلسطينية التقليدية المتمثلة بالهيئة العربية العليا التي كانت وراء اغتياله أمام منزله في حي الحليصة في حيفا، بعد أنْ اتضح لها أنَّ مشروعه السياسي كزعيم نقابي كبير لا يتفق مع توجهاتها المتخلفة وزعاماتها البالية والمتحجرة».

توسع النقاش بعد ذلك ودار حول التجربة المريرة للتصفيات الجسدية للمخالفين في الرأي السياسي وآثارها السياسية الخطيرة على موضوع الوحدة الوطنية، كما دار الحديث حول التقسيم وحول رغبة الحكومة البريطانية بإنهاء الانتداب بعد أكثر من عقدين على الانتداب.. كانت الجلسة حافلة بأحاديث كثيرة سمعتها لأول مرة، وكالعادة كان جارنا رشيد الإدريسي آخر من تحدّث من الحضور، أجال بصره بينهم، وقال: «يقنعني أي رأي يأتي من خارج الزعامة التقليدية المتحجرة، لأنها تتفنّن دوماً في جلب الضرر والمصائب للقضية الوطنية، على الأقل لم يلوث اليسار بالاغتيالات والتصفيات. وآراء نشطائه لا علاقة لها بالزلمنة والعشائرية وتقديس الزعماء»(********).

انتهت النقاشات في ساعة متأخرة من الليل، توقّف الجميع عن الحديث، مضوا معاً خارج منزلنا.. ودّعهم والدي بابتسامة عريضة، وكانت ابتسامات تعلو وجوههم أيضاً.. سمعته يقول لهم بصوت عالٍ: «سنكمل الحديث في يوم الخميس القادم».

(20)

عرفت حيفا بعض الأعمال المروّعة بعد إعلان هيئة الأمم المتحدة عن خطة تقسيم فلسطين، كرّر والدي أمامي عشرات المرات أسماء الأماكن غير الآمنة التي يستوجب تجنبها والابتعاد عنها، كان يعتريني شعور ملؤه الحزن، عندما تتفاقم الأحداث بين الحين والآخر.

حين أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام، أرى أنَّ طفولتي كانت مرتبطة حياتياً وذهنياً مع الظروف المحيطة بها، وأن القلق كان جزءاً من حياتي اليومية فلا أستطيع تقبل الأوضاع الأمنية المتردية؛ أعجز عن استيعابها ومعايشتها.

من أهم ما حدث في تلك الأيام، معركة شركة تكرير البترول الرهيبة، وسببها إلقاء باص يهودي قنبلة على عمال من العرب كانوا على الشارع العام في محاذاة معامل المصفاة، وقد استمر القتال فيها فترة طويلة من الزمن أدى إلى سقوط عدد كبير من العمال والموظفين اليهود في المصفاة.

في ليلِ آخرِ يومٍ من عام 1947، بعد ثلاثة أيّام من معركة المصفاة، وأثناء احتفال سكان حيفا بعيد رأس السنة الميلادية، وقعت مجزرة مروّعة في «بلد الشيخ»، وهي قرية تعتبر ضاحية من ضواحي حيفا تقع على مدخلها الرئيسي من جهة الشرق الموصل إلى الناصرة، بلغ عدد ضحاياها 60 شهيداً، أغلبهم كانوا من عمال مصفاة النفط القريبة من مكان المجزرة، يقيمون بأكواخ من الصفيح في قرية «حواسّة» الواقعة على جزء من أراضي «بلد الشيخ»، يشير تاريخ «الهاجاناه» إلى أن قوةً قوامها 170 عنصراً أُمرت بتطويق القريتين، وإلحاق الأذى بأكبر عدد من العرب، وقد خلف المهاجمون خلفهم 60 قتيلاً كان بينهم عدد من النساء والعجزة والأطفال.

تُشير المراجع ألى أن المجزرة قد تمت بالاعتماد على مجموعتين من الجنود، مجموعة تنكّر عناصرها بكوفيات بيضاء عربية قامت بإطلاق النار للتغطية من التلال المشرفة على قرية «بلد الشيخ»، ودخلت المجموعة الثانية - وهي أكبر من الأولى -إلى أطراف القرية وهاجمت عدة منازل بالقنابل اليدوية والرشاشات وقتلت العديد من المدنيين العزل.

كـان للمجزرة، تأثير مدمّر على معنويات السكـان العرب في حيفا وبقية المـدن الفلسطينية، كمـا أدت إلى جـلاء السكان العـرب التام عن «حواسة»، ونـزوح عـدد كبير من سكـان «بلد الشيخ» لعـدم توافر وسائل دفاع قادرة عـلى حمايتهم مـن الأعمال العـدوانية الغادرة.

تابعت تفاصيل المجزرة في منزلنا، وضّح والداي لي أنها حدثت في مكان قريب من حيّنا، على مقربة من مصنع دخان قرمان ديك وسلطي؛ الذي كان يلفت انتباهي دوماً صورة ديك مرسوم على لافتة كبيرة معلقة فوق بوابة المصنع.

تتبعت تفاصيل المجزرة واستوضحت والدي: «هل سيحضرون هنا عندنا في منزلنا، متى سيحضرون؟».

قال بشيء من التأكيد: «لن يحضروا أبداً».

سكت بُرهة ثم استطرد قائلاً: «لدي هنا قطعة سلاح يمكنني الدفاع بها عن منزلنا».

بعد قليل أظهر لي والدي بندقية إنجليزية مخبّأة في خزانة الملابس الكبيرة، انفرجت أساريري عندما رأيتها.. كان مشهدها رائعاً، تسمّرت أمامها عندما رأيتها، جذبت أحد المقاعد وجلست عليه على مقربة منها، أشعرني وجودها في منزلنا بالطمأنينة.

عرفت من والدي أنَّ شراء الأسلحة على درجة عالية من الصعوبة والخطورة في ظل إجراءات قوات الانتداب البريطاني الصارمة التي لا تجيز للعربي امتلاك الأسلحة ومستلزماتها، وتعرضه للعقاب والسجن في حالة حصوله على أيّة قطعة سلاح حتى وإن كانت معطلة وغير قابلة للاستخدام، وحتى وإن كانت فشكة (رصاصة) صغيرة، وعلى النقيض من ذلك كانت تقدم للصهاينة كل ما يلزمهم من مختلف أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة والذخائر الكافية لفرق كاملة من جيش نظامي محارب.

***

في صباح يوم تالٍ، بينما كنت أتجه صعوداً مع أصدقائي إلى المدرسة، اشتد المطر وهبت رياح عنيفة، توقفنا في ركن قريب من بيت كبير للاتقاء من المطر. انشغلنا في الحديث عن مجزرة بلد الشيخ، ثم استأنفنا السير إلى المدرسة عندما توقف المطر، وسرعان ما وصلنا بتأخير نحو ربع ساعة، ألغي طابور الصباح بسبب تساقط المطر، وطلبت إدارة المدرسة من المعلمين أنْ يحدثوا الطلبة عن مجزرة «بلد الشيخ»، وعن الإرشادات اللازم اتباعها في حالة الوقوع في خطر.

في داخل الصف، افتتح أستاذ اللغة العربية الدرس الأول بحديث مطوّل عن مجزرة «بلد الشيخ»، ظهرت تقطيبة غاضبة على وجهه وهو يتحدّث عن ضعف القيادة الفلسطينية التقليدية، وقال بوضوح إنها قيادة جاهلة لا تعي حقيقة ما يدور حولها، فشلت في رهاناتها المتكرّرة على تحقيق صفقات مع بريطانيا، ولاتزال تراهن على تحقيق صفقة معها، والخوف أنْ تُنهي بريطانيا الانتداب كما أعلنت من قبل، وفي الحال تُسلّم فلسطين للصهاينة وتساعد على ترحيل العرب منها.

كان الأستاذ عمر يتحدّث بأفكار والدي وأصدقائه ذاتها. بعد حديثه أعادنا من جديد إلى الواقع، وبدأ بشرح درس جديد في اللغة العربية، أنهاه بترداد أبيات شعر عن العرب:

هُمو قومي وهُم أصلي وهُم نَسبي إذا أُنسـب

وهُم مجدي وهم شرَفي وهم حِصني إذا أرهب

وهُم رُمحي وهُم تُرسي وهُم سَيفي إذا أغضب

(21)

ذات يوم، بعد مرور نحو أسبوعين على مجزرة «بلد الشيخ»، قال لي والدي بأننا في صبيحة اليوم التالي سنزور صديقه أبو أنطون الطويل وعائلته في حي وادي الجمال، أحد أحياء حيفا الغربية الجميلة الواقعة على مقربة من البحر.

بدأ يوم الزيارة غائماً ثم سطعت الشمس فجأة. خرجت من منزلنا برفقة والديّ، اتجهنا نحو شارع الناصرة، وبعد انتظار قصير عند محطة باص نمرة 5 الواقعة مقابل عمارة أبو حوا، أقلنا الباص المتجه في خط سيره إلى منطقة قريبة من وادي الجمال.. نزلنا في آخر محطة ومن ثم واصلنا السير في بطء على الأقدام، وبعدها انحرفنا في شارع جانبي يتوازى مع البحر وسرعان ما كنا أمام عمارة شاهقة متعددة الطوابق تقع على مقربة من البحر فيها منزل أبو أنطون، وهو عبارة عن شقة كبيرة في الطابق الأعلى.

تلك العمارة أعلى ما رأيت في ذلك الزمان، تتميّز شققها بوجود شرفات واسعة لها.. أذكر أنني وقفت على شرفة صديق والدي طويلاً، كان البحر يتمطى أمامي بارتخاء، وتقف أمواجه هادئة بعد طول سفر على حافة شاطئ رملي طويل، ثم تدب فيها الحياة ثانية من جديد وتعود من حيث أتت متشحة بغلالة من الأضواء المنسوجة من شمس ذلك اليوم الجميل، تعود إلى الوراء وهي تتمايل بتأثير رياح هادئة كانت تهبط عليها من أعالي السماء.

هذه اللوحة الجميلة تحفظها ذاكرتي بكل حيثياتها حتى الآن، نظرت مطولاً إلى البحر وهو يرسم الأمواج في سطور لا نهائية، تتراقص أمام أعين الناس، تذكّرت في تلك اللحظات ما قاله رشيد الإدريسي في منزلنا قبل عدة أيام عن قرب ضياع فلسطين، قلت لنفسي: «هل فعلاً ستضيع فلسطين ويضيع هذا البحر، كيف يمكن أنْ يضيع هذا البحر وعلى صدر المفتي النياشين تلو النياشين كما تقول الأغاني الشعبية.. سيف الدين الحاج أمين، على صدره النياشين».

أفقت من أحلامي على صوت أمي تناديني كي ألحق بهم في الداخل لتناول الحلوى التي أعدتها الخالة أم أنطون خصيصاً لنا.. هرعت إلى الداخل في لحظة كان يقول فيها أبو أنطون: «الأمور تتجه من سيّئ إلى أسوأ، هناك دلائل تُشير إلى أنَّ مكتب شركة نفط العراق «أي بي سي» سوف ينقل من حيفا إلى طرابلس في لبنان».

انزعج والدي لسماعه هذا الخبر، وحاول أن يقلّل من أهميته قائلاً إلى صديقه: «هذه إشاعات مجرد إشاعات».

أجاب أبو أنطون: «أكد لي ابني أنطون وهو موظف كبير في الشركة كما تعلم بأنّه تلقى الخبر كتعليمات من الإدارة العليا، وليس هذا فقط بل إن الإنجليز راح ينهوا الانتداب ويسلّموا البلد للصهاينة، وقيادتنا ضايعة بين حانا ومانا».

دق جرس الهاتف، وتوقف أبو أنطون عن الحديث.. رفع السماعة وأنصت للمتحدث على الطرف الآخر، ورد عليه بهدوء: «شكراً شكراً، الله يعين ضيوفنا».

تغيرت تعبيرات وجهه على نحو غامض.. واضح أن ما سمعه عبر الهاتف قد أزعجه، وهذا ما حصل فعلاً، فقد وجّه حديثه إلى والدي قائلاً: «المتحدث صديق لي في البوليس الفلسطيني، أخبرني بأنّه تم قبل قليل تفجير بناية «بشير المغربي» المعروفة على طرف شارع صلاح الدين، لقد هدمت على ساكنيها، وهدم معها عدة بيوت مجاورة لها، وتم استشهاد 31 من الرجال والنساء والأطفال وجرح ضعف هذا العدد ومن بينهم أولاد حامد البرقاوي وزوجته».

بلع ريقه واستطرد متابعاً حديثه: «أخبرني صديقي أيضاً بأنَّ القوات الإنجليزية فرضت منع التجوال على المدينة، ما يعني أنه من المتعذر عليكم الرجوع إلى منزلكم في شارع الناصرة، عليكم البقاء معنا إلى أن يُسمح بالتجوال».

وهكذا حُشرنا في منزل صديق والدي لمدة ثلاثة أيام، بسبب منع التجوال وتردي الأوضاع الأمنية.

مثل هذه الأحداث سرعان ما جعلت يقظتي مبكّرة ومضطربة، وأثّرت على تغيير نسيج حياتي وحياة كل من حولي.. وبالرغم من صغر سني فقد جسّدت تلك الأحاديث عتبات إرهاصات أولى من ذاكرتي السياسية والاجتماعية، اختلطت بأصداء أحداث كثيرة تلاحقت مع توالي الأيام في حيفا، وشكّلت لي حالة ذهنية وعاطفية مفتوحة بكل الأبعاد على أحوال بلدي، تواصلت معي حتى غسق العمر.

(22)

توالت أيام عام 1948، وتوالت معها أحداث كثيرة بحمولات تاريخية معقدة، تستوطن ثنايا الذاكرة، آهلة بالشخوص والضحايا والتضحيات ومشاهد التدمير ولحظات الألم.. أصبحت الشوارع والطرقات مختلفة تماماً عن ذي قبل، تخلو من المارة في المساء، وتغلق فيها أغلب المحلات والمراكز التجارية أبوابها في الليل والنهار، أكياس الرمل تُكدس في كل مكان على أبواب البيوت والعمارات والمحلات.

كنت أسمع بين الحين والحين ضجيج المدافع والانفجارات وأزيز الرصاص، كانت تُحدث ضجّة لا تطاق، وتنشر الموت في كل مكان. انتهت أيام التنزه والسير الآمن في الأزقة والطرقات.. أخذت أشعر أني انتُزعت نهائياً من كل ما كان يخصني ويفرحني، وأنَّ الحبل السرّي الذي كان يربطني بالأيام الهنيئة على وشك الانقطاع.. ضغط نفسي مريع، وقلق يسيطر على نفسي من الآتي المجهول.

بعد هدم عمارة المغربي في يوم 16 كانون الثاني 1948، امتد الموت إلى شوارع كثيرة في وادي الصليب وحي الكنائس وساحة الحناطير «الخمرة» وأحياء البلدة التحتا، تدحرجت عليها براميل مملوءة بالمتفجرات من حي الهدار المرتفع، ترابطت أصواتها المخيفة وحركاتها في كل الجهات، وبعد أيام معدودة تم نسف قطار حيفا – القاهرة السريع، وقطار حيفا – يافا، وطالت المتفجرات بناية النادي الرياضي الإسلامي في شارع يافا، دمرتها وأزالت معها عدة بنايات مجاورة لها.

توالت الاعتداءات اليهودية طوال شهر آذار/ مارس 1948 بلا انقطاع، وفي ليلة عمّها الظلام مُنيت حيفا بخسارة فادحة في هذا الشهر باستشهاد قائد حامية حيفا محمد حمد الحنيطي(********)، حزن على فقدانه كل أهل حيفا، وحملوا جثمانه إلى أهله في قرية أبو علندا القريبة من العاصمة عمّان حيث ووري الثرى في مسقط رأسه.

مع تردي الأوضاع الأمنية في حيفا، اشتدّت في شهر شباط من عام 1948 حركة النزوح العربية من حيفا بشكل فاجع، أقفر حي الغزازوة وحي الحليصة وأرض اليهود (حي عربي بدون يهود).. لم يبق فيها سوى عدد قليل من العائلات والحراس، كذلك أقفر حي وادي الجمال، وانحصر العرب في الجهة الغربية من حي عباس وحي المحطة الجديدة وحيفا القديمة ووادي النسناس، والجهة الشرقية من حيفا التحتا، في شوارع العراق والبوابة الشرقية والجرينة وساحة الحناطير وشارع الناصرة.

في شهر شباط أقفر حي البرج القريب من الحي اليهودي وتم الاستيلاء على درج عجلون وبناية الشاذلية المشرفة على بيوت الأحياء العربية. توقّفت عن الذهاب إلى مدرسة البرج في تلك الأيام المأسوية. أتذكر آخر يوم لي فيها، تجمع كل الطلبة في ساحتها، وأخبرنا مدير المدرسة أحمد كريم أنَّ اليهود يُحاصرون المدرسة من كل الجهات، وليس لديه إمكانات للدفاع عن المدرسين والطلاب.. توقف المدير عن الكلام، لزم الصمت، وهو يلقي ببصره إلى الأرض، كان المعلمون حوله تبدو عليهم أمارات حزن شديد.

أقفلت المدرسة، وبقيت في المنزل أتابع مع أسرتي مسار الأحداث المتلاحقة.. أيام طويلة كان فيها إطلاق الرصاص أشبه بتساقط المطر، يُطلق بلا انقطاع من عمارات الهدار العالية ومن سفوح الكرمل على الشوارع التجارية والأحياء السكنية العربية.. وعلى المساجد والكنائس والمقابر والمدارس في كل مكان.

معارك كثيرة خاضها سكان حيفا طوال الشهور الأربعة الأولى من عام 1948، سجّلوا فيها ضروباً من الشجاعة والبسالة والتفاني، خاضوها بتصميم قوي، آزروا فيها رجال اللجنة القومية بحيفا المسؤولة عن حماية المدينة والدفاع عنها، نسفوا بناية ومكاتب شركة سوليل بونيه للمقاولات بشارع البور، وبناية المطاحن عند محطة سكة الحديد الشرقية ومنجرة اليهود بشارع العراق.

كانوا يعتمدون في تأدية عملهم على أسلحتهم وإمكاناتهم الذاتية المحدودة، على عكس قوة الخصم وتنظيمه في قوات شبيهة بقوى الجيوش النظامية مزودة بالمدافع والأسلحة الأوتوماتيكية، كانت قادرة على اختراق كل الحواجز المقامة، والوصول إلى التجمعات العربية متخفين بأزياء الجنود البريطانيين وسياراتهم.

عميقاً في غور الذكريات تتلاحق مشاهد تلك الأيام الحزينة؛ أتذكر الكثير من الأحداث والمصادمات القاسية التي عمّت حيفا، استحالت المدينة الوادعة إلى ساحة للقتال، ما كان بوسع أحد أنْ يحسّ بالأمان.

كانت ثمّة مكامن كثيرة للقوات الصهيونية تهدد العرب في قلب أحيائهم وفي مداخل بيوتهم، كان لديهم كل ما يلزمهم من الأسلحة الثقيلة والخفيفة على اختلاف أنواعها، كما كانوا أقوياء بحكم مواقعهم المرتفعة في الهدار والكرمل التي تشرف على الأحياء العربية، على عكس السكان العرب الذين كانوا رغم رباطة جأشهم في حالة ضعف، قليلي السلاح يقاتلون عدوين قويين الإنجليز والقوات الصهيونية، ويصعب عليهم الحصول على السلاح والعتاد.

كان المعنيون من أعضاء اللجنة القومية في حيفا يواصلون إرسال البعثات تلو البعثات إلى اللجنة العسكرية المنتدبة من قبل الجامعة العربية بدمشق لطلب السلاح والعتاد منها وتبيان الأخطار المحدقة بحيفا؛ للأسف أنَّ اللجنة التي شُكلت خصيصاً لهذا الغرض لم تكن على مستوى الأحداث وخطورتها، كانت دون مستوى المسؤولية، لم تقدم لحيفا ما يستحق الذكر.

في غمار تلك الأوضاع المتردية، أتذكر الكثير من الأحداث الدامية، واعتداءات القوات اليهودية على شوارع العراق والحجاز والملوك وستانتون وسوق الشوام ودوار السعادة، واحتلالها لمداخل حيفا الرئيسة. من وفرة تلك الأحداث كانت تكثر الأحاديث التي تُردد حولها في بيتنا. كان والدي يتحدث عنها بمرارة شديدة، خصوصاً بعد أن توالت الاعتداءات على الأحياء العربية وبدأ النزوح من بعض أجزاء المدينة باتجاه القرى والمدن الفلسطينية الآمنة وإلى سوريا ولبنان.

تفاقمت الأحداث في كل مكان، لم تتمكن اللجنة القومية المسؤولة عن الدفاع عن المدينة من الحصول على السلاح والعتاد اللازم للمقاومة.. كان من الصعوبة بمكان ممارسة الحياة كما كانت من قبل، كانت حيفا في اضطراب دائم، تلاشت فيها إمكانات العيش.. كان الناس فيها ضائقي الأنفاس، تمر أيّامهم على إيقاع أصوات تفجير القنابل وبراميل البارود، وإطلاق النار الذي كان يتوالى في الليل والنهار.. عرفت كطفل، في تلك الأيام، المعنى الحقيقي للخوف والاضطراب

والقلق، كنت مشتّت الخاطر، أشمّ رائحة الموت عن قرب، أحس به وأشعر كأنني وإياه شيء واحد.

شعرت بالحزن الشديد عندما بدأ جيراننا بالنزوح ومغادرة بيوتهم.. كنت أراهم بنظراتهم المضطربة على درجة عالية من التوتر، لاأزال أحتفظ بصورة في ذاكرتي لوداع الصغار من بنات وأبناء جيراننا، ودعتهم بحزنٍ شديد، كانت الطفلة عبلة الصاوي بينهم شاحبة الوجه، عيناها تكشفان عن حزن وخوف شديدين، رأيتها على خلاف ما كنت أراها من قبل، ودعتها دون وعي على صوت أزيز الرشاشات، تمكنت وأنا أودعها من إخفاء الخوف الذي يعتريني.. انطلقت راكضاً خلف اللوري الذي أقل أسرتها بأقصى سرعة ممكنة، لوحت لها بيديّ، وحملت في ذاكرتي آخر نظرة لها.

كان الناس يمرون بسرعة في شارع الناصرة ولا يتوقفون، لم يكن نظرهم وحديثهم كما كان في الأيّام الأخرى، كانت أصواتهم تشبه الصياح، كان الغضب يسري في أوصالهم وهم ينزحون عن مدينتهم. بدت حيفا غير التي أعرفها. كانت توشك على الانهيار، صوت المتفجرات يعلو في الأحياء العربية، كان دخانها يحلّق فوق تلك الأحياء حالك اللون يتجه ببطء فوق كل حيفا.

(23)

توالت الاعتداءات الصهيونية ومنيت حيفا بخسائر فادحة.. وفي يوم الأربعاء 21 نيسان 1948 انسحبت قوات الانتداب من خطوط التماس التي كانت تفصل الخطوط الأمامية العربية عن الخطوط اليهودية في حيفا، وفي اليوم نفسه بدأ هجوم القوات الصهيونية فيما عرف بعملية «مسبراييم» أو المقص، مستهدفة الأحياء العربية في قلب المدينة ومكاتب اللجنة القومية ومقرّ حامية حيفا وقيادتها.

أربط ما أتذكره من الأحداث التي تمت آنذاك، بما سجله في مذكراته ابن حيفا «رشيد الحاج إبراهيم»، رئيس لجنتها القومية الذي قاد المقاومة فيها قبل سقوطها(********)، تلتقي فيه حروفنا عند لحظات مظلمة أخذت تتساقط فيها القنابل وراجمات الألغام من الهدار ومن شارعي البرج وستانتون على كل الأحياء العربية. تركّزت المقاومة العربية آنذاك في مكانين: المكان الأوّل، عند بيت النجادة في ملتقى طريق هام يربط الهدار بحي الحليصة والبلدة التحتا في شارع صلاح الدين، والمكان الثاني، عند بيت عائلة الخوري عند طرف شارعي الخوري والأنبياء ؛ كان يستخدم هذا البيت كمكاتب عامة في ذلك الوقت؛ تميز بموقع استراتيجي يُشرف فيه على حي وادي النسناس والبلدة التحتا والهدار.. نفذت القوات الصهيونية هجوماً عنيفاً على هذا البيت وعلى بيت النجادة، وبالقضاء على المقاومة في هذين المكانين انتهت معركة حيفا الأخيرة، وتم سقوطها في الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس 22 نيسان 1948.

في الساعة العاشرة والنصف من ذلك اليوم (حسب المذكرات نفسها) قابل وفد من أهل حيفا في مقدمته فكتور خياط وفريد السعد، قائد القوات البريطانية في شمال فلسطين، ذكّروه بمسؤوليات بريطانيا تجاه السكان العرب حتى 15 أيار 1948 اليوم الذي سينتهي فيه الانتداب.. أصرّ المسؤول البريطاني على التخلي عن المدينة باستثناء بعض الطرق لإحكام إغلاقها ومنع وصول أيّة نجدات لها من محيط فضائها العربي، وافق فقط على البحث في إمكانية الوصول إلى هدنة بين الفريقين. لم يتم الوصول إلى أيّ اتفاق.. في وقت نفد فيه عتاد حامية حيفا العسكرية.

وفي اليوم التالي، في الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة في 23 نيسان 1948، أُعطيت حامية حيفا العسكرية الأوامر بالانسحاب من مواقعها عندما نفد السلاح والعتاد المتوافر تحت تصرف رجالها، وبهذا توقفت المقاومة العربية، ومن ثم امتد النزوح بشكل مرعب ليشمل كل المدينة.

بسقوط حيفا، تم تشريد أكثر من مئة ألف عربي من منطقتها، كنت أنا ووالداي منهم.. لاحت لي مدينتي الجميلة وقت رحيلي منها مجللة بالسواد، احتبست أنفاسي وأنا ألقي آخر نظرة عليها.. لاتزال تلك اللحظة مسجلة في ذاكرتي كأحزن لحظة في شريط العمر، ارتطم فيها وعيي الطفولي بحقائق الشتات المريرة، فقدت كل شيء حولي عندما اتجهت سيارة اللوري التي تقلني مع أسرتي بسرعة خارج شارع الناصرة، اندفعت مع قافلة شاحنات طويلة تنقل مئات النازحين إلى خارج حيفا.

فارقت حيفا وعمري عشر سنوات، كان ذلك في يومٍ مظلم تعذّرت فيه الرؤيا، رحلت عنها قسراً، وتلاشت أيام طفولتي الهانئة، لجأت مع والديّ إلى مسقط رأسهما قرية بُرقة التي لم تكن قيد الاحتلال وقتذاك.. تمزق قلبي الصغير، وأنا أرى الدموع متصلبة في العيون، تحجرت أحلامي وتراكمت في نفسي حالة وجدانية مؤثرة من مآسي الهزيمة ترسّخت في ظل غربة باكرة لصبيٍ صغير، اكتشفت مبكراً جراح بؤس الهزيمة، كان كلّ شيءٍ مظلماً، فقدت بيتي وزملائي في المدرسة الابتدائية وتداعى كل شيء حولي.

***

فتّشت بعد عشرات السنين من العيش في الشّتات عن مرجع يصور مشهد النزوح عن حيفا، وجدتها في مذكرات «رشيد الحاج إبراهيم» السابق ذكرها، يصف النزوح بقوله: «آلاف من النساء والأطفال والرجال يهرعون إلى منطقة الميناء بحالة من الفوضى والذعر، لم يسبق لها مثيل في تاريخ الأمة العربية، خرجوا من بيوتهم حفاةً عراةً إلى الشاطئ تحت وابل الرصاص والقذائف ينتظرون دورهم للانتقال إلى لبنان بسفن بريطانية، وقد تركوا بيوتهم، متاعهم، مالهم، مصالحهم، متاجرهم.. جلوا عن مدينتهم وهم في أسوأ الحالات، وزاد عدد المشردين في حيفا وضواحيها عن مئة ألف عربي».

أتأمل سطور هذه المذكرات، تمدّني بتفاصيل مجريات الأحداث التي سبقت سقوط حيفا، وتُدخلني في معبرٍ تاريخي متكامل فيه مقارباتٌ مهمّة حول مسؤولية الزعامة الفلسطينية عما حدث، تستعرض بتفصيل أداء دورها على مدى عقود الانتداب الماضية، وتوجه - على ضوء قناعات صاحب المذكرات الذاتية - موجة عارمة من النقد اللاذع لسياسات المفتي وأنانيته، وتحمّله مسؤولية شرذمة الصف الفلسطيني والمسؤولية الكاملة عن الهزيمة المريرة التي أدت إلى ضياع مدينة حيفا وكل فلسطين.

وعن صدى سقوط حيفا، وجدت في المذكرات نفسها افتتاحية لجريدة الحياة البيروتية نشرت في عدد يوم السبت بتاريخ 24 نيسان 1948، بقلم كامل مروة يقول فيها: «احتل اليهود حيفا وبسطوا سيطرتهم على القسم الأكبر من المنطقة كلها، ولم يكن هذا النبأ بالمفاجئ للكثيرين إذ إنَّ اليهود يملكون أكثرية ساحقة في حيفا ويملكون جميع المستعمرات المحيطة بها، ومنذ أشهر والعرب في حيفا يستنجدون ويطلبون المدد ؛ فلم تلاق طلباتهم أي رد فعل، ولم يتخذ الجانب العربي تدابير تستحق الذكر فكانت هذه المأساة. بيد أن سقوط حيفا هو عبرة لنا، إنه دليل على إجرام العقلية التي أدار بها ساسة العرب قضية فلسطين».

هناك تراكمات أخرى في الذاكرة وفي الكتب موشومة بأمثلة كثيرة عن الانكسار والخيبة من سقوط حيفا، شديدة الوطأة من حمولاتها الثقيلة، أتوقف عند كتاب منها بعنوان «سقوط فلسطين» للصحفي الكبير «محمد حسنين هيكل» الذي شاءت مشاغله الصحفية كمراسل لجريدة الأخبار القاهرية، أنْ يكون في حيفا عند سقوطها.. وقد ورد في كتابه بالنص «غادرت حيفا عند الفجر كانت راكعةً على ركبتيها في ذلة واستسلام، وسيول المهاجرين يتدفقون نحو الميناء ويتدافعون في الطرقات، كل منهم يعمل فوق طاقته لإنقاذ ما تبقى له في الحياة، وكل منهم له قصة يرويها مليئة بالرعب والخوف.».

ويستطرد: «سألت نفسي..أين «فوزي القاوقجي»، قائد أكبر جيش من جيوش التحرير؟ وكان فوزي القاوقجي بعيداً من المعركة، وسألت نفسي.. أين «صفوت باشا» القائد، وكان صفوت باشا لم تطأ قدمه بعد أرض فلسطين، وسألت نفسي.. أين «طه باشا الهاشمي» مفتش قوات التحرير، وكان الباشا يدير معارك فلسطين من بيروت ودمشق وعمان والقاهرة.»..

ويستمر هيكل في وصف مهزلة قوات إنقاذ فلسطين، ويتساءل بمرارة عن قادة كبار عقد شعبُ فلسطين آماله عليهم قبل حلول الهزيمة، يكرّر أسماءهم بصوت عالٍ، وهو يعلم علم اليقين أنهم في مزابل التاريخ ينعمون فيها بألقابهم التافهة.

(24)

بعد وصولنا بُرقة بوقتٍ قصير، أحسست بدوار شديد يستولي على رأسي مع بدء أول ليلة لي من ليالي الشتّات الطويلة.. حاولت جدتي تخفيف الأمر عليّ، لم تنجح محاولاتها، كلّ شيء حولي كان يذكّرني بشدائد أيام الحرب في حيفا، أعمال النسف والدمار والقتل، ولحظات سقوطها، وتوقف الحياة فيها ونزوح أهلها.

حديث والدي في تلك الليلة انصبَّ على تفاصيل ما جرى في آخر أيام حيفا حول نقص الأسلحة والعتاد وغياب القيادة القادرة على اتخاذ التدابير الحازمة لتنظيم الدفاع عن المدينة.. سمعت منه أقوالاً كثيرة عن الحياة وعن الناس والحكام والزعماء لم أسمعها من قبل، سمعتها بارتباك وفزع، وجعلتني أعاهد نفسي في أيام طفولتي الباكرة، على أنْ لا أصفق لزعيمٍ مهما علا، وهكذا تخلّيت مبكراً عن سذاجة الجماهير الصامتة المصفقة للوعود والخطب المعسولة.

مع توالي الأيّام لم يكن سهلاً عليَّ استئناف إيقاع الحياة من جديد كما كانت عليه قبل سقوط حيفا.. كانت بُرقة غير التي كانت من قبل، ليست كشأنها في الكثير من المرات التي زرتها فيما مضى، شعرت أن المرحلة الجديدة من حياتي فضاء واسعٌ لسجن كبير.

ذات يوم حدثت والدي عن ذلك السجن، تغيّرت معالم وجهه عندما سمع كلامي، وقال بحزن: «انتهت حياتنا مع سقوط حيفا».

من المؤكد أنَّ دهشة والدي كانت كبيرة عندما سمعني أتحدث عن سجن كبير لحياتنا في الشّتات، لم يكن من الممكن أن يتوقع ولو في الحلم أنْ يسمع هذا الكلام من طفلٍ في العاشرة من عمره، وهذا ما قاله لأصدقائه ذات مرّة بحضوري «النكبة جعلت ابني أكبر من عمره».

لم يخلُ منزلنا من الزوار في تلك الأيام، معظمهم كانوا من معارف الأهل وأصدقائهم، إلى جانب بعض الأقارب الذين كانوا يأتون مع أطفالهم بالعشرات، كانوا يتعاملون معنا بمودة وفي جو من الألفة البسيطة السائغة التي عُرفت عنهم دوماً، تعوّدت أنْ أسمع أحاديث البالغين منهم حول بلاغات أمانة الجامعة العربية، وفشل قوات الجيوش العربية، وقرارات الهدنة الدائمة، وتأسيس وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، أعلن عنها باسمها الصغير المختصر «الأونروا».

ومن أهم ما سمعته في تلك الأحاديث العالقة في ذهني حتى الآن، ما ردده بعض زوار منزلنا عن أسباب ضياع فلسطين نقلاً عن بعض صحف ذلك الوقت بأن «مسؤولية ضياع فلسطين تقع على زعماء فلسطين قبل سواهم وعلى الهيئة العربية العليا بصورة خاصة، فتقصير الدول العربية كان سببه الحقيقي تقصير زعماء فلسطين وتخاذلهم وانقسامهم وتصارعهم فيما بينهم على زعامات فارغة ولاتخاذهم قرارات كثيرة متسرعة وجاهلة».

لم تكن تلك الزعامات تملك سوى الاسم والتمتع بأنسابٍ عشائرية وجذور صاغوها لأسرهم كما يحلو لهم، وعندما ضاعت فلسطين قالوا لأهلها الذين تشتّتوا في دول كثيرة بأنهم فعلوا ما كان في استطاعتهم فعله، ومن ثم شدّ معظمهم الرحال إلى شبه جزيرة العرب، يعلقون آمالهم الكبيرة على

ثرواتها النفطية، وبدءاً من 1948 ولعدة سنوات متتالية، نزحت زعامات وأسماء فلسطينية كثيرة معروفة إلى السعودية وبعض المشيخات الخليجية ؛ وضعوا خبراتهم تحت تصرف حكامها وتقلدوا فيها مناصبَ مكنتهم من جمع أموال طائلة أنستهم كل ما كان لهم في فلسطين(********).

(25)

في الوقت الذي كانت فيه زعامات فلسطين التقليدية تحيا حياة رغدة في كثير من الدول العربية، كان جزء من شعبهم يفترشون المخيمات، لا تهتم زعامتهم التقليدية بهم، استبدلت هويتهم الوطنية بـ «كرت مؤن» يُعرِفهم كلاجئين وتمدّهم بموجبه وكالة الأمم المتحدة «الأونروا» بما يحتاجونه لسد رمقهم من الطعام.

حصل والدي على «كرت مؤن»(********) وها هو بعد طول زمن يتحول بالكرت من مواطن إلى لاجئ في داخل وطنه.. كانت همومه تشتدّ صعوبة وتذكره صباح مساء بالانكسار والضعف والهزيمة، أصابته النكبة بحزن شديد كما يصيب موت أقرب الناس إليه، إذ فقد مدينته وجزءًا غالياً من وطنه، وفقد البيت الذي بناه بعرق جبينه في حيفا، وفقد مصدر رزقه وأصدقاءه وجيرانه، منهم من لقي حتفه واستشهد في الدفاع عن حيفا، ومنهم من أوصلته دروب النزوح إلى مخيمات أقيمت على عجل في مدن لم تحتل من فلسطين مثل غزة ونابلس وجنين ورام الله، وفي دول مجاورة، وبخاصة سوريا ولبنان، استبدلت ـ خلال أيام قصيرة معدودة ـ بيوتهم بخيام بالية تنبض الحياة فيها بقسوة مُذلة.. افترشوا الأرض والتحفوا السماء، وساءت أحوالهم الصحية.

استطاع والدي بكرت المؤن كغيره من اللاجئين تلقي ما تُقدمه «الأونروا» من مواد غذائية للاجئين بكميات محدودة في مطلع كل شهر.. كنت أقف معه في صف طويلٍ مع غيرنا من اللاجئين لتلقي هذه المواد التي تتكون من الطحين والأرز والسكر والزيت والحليب المجفف.. استمر تلقينا لهذه المواد المجانية حتى حصول والدي على راتبه التقاعدي في أواسط عام 1949، عندها توقف صرفها لنا بسبب توافر مصدر مالي دائم له ولأسرته، واكتسب لنفسه الحق في الحفاظ على كرت المؤن كوثيقة تؤكد على هويته كلاجئ أجبر على الخروج قسراً من حيفا.

صحيح أن والدي كانت ظروف هجرته أخف من غيره، لأنه هاجر من حيفا مكان إقامته وعمله إلى قريته بُرقة التي يعيش فيها أهله، وله فيها بيتٌ وأراض تدر عليه غلةً يقدمها له من يفلحها ويعتني بها في نهاية الموسم، ورغم كلّ هذا كان يشعر دوماً بأنه فقد كل شيء في حياته ساعة رحيله ومغادرته حيفا.. كان من الصعب عليه التكيف مع ظروف الهجرة المعقدة، ولهذا استمر طوال حياته على اتصال ذهني وثيق بكيانه الماضي، لم يكن مبعث ذلك الذكرى فحسب بل استرجاع كل ما كان له في ثنايا أيامه الخوالي، كان يعتقد أنّه من هذه الزاوية يمكنه استشعار الاطمئنان والتخلص من منغصات ظروف حياته الجديدة.

أدرك أن بإمكانه إحياء جزء من ماضيه، بالبحث عن أصدقائه وجيرانه الذين عاش معهم في حيفا.. سمعته يقول عنهم إنّهم من جذوره، ويهمه أنْ يعلم ما حلّ بهم.. أعد قائمتين بأسمائهم، قائمة بأسماء الذين ينحدرون من قرى ومدن غير محتلة موجودة في الضفة الغربية، وقائمة ثانية بأسماء من احتُلت قراهم ومدنهم ويُفترض وجود بعضهم في المخيمات التي أقيمت في الضفتين الغربية والشرقية.

ذات يوم حمل قائمته الأولى، واتجه لزيارة جبع وسيلة الظهر ويعبد وعرّابة وقباطية وعصيرة وسلفيت وسنجل وبيت ايبا وذنابة وعنبتا وبورين.. تنقل في هذه القرى طوال أسبوعين، كان يبدأ رحلته كل يوم في الصباح ويعود في المساء إلى بُرقة، وعلى هذا النحو أكمل زياراته، وتمكن - بلقاء أصدقائه - خلط الماضي بواقع النكبة المعيش، تأكّد له بلقائهم أنّه يعيش في زمنين مختلفين في كل شيء، لا ينفصلان ولا يستطيع الخروج من أحدهما، واستطاع بهذا أنْ يعيد الهدوء إلى داخله من جديد.. بدأ يتحدث بواقعية وأخذ الحد بين الحلم واليقظة في التلاشي، عاد إلى عالم اليقظة، حياة الحقيقة والواقع، استبدل مشاعر الهزيمة والحزن والأسى على سقوط حيفا، بحلم العودة إليها في زمن آت، كانت تنثال تركيبات ذلك الحلم في أحاديثه، تتوالى دون انقطاع، ويؤكد فيها أنَّ العودة لها محققة الوقوع.

بعد ذلك بدأ الفصل الثاني من جولات والدي بالبحث عن أصدقائه ومعارفه في المخيمات التي أُسست مبكراً في عامي 1948 و1949؛ بدأ جولاته بزيارة أول مخيم أُسس في الضفة الغربية، مخيم عين بيت الماء في نابلس المعروف باسم مخيم رقم (1) من قبل الأونروا، وجد فيه عائلات كثيرة من قرى حيفا، لم يكن على معرفة بأحد منهم.. بعدها بأيام قام بزيارة مخيم الأمعري ومخيم عقبة جبر ومخيم قلنديا ومخيم عين السلطان ومخيم الفارعة، كان يقدم قائمته للأشخاص المسؤولين في المخيمات، ويبحثون عن الأسماء المسجلة فيها بما لديهم من قوائم تشتمل على أسماء ساكني المخيمات، للأسف باءت محاولات والدي بالفشل.. لم يجد أحداً من أصدقائه في المخيمات.. وكان يرجع سبب ذلك إلى هجرة أغلبية أهل حيفا ومدن وقرى الشمال بعد النكبة إلى سوريا ولبنان.

في ذات يوم جمعة قرّر والدي أن يزور مخيم عين بيت الماء ثانية، كان مديره من أصدقاء والدي، وقد وعده في الزيارة الأولى أنْ يواصل له البحث عن الأسماء المسجلة في القائمة، رافقته في هذه الزيارة، وما أن رأى والدي مدير المخيم حتى قال له: «وجدت لك جارتكم أم أحمد منصور من طبريا، إنّها من سكان المخيم».

قاطعه والدي بصوت أجش: «نعم أنت تعرفها، كنت تراها عندما تزورني في طبريا قبل انتقالي للعمل والعيش في حيفا».

أضاف والدي قائلاً: «كان لها خمسة بيوت ورثتها عن والدها، وقد استأجرت أحد بيوتها قرب حديقة البلدية لعدة سنوات، واستمرت علاقة أسرتي معها ومع زوجها بعد مغادرتي طبريا، كانت تزورنا مع زوجها في حيفا قبل أنْ يتوفى».

أرسل مدير المخيم أحد مساعديه لإحضارها إلى مكتبه.

وصلت، وما إنْ رأت والدي، حتى أغشي عليها. استعادت نفسها بصعوبة وأجهشت في البكاء.

كانت في عقدها السادس، يكسو الشحوب تجاعيد وجهها، نحيفة، مكتئبة النفس، بدت عيناها تلمعان في قلق واضطراب وهي تحكي قصتها الحزينة عن أولادها وأحفادها، عن الحياة الصعبة التي تعيشها، لا أنسى جملة رددتها عدة مرات «يوم في المخيم أطول من دهر».

نظرت إلى والدي مشدودة الأجفان وقالت: «هاجر أولادي وأقربائي إلى دمشق، رفضت أنْ أترك طبريا بقيت فيها وحدي لمدة أسبوعين، بعدها أجبروني على الرحيل، توجهت إلى جنين ومنها أحضرني الصليب الأحمر إلى هذا المخيم».

بينما كانت تتحدث أم أحمد، رأيت أطفالاً يجلسون بين الخيام، خطر في بالي بنات وأولاد الجيران في حيفا، عبلة وأحمد ونصري ونسيم وغيرهم، لا أستطيع نسيانهم. إنهم يلتصقون في ذاكرتي، أتخيلهم بقربي وأرى نفسي في عيونهم على خلاف ما تعودت أن أراها.

أكملت أم أحمد حديثها قائلة: «لا أريد البقاء هنا، أريد اللحاق بأولادي في دمشق».

أكد لها والدي أنّه سيساعدها لتحقيق لم شمل عائلتها، وطلب منها أنْ تحضر أغراضها لتعيش معنا في بيتنا حتى يتم اكتمال الإجراءات اللازمة لنقلها إلى دمشق بصورة رسمية بواسطة الأونروا.

أتمّ مدير المخيم إجراءات خروجها، حملت معها سلة فيها كل ما لديها من متاع الحياة، سارت معنا وهي مشتتة الخاطر مهدودة القوى، وخيل لي في تلك اللحظة أنَّ أجفانها بدأت تضيق فوق عينيها المتثاقلتين.

بعد أقل من نصف ساعة، وصلنا منزلنا في بُرقة، استقبلتها أمّي بعينين دامعتين، احتضنتها بحنان وقالت لها: «كنا يا خيتي ضيوفك في طبريا، وإحنا هون في بيتنا كمان ضيوفك».

بقيت أم أحمد في منزلنا طوال شهر كامل، أجد في الذاكرة صوراً كثيرة مختلفة ومتشابكة تجمعها مع أمّي وجدتي، وهن يتحدثن عن أيام طبريا وشاطئ البنط والأسماك الطبرانية والمياه المعدنية الحارّة ونقطة خروج نهر الأردن من البحيرة وموقع السيدة سكينة بنت الحسين، كان الحزن يغلب على أحاديثهن. حكايا كثيرة سمعتها منهن تركت فيّ أثراً أعمق من أثر معاني أي أحاديث أخرى سمعتها في تلك الأيام.

أكمل والدي الإجراءات اللازمة للجوء أم أحمد إلى سوريا، بما في ذلك معرفة عنوان أولادها في مخيم جرمانا أول مخيم للاجئين تم تأسيسه في سوريا على مقربة من دمشق، والاتصال بهم، والاتفاق معهم على أنْ يحضر أحدهم لمرافقتها إلى دمشق، وهذا ما تم فعلاً فقد وصل ابنها أحمد بمساعدة الأونروا إلى منزلنا في بُرقة وكان لقاؤه بأمه لا يوصف، ضمته وهي تهذي دون وعي بكلمات متقطعة غير مسموعة من شد ة الانفعال.

بعد عدة أيّام ودعتنا أم أحمد، انتاب الحزن والديّ وجدتي على فراقها، وكنت أنا شديد الحزن أيضاً، انفردت بنفسي يوم سفرها، تجولت شارد الذهن في الحقول هنا وهناك دون هدف، واصلت السير، صامتاً، منهوك القوى، وأحسست بتفكيري المبسط أنَّ الحياة قد أوقعت بنا ظلماً شديداً، وأن واقعنا الجديد في الشتات تغشاه الظلمة ويكتنفه الغموض.

(26)

غداة سفر أم أحمد فتحت المدارس أبوابها، واصلت دراستي في الصف الرابع الابتدائي في مدرسة بُرقة.. بدأت الدراسة في ظل أجواء النكبة المشحونة بآثار الهزيمة وبتحولات كثيرة على كل المستويات، كان الكلّ يشعر بالإحباط، وبعدم الاطمئنان والأمان من واقع الهزيمة المذل، وبالنسبة إليّ كنت تعيساً ومهموماً جريح النفس ؛ أسير أيّامي الماضية، أحلم بمدرسة البرج، أغمض عيني وأتمنى بكل جوارحي أن أعود إليها، وألتقي أصدقائي الذين كنت ألتقيهم في حيفا.

لهذا واجهت صعوبة في متابعة الدراسة في مدرسة بُرقة بسبب أحلامي وأحوالي النفسية المضطربة، كنت أشعر أنني فيها لا شيء وكل ما هو حولي عديم الأهمية. لم أستطع تقبل ما جرى ونسيان ذاتي السابقة، أفسحت في مخيلتي ركناً واسعاً لرفض واقعي الجديد، أخذت أحس بالفراغ وبعدم الرغبة في الدراسة.

قلق والداي كثيراً على سوء أحوالي، وأفهماني أن مواجهة الواقع الجديد وتجنب آثار النكبة لا يتم إلا بالعلم والدراسة. وبمرور الأيام أخذت أعود شيئاً فشيئاً إلى حياة الحقيقة والواقع الملموس، بدأت بمتابعة الدراسة بانتظام والتواصل مع زملائي، ولعل الذكرى الأولى من تلك الأيام تتمثل بنشيد موطني في طابور الصباح، أخذ يُردد بنبرة صوت أعلى من ذي قبل، كأن التلاميذ أرادوا بصوتهم العالي الرد على تعقيدات الواقع الوطني الجديد وتحولات الهزيمة، وما استتبعها من تنازلات وانقياد لمنطق التبرير، أرادوا في كل لحظة زمنية كاشفة من كل يوم جديد استحضار الوطن كله في نشيد موطني كما كان قبل السقوط واحتلال أجزاء غالية منه.

تقترن تلك الأيام في ذاكرتي باهتمامي بالقراءة، رحت ألتهم التهاماً كل ما يقع بين يدي من كتب، بدأت بكتب كثيرة من سلسلة مغامرات «أرسين لوبين» اللص الظريف الذي ابتكره الكاتب الفرنسي «موريس لوبلان» وكان يكشف في مغامراته عن الجريمة وتعقب الجناة وتقديمهم للعدالة، ومع هذه الكتب اهتممت أيضاً بقراءة سلسلة روايات مصرية للجيب كانت تصدر مترجمة عن القصص العالمية.

بعد ذلك اتجهت إلى قراءة الكتب الأدبية، وأول ما قرأته كتاب «حمارالحكيم» لتوفيق الحكيم، وبعده قرأت للمنفلوطي، واستمتعت بأسلوبه الرومنسي الساحر في «ماجدولين» و«تحت ظلال الزيزفون» وقرأت كتاب «الأيام» لطه حسين، وبعض الأعمال الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية؛ أذكر أول ما قرأت منها مجموعة قصص قصيرة لسومرست موم، ثم تعرفت بعدها على رواية «الأم» لمكسيم جوركي ورواية «أوليفر تويست» لتشارلز ديكينز، كنت أقرأها من الغلاف إلى الغلاف، وأرسم شخصياتها وحكاياها المتشابكة في خيالي، وأزهو بالحديث عنها أمام أهلي وأترابي.

مع قراءة الكتب في تلك الأيام اهتممت أيضاً بقراءة المجلات المصرية المعروفة، وأخص بالذكر منها المصور، وروز اليوسف، والاثنين، وآخر ساعة، وقد ساعدني على معرفة هذه المجلات ابن خال والدي لطفي عبد الحميد الناصر الذي واظب في تلك الأيام على اقتناء المجلات والصحف..

كان يعطيني كل ما أحتاجه منها ويشرح لي ما يصعب عليَّ فهمه فيها، ولعله ساهم دون أنْ يقصد في توجيهي نحو الكتابة فيما بعد، ولهذا القريب دين لا أنساه، فقد أثار في نفسي حب التذكر بما كان يرويه في مجالسه من ذكريات له في فلسطين ما قبل النكبة، بما فيها من جوانب كثيرة سياسية واجتماعية، وخفايا بطولات كثيرة لأصدقاء له حارب معهم في منطقة المجدَل، وهو من القلائل الذين سمعتهم يتحدثون في ذلك الزمان عن تفاصيل خفايا نزاعات خلافية بين رموز القيادة التقليدية، وسياسة المفتي الخاطئة واهتمامه فقط بزعامته وإطلاق يده للتصرف في الأموال والأعمال منفرداً برأيه وحده دون اهتمام برأي من حوله من أعضاء الهيئة العربية العليا.

***

بينما تقفز صور تلك الأيام في ذهني، أجد بعد كل السنين الماضية أن الذاكرة تحتفظ بأساتذة تأثرت بهم، وتغلغلت بصماتهم في حياتي العلمية والثقافية من جوانبها المتعددة.

أمام عيني شريط من الذكريات يعود تاريخه إلى تلك السنوات التي كنت فيها أدرس في مدرسة بُرقة، أستجلي فيه وجوه أساتذتي، أجد في مقدمتهم الأستاذ عبد الوهاب الخطيب، عمّ صديقي صخر، أحد طلائع المعلمين الأوائل الذين أخلصوا لواجبهم وأدوا رسالتهم على الوجه الأكمل؛ كان ثاقب النظرات، متدفق الحديث في كلامه، له قدرة على إظهار محاسن الكلام، وفوق كل هذا وذاك أنيقاً في لباسه، يعتمر الطربوش.. اعتبر في وقته شخصية تعليمية متميزة، له طابعه المتفرد في الإدارة، ظهر في إجماع أهل قرية بُرقة على محبته واحترامه واهتمامهم ببقائه أطول مدة ممكنة في إدارة المدرسة.

ومن بين شخصيات المدرسة التي لا تُنسى الأستاذ عبد العزيز حميد وهو من أبناء عمومة أمي، كان حديث الطلاب لأسلوبه المتميز في التدريس، وقد رغّبني أسلوبه بموضوع التاريخ الذي كان يقدمه بشرح مبسط وعبارات سهلة وجذابة يأسر فيها سامعيه ويجذبهم إليه، يتنقل في مواضيعه بمهارة فائقة يدلي فيها بآراء من عنده ممزوجة بمعلومات عامة من خارج المادة المقررة.. ولغزارة ثقافته العامة، كان مولعاً بمعرفة أحدث الابتكارات والتطورات العصرية، ويهتم دوماً بنقلها إلى طلابه أثناء شرحه للمواد التدريسية، وأذكر أنني سمعت لأول مرة عن التلفزيون في أحد دروسه، شرحه لطلاب الرابع الابتدائي من واقع مطالعاته العامة.

تحتفظ الذاكرة بأسماء أخرى من الأساتذة الذين تعلمت على أيديهم وتأثرت بهم، ومنهم: محمد البغدادي وموسى الكردي وحسين أبو عمر والشيخ محمد البزاري، وقد كان أزهرياً يعتمر عمامة ويرتدي جلباباً فضفاضاً أطول من قامته القصيرة ويجاهر دوماً أمام طلابه بمديحه الزائد للفكر الشيوعي، وكان بعض الطلاب يتزلفون له بذكر أسماء وكتب شيوعية لكسب ودّه.

ولن أنسى ذكر الأستاذ حمزة الدسوقي الذي ذكرته في صفحات سابقة، فقد كان يبذل المستحيل لغرس حب اللغة العربية في نفوس تلاميذ السنة الأولى ابتدائي، وقد كرّر دروسه عليهم على سنوات متلاحقة وعلى صفوف متتابعة طوال نصف قرن من حياته الوظيفية.

ولا أنسى أيضاً ذكر ابن عمه وقريبي الأستاذ حسين الدسوقي الذي قضى فترة من عمره معلماً في قرية الشجرة، التي استشهد فيها الشاعر «عبد الرحيم محمود»، وهي قرية الراحل الكبير «ناجي العلي»، التي شاءت المصادفات أنْ ألتقي به أثناء عمله في جريدة القبس الكويتية، وقد حدّثني عن

أستاذه حسين الدسوقي الذي درّسه في سنيه الأولى في المدرسة الابتدائية في قريته قبل سقوطها وهجرته مع أسرته قسراً إلى مخيم عين الحلوة في لبنان.

وثمة أساتذة من بُرقة لم يعلموني لكنني تأثّرت بهم وتابعت سيرهم المتميزة، منهم الأستاذ عبد الجبار الفقيه وقد التقيت به مرة واحدة في القاهرة أثناء عمله ملحقاً ثقافياً في السفارة الأردنية، وكذلك الأستاذ حسن البرقاوي من أبناء عمومة أمي، وقد أمضى زهاء نصف قرن من الزمان بجهود متصلة في مجال التعليم في فلسطين وسوريا، قبل أنْ يستقر به المقام في شرقي الأردن بعيد تأسيس الدولة، وقد درّس في مدرسة السلط فترة طويلة من الزمن، وكرم بعد رحيله بإطلاق اسمه على مدرسة في حي الأشرفية في عمان كدليل على كونه من الرواد الكبار في مجال التعليم، كما كرمته وزارة الثقافة الأردنية بإصدار كتاب عنه، ألقى الضوء على جوانب كثيرة من حياته الثقافية والتعليمية والشخصية وفعاليتها في روح الأجيال المتعاقبة من تلاميذه.

وشاءت المصادفات أنْ أقرأ مقالة للكاتب وليد سليمان نشرها في جريدة الرأي الأردنية بعنوان «حسن البرقاوي واللغة العربية»، أكد فيها نقلاً عن الكاتب المعروف ضياء الدين الرفاعي، أنّ البرقاوي كان ينشر بعض مقالاته في مجلة «الرسالة» المصرية الذائعة الصيت «على قدم المساواة مع كل من المازني والعقاد والزيات وأحمد أمين وزكي مبارك وغيرهم من أرباب الفكر والقلم.»..

لا أستطيع طي هذه الصفحة من أيامي المبكرة دون الحديث عن الطلبة الذين زاملتهم في مدرسة بُرقة، منهم من تعرفت عليهم أثناء دراستي السابقة فيها وقد أشرت إليهم آنفاً، وهم أبناء عمومتي: مصطفى أحمد وجهاد نظمي وعبد اللطيف أسعد، وطارق داوود ومحمد أمين. وآخرون من القرية نفسها تحفظ الذاكرة منهم: نسيم نصر الله ويوسف أبو عمر وعبد الحميد أبو عمر وطالب راغب وفاروق شبيب وعبد الحميد شبيب وعمر أبو عودة ومحمد أبو عودة وعبد الرحيم حميد وعدنان سعيد ونعمان بزاري ووليد بزاري وأكرم بزاري وفؤاد بزاري وفؤاد البدري، وعبد الله قاسم ومحمد الشيخ كامل.

تعرّفت أيضاً على زملاء جدد ممن التجأت أُسَرهم إلى بُرقة، أذكر منهم: راغب حجير من الطيرة وصلاح درويش من البِروة، كما تعرفت على صخر الخطيب الذي امتدت صداقتي معه طوال العمر، ومع الأيام توطّدت صداقتي مع اثنين آخرين من آل درويش هما عزيز وفهيم، وقد التقيتهما بعد سنوات طويلة، وأعلماني أنَّ أسرتهم في البِروة تنتمي في جذورها إلى آل سيف عائلة أمي المنتشرة كما أسلفت في البِروة وعارة وذنابة وطولكرم، وقد هاجر جدهم من بُرقة إلى البِروة فيما مضى، وأخبراني أن الشاعر محمود درويش هو ابن عمهم.. والدهما أخٌ شقيق لوالده.

تتبعت تفاصيل هذه المعلومة واستوضحتها من أبناء خؤولتي من آل سيف خلال السنوات الماضية، وأكدوا لي صحتها، ووجدت منهم من زار أهل الشاعر محمود درويش وثبّتوا خيط التواصل معهم، وهذا دليل واضح على اتساع انتشار الجذور في الأرض الفلسطينية في كل مكان، وهذا ما يبرّر لي البحث عنها لإدراك بعض تفاصيلها بفهم دقيق يفسّر ما ينطوي فيها من مجهول.

***

بعد كل تلك السنين لا أجد ما علق في الذاكرة عن المدرسة الابتدائية سوى القليل، أتذكر المبارزات الشعرية بين التلاميذ الكبار، ورحلة قامت بها المدرسة إلى نفق طويل (الخرق) في وادي راشين

بجانب قرية بلعا شُق خصيصاً لمرور القطارات.. أذكر حين وصولنا خيم الحزن على الجميع، لتوقف حركة القطارات بعد النكبة، قبل فترة قصيرة كانت القطارات تمر من هنا قادمة من حيفا إلى مدن وقرى كثيرة، والآن لا يوجد سوى النفق والقضبان الحديدية المغروسة في الأرض في صفين متوازيين، لا توجد أيّة عربات تنزلق عليها جنوباً وشمالاً، لا أصوات تُسمع من القطارات، سكتت أصوات صفاراتها.

أذكر أيضاً عدة مباريات في كرة القدم، لعب فيها فريق مدرسة بُرقة، مع فرق استضافته في يعبد وعرابة وجبع وطوباس وعصيرة الشمالية، كذلك أتذكر الاستعدادات الضخمة التي كانت تقوم بها إدارة المدرسة، عند زيارة المفتشين الذين كانت إدارة المعارف العمومية تُرسلهم بين الحين والآخر لتفقد المدرسة، أذكر منهم، ابراهيم صنوبر، ومصطفى مراد الدباغ مؤلف موسوعة «بلادنا فلسطين» أحد أهم المراجع التي توثق لفلسطين وشعبها، فقد جمع فيها معلومات غاية في الأهمية عن مناطق فلسطين كافة، وهو بهذا أول من اهتم بالبحث عن الجذور الفلسطينية.. المدن والقرى بكل ما فيها من بشر وحقول وشجر.

ومن الصور الراسخة في ذاكرتي عن مدرسة بُرقة تفنّن الأساتذة في ألوان العقاب والضرب بالخيزران أو المؤشر وبالعصا على الأقدام والمؤخرة والأرداف، وذلك في حالة ركوع التلميذ أو وقوفه، والصفع بالكف على الوجه والرأس.. لم يكن العقاب بدافع سادية المدرسين بل لحرصهم الزائد على تعليم الطلاب وتقويمهم وحثهم على الجد والاجتهاد والمذاكرة، وقد ذكرت ذلك بعد سنين طويلة في قصيدة لي تذكّرت فيها مدرسة بُرقة وأستاذي حمزة الدسوقي، وقد سلمته نسخة منها، استحسنها وعلقها مؤطرة في منزله، أسجل هنا بعض ما قلت فيها:

لله يا أحرفي الأولى بمدرسة كنا بها بصفاء الخلق نعتصمُ

وحمزة إنه كان في ردحٍ نعمى وحيناً كحد السيف ينتقمُ

في مسمعي تلكما الأقوال ما برحت تسري يردّدها لو أنها نغمُ

***

ما ذكرته حتى الآن من مشاهد سبق ذكرها تتعلق بمكانين عشت فيهما؛ حاولت في تلك المشاهد أن أعيد إلى راهني المعيش أصداء كثيرة من سنوات طفولتي حتى نهاية المرحلة الابتدائية أيقظت فيها ذاكرتي موشجة بذاكرة المكان، كنت فيها شاهداً على ما دار حولي من صور متلاحقة عمقت إحساسي بجذوري في فلسطين، بعدها انتقلت من منفىً إلى منفى بعيدًا عن حيفا وبُرقة، مرت أيامي فيها بتحولاتٍ حياتية كثيرة امتزجت فيها إنجازات ذاتية دراسية ووظيفية وثقافية حققتها في منافي الشّتات بعيداً عن فضاء الوطن.

لن أتحدث عن تفاصيل تلك الإنجازات في الصفحات اللاحقة، سأتجاهلها كأنها لم تحدث، لأنني كما ذكرت في سطوري الأولى لست بصدد كتابة سيرتي الذاتية، وإنما أصبو فقط إلى إحياء صور لي ولأسرتي تتشابك مع المكان في ذاكرة واحدة، أعيد فيها رسم حيفا وبُرقة في أطياف ضوء لا

تعرف النسيان، أقدمها إلى من تاهوا في الشّتات، أذكِرهم بجذورهم، وأدعوهم للنظر إلى ما مضى في مدنهم وقراهم دونما انقطاع.

(27)

أعود إلى والدي، واهتمامه الدائم في البحث عن أصدقائه في المخيمات، فقد تمكّن في هذا الجانب من حياته أن يضيء ذاكرتي بصور كثيرة تعج بغبار سنوات ما بعد النكبة، أجده فيها متنقلاً من مخيم إلى مخيمٍ بحثاً عن جذور له ضاعت في ظروف استلاب سياسي واجتماعي وشقاء إنساني تنوعت أغلال الهزيمة فيه ببؤس واقع لا يطاق.

تتابعت زيارته للمخيمات، انتقل من مخيم إلى آخر يجول بنظراته بين ساكنيها ويسألهم عن أصدقائه ومعارفه، كشفت أحاديثه معهم عن وجود حلقة من الشخصيات البارزة تتعامل معهم بسفه واستهتار.. تسرق ما يصل إليهم من هبات.. خيام وبطانيات وملابس وأطعمة وقفف تمر.. سلوكيات مشينة تفشّت، تضاعفت فيها أشكال الفساد واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان في أحلك أوقات النكبة.

كان صوته مليئاً بالحزن عندما يتحدث عن هذه السلوكيات وأثرها على اللاجئين المغلوبين على أمرهم.. كنت أسمعه يعتمد في حديثه عنها على إثباتات دامغة وأسماء معروفة رنانة، ويشكو من تفشيها في وقت الانكسار ومآسي الهزيمة، ويعبر عنها بالقول بأننا نعيش في ثنائية خطيرة على حساب اللاجئين، وإن مساعدات كثيرة تصل لنجدتهم يسرقها بعض الفاسدين من السياسيين ودعاة الوطنية، ممن أوصلوا فلسطين إلى ما هي فيه من أحوال مأسوية، فرضتها تداعيات النكبة بكل ما فيها من عذاب اللجوء والشتات.

ورغم هذه السلوكيات التي كانت تزعجه، أتيح له في زياراته للمخيمات اللقاء بأصدقاء كثر، كان بعد كل زيارة يعود بحكايا عنهم وعن ظروفهم الجديدة ومعاناتهم، تشكل حتى الآن إشارات ودلالات منقوشة في ذاكرتي، اكتشفت من خلالها بؤس النكبة مبكراً من أحاديث والدي وتجاربه في البحث عن أصدقائه في المخيمات.

وعندما أستعرض الآن شريط تلك الأيام، تُسعفني الذاكرة على استحضار أصدقاء كثيرين لوالدي استضافهم في منزلنا في بُرقة لفترات قصيرة من الزمن.. أيام معدودة مشحونة بأحاديث مؤلمة عن النكبة، أذكر منهم أبا محمود العبويني وأبا حسن الوزني والحاج علي المحروم وأحمد سحتوت وخليل الحاج خليل وعبد الله قنديل وفوزي عواد ومحمد أبو سعده ووجيه عبد الباقي، ومنهم أيضاً عادل حوا، كانت عائلته تمتلك عمارة مجاورة لمنزلنا في شارع الناصرة سبق ذكري لها في صفحات سابقة.

وهناك في ذاكرتي صورةٌ مجسمة مهمة لصديق آخر لوالدي تربط عائلته مع عائلتي وشائج قرابة عشائرية متينة، اسمه عبد الفتاح «أبو محمود»(********) من كفر سابا القريبة من قلقيلية، التقاه والدي في مخيم نور شمس وأحضره مع أسرته (زوجته وثلاثة أولاد)، أسكنهم في غرفة كبيرة منفصلة عن المنزل، لها مدخل خاص، ومرفق فيها كل ما يلزم من خدمات أساسية، سكنوا فيها نحو عشر سنوات دون مقابل مادي، عمل أبو محمود خلالها بفلاحة أراضينا بالمناصفة (له نصف الغلة) كما كان متبعاً في القرى في ذلك الوقت، وكان يتبعه أقرباء والدي أيضاً إذ اعتادوا على

إعطاء أراضيهم للغير لفلاحتها واقتسام المحاصيل بينهم وبين المزارعين الذين يتولون أعمال الفلاحة، ويتولون هم في الوقت نفسه كملاك الإنفاق على كل مطالب الزراعة واحتياجاتها.

بقي أبو محمود على هذه الحال طوال تلك المدة حتى حصوله على سمة دخول مكنته من السفر والعمل في إحدى الدول الخليجية.. اتجه عندها مع أسرته إلى محطة أخرى من منافي الشتات البعيدة.

***

مع توالي الأيام، قرر والدي توسيع فضاءات بحثه عن أصدقائه في مخيمات بعيدة في دمشق وبيروت، وفي ذات يوم من صيف عام 1957، سافرت مع والديّ إلى دمشق، التقيت لأول مرة خال أمي الأصغر عبد المجيد عوض، الأخ الشقيق للشيخ ديب السابق ذكره، عاش فترة قصيرة من حياته في فلسطين، التحق في بداية شبابه بثورة «36»، أسرته قوات سلطات الانتداب البريطانية في معركة بُرقة – بيت إمرين الشهيرة وحكمت عليه بالإعدام، ومن ثم تمكن من الفرار من سجن عكا قبل تنفيذ الحكم بأيام قليلة، والرحيل منها إلى دمشق التي أخذها مستقراً له منذ ذلك الوقت.

استضافنا في بيته الكائن في بستان القوتلي على مقربة من حارة اليهود، كان هو وزوجته وأولاده في منتهى اللطف، بذلوا أقصى ما أمكنهم من العناية بنا. تعرفت على أولاده أحمد ومحمود ومحمد وغريب وابنته فائزة، وعلى عدد كبير من أصدقائهم، وتعرفت على دمشق من خلال تجوالي معهم في شتى أحيائها.

عندما أستشعر تلك الأيام، أتوقف عند أول مشهد فيها، أسير فيه في بطء على مقربة من والدي في ساحة المرجة الشهيرة في وسط دمشق، انحرفنا منها إلى شارع جانبي رئيسي يمتد شمالاً، وبعد عدة تقاطعات، سرعان ما كنّا عند بوابة الصالحية المعروفة، وفي لحظة توقف والدي عن السير، استقرت عيناه على يافطة كبيرة معلقة فوق دكان على الجهة اليسرى المقابلة من الشارع، مكتوب عليها بخط عريض «مخيطة آسيا»، التفت إلي بحماس كبير، وقال لي:

«تُذكرني هذه اليافطة بمحل خياطي مرزوق في شارع أمية في حيفا، كان اسم محله «مخيطة آسيا»، من يدري ربما هاجر إلى دمشق، وأسّس هذه المخيطة هنا وأعطاها اسم مخيطته نفسه في حيفا».

توقف عن الحديث، ثم أضاف قائلاً: «دعنا نعبر الشارع ونتعرف على صاحب المخيطة».

عبرنا الشارع وبلغنا دكان المخيطة بعد خطوات قليلة، كان الباب مفتوحاً، دخل والدي وتبعته، وما إنْ دخلنا حتى سمعنا صوتاً يدوي من أقصى الدكان يردد اسم والدي، كان صوت خياطه مرزوق، جاء مسرعًا، اقترب من والدي وتعانقا على إيقاع دموع سخية، عبرت عن النكبة بلفح هزائمها ولظاها.

تحدثا طويلا عن أيام حيفا وعن أهل حيفا في دمشق، كانت تتوهج في حديثهما جمرات حرائق مطمورة تكوي القلوب، وكنت أترصد عن قرب أنفاسهما، وهما يكرران أسماء أصدقاء لهما استشهدوا وهم يدافعون عن حيفا أغلبهم من رفاق قائد حامية حيفا البطل الأردني الكبير محمد حمد الحنيطي.

لحسن الحظ أن مرزوقاً كان على علاقة مع عدد كبير من أصدقاء والدي ممن التجأوا إلى دمشق، اتفقا على اللقاء بهم في مقهى الحجاز على مقربة من محطة الحجاز.. تم أول لقاء في اليوم التالي، استعرضت فيه وجوهاً كثيرة، وتوقفت في أحاديثهم عند معلومات سمعتها لأول مرة عن السوريين الذين أقاموا في حيفا وأغلبهم من التجار تؤكد على أنهم ساهموا هم وأولادهم بالدفاع عنها بثبات كبير، وأتذكر أسماء ذكرت كمثال، من آل الرفاعي وشبيب واللحام والطباع والغفري والأكرمي وكحيل والنوري.

أتذكر من أحاديثهم ما قالوه عن نجوم كرة القدم في أندية حيفا، أخبروا والدي أنَّ جبرا الزرقا وميشيل الطويل وجورج مارديني استقطبهم فريق شرطة الجيش السوري، انضموا إليه، كما انضم إليه عدد آخر من اللاعبين الفلسطينيين.

تكررّت لقاءات والدي وصديقه مرزوق وبقية الأصدقاء، في أماكن كثيرة في داخل مخيم اليرموك.. كنت أرافق والدي في زياراته، وأحاول دوماً حفظ أكثر ما يمكن حفظه من أحاديثهم في ذاكرتي، علم والدي من تلك اللقاءات أنَّ نحو عشرة من زملائه الذين عملوا معه في حيفا التحقوا بعد النكبة للعمل في المؤسسة العامة للهاتف في شارع النصر، زارهم في مكان عملهم، تعرف منهم على ما استجد على الهواتف من تطورات بعد توقفه عن العمل وتقاعده بعد سقوط حيفا.

من اللقاءات المهمة التي لا تُنسى لقاء والدي بقريبنا الشاعر عبد الهادي كامل الذي تحدثت عنه أنفاً، فقد هاجر إلى دمشق وعمل مفتشاً في جهاز التعليم التابع لوكالة الأونروا، أخبرته في ذلك اللقاء بأنني أهوى الشعر وأنظمه، أسمعته بعض أشعاري، قال لي رأيه فيها بتجرد، وقدم لي نصائحَ كثيرة في مجال الشعر والدراسة الجامعية، أخذت بما قاله لي، وللأسف أنني لم أره بعد ذلك لأخبره بما حققته من إنجازات علمية كان لنصائحه دور كبير في تحقيقها.

مرَّ أسبوع على وجودنا في دمشق، وفيما كنا في يوم مشمس جميل نتنزه مع عائلة خال أمي في غوطة دمشق، أخبرنا والدي برغبته في السفر إلى بيروت وطرابلس للبحث عن بعض أصدقائه هناك.. شجعته أمي على أن أبقى معها في دمشق، وهذا ما حصل، توجه في اليوم التالي إلى بيروت.. تُسعفني الذاكرة على استحضار مباراة كرة قدم شاهدتها أثناء غيابه، اصطحبني أولاد ابن خال أمي إلى مشاهدة مباراة كرة قدم شارك فيها ثلاثة من أهم نجوم كرة القدم الفلسطينية السالف ذكرهم.

***

قضى والدي أربعة أيّام متتالية في لبنان، حدثنا عند عودته عن أصدقاء له التقى بهم من أهل حيفا، زارهم في مخيمات كثيرة، والتقى بكثير من أصدقائه ممن عمل معهم أو تعارف عليهم في حيفا، وأهم ما نُقش في ذاكرتي من أخبار رحلته، خبر أحزن أمي وأحزنني، يتعلق بوفاة زوجة صديقه أبو أنطون الطويل في مدينة طرابلس بعد الهجرة بعام، زار والدي ابنه أنطون والتقى في منزله عدداً من الأصدقاء ممن كانوا يعملون في مكتب شركة نفط العراق في حيفا، والتحقوا بعد النكبة بمكاتبها بطرابلس، ضمن خطة وضعتها الشركة من قبل مع اقتراب انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين.

هي ذي العناوين الكبرى لتجربة والدي بالبحث عن أصدقائه في دمشق وبيروت وطرابلس، أراد بها أنْ يقتفي جذور حيفا وكل من عاشوا على أرضها لتبقى منقوشة في ذاكرة الأيام.

(28)

اكتشفت مبكراً خصوصية بحث والدي عن الجذور، تشرّبت تجربته، دخلت في تكويني الثقافي والعاطفي، وواصلت النظر لما حولي بمنظاره بعد رحيله في عام 1979، قررت اقتفاء خطاه، وتمكنت خلال سنوات طويلة من التعرف على أقرباء وقريبات لي.. التقيت بعضهم بالمصادفة أو من خلال أصدقاء مشتركين، في كندا والولايات المتحدة والبوسنة والمجر والنمسا، منهم أقرباء تعرفت عليهم بالمصادفة في كندا على مقربة من جبال «الروكي ماونتن»، كما تعرفت أيضاً على عدد من أبناء حيفا وقراها وأبناء بُرقة، تصادقت معهم في مراحل مختلفة من مراحل العمر، كوّنت معهم صلات وصل مفعمة بألفة وطنية تلقائية اختلطت فيها ظلال الماضي بظروف الواقع المعيش.

ساعدني البحث عن الجذور أن اكتشف أنَّ أفضل نص يمكنني كتابته، هو النص المغمس بحروف تحفظها الذاكرة عن حيفا وبُرقة تتداخل فيها أحداث طفولتي الباكرة بأحداث الوطن، وتتداخل سنوات عمري بزمن مضى قبل النكبة، الحادثة بالحادثة والسنة بالسنة، أسجلها في نصوصٍ متداخلة في إطار ثنائيةٍ تجمع الأنا والآخر في شريط صورٍ ومعانٍ مغبَّرة بتراب الوطن.

استحضرت في نصوص كثيرة طفولتي في حيفا وبُرقة، عبر التخييل بوعي الحاضر، كانت تتسع أمام ناظري أيامي الماضية، وتزداد رغبتي بزيارة حيفا وبُرقة.

رسمتُ حيفا في نصوص مقالاتٍ كثيرة على مدى فضاء يتجاوز كل الأبعاد، أهلٌ بوجوه كثيرة، على وجه الخصوص وجوه أمي وأبي وطبيبي هانس وكل الأصدقاء والجيران.. ومليء بمشاهد ولحظات كثيرة من طفولتي، استمرت بالترسب في أعماقي واستيطان ثنايا الذاكرة.. لا أستطيع منها فكاكاً تمتد جذورها في خبايا ألبوم أيامي.

ورسمتُ بُرقة القرية في نصوصي، تحت ظلال هالات نور منبعثة من خلف تلالها، أعدت فيها وجه جدتي عائشة ووجوه كل من عاشوا فيها في زمن مضى، وأعدت بناء بيت جدي بعقوده وزوايا حيطانه وسلالمه الحجرية، استحضرت حوله جمال الطبيعة المحيطة، الأشجار الوارفة الظلال التي تفَيأت ظلالها في صغري، ولاتزال تحيلني إلى معينٍ لا ينضب من اللحظات المفرحة.

طفولتي الباكرة تخيِم على حيزٍ كبير من نصوصي، أستمد منها وعيي الأول على الوطن – المكان، ويخيم عليها ترحالي الدائم في مراحل الزمان المتتالية، ذكريات تتدفق دائماً في خاطري، أستمدّها من مخزون ذاكرتي، ومن مقتنيات قديمة كثيرة تركها لي والدي تجسّد لي ذاكرةً لا حدود لها عن أيامنا الماضية، تتمحور في تفاصيلها حول ما تركه من مفاتيح وأوراق وصور ومجلات وطوابع بريدية وعملات معدنية وورقية وأدوات منزلية ملفعة كلها بجراح السنين.

كلما أنظر إليها مهما تناهت في صغرها أرى كوناً عجيباً من السحر والجمال، أسترجعُ فيه دائماً أيامي القديمة، مترعةً بتفاصيل ذكريات طفولتي، أتصفحها صفحة تلو الأخرى، أتلمس فيها جذور أهلي وأجدادي، تجتاح كياني، تحررني من إحباطي وتشحنني بطاقةٍ تجلُّ عن الوصف.

تحملني هاتيك المقتنيات، إلى أرض مولدي، إلى شوارع حيفا العتيقة، وإلى شريط ساحلي من الرمل الأبيض الممتد على شاطئ بحرها، حيث أمضيت طفولتي العاصفة، وإلى بُرقة المندّاة

بالدحنون، أستشعر نفسي فيها من جديد.

(29)

في صباح يوم من أيام شهر تموز 1995 حصلت على الجنسية الكندية، وبعيداً عن التلاعب بالكلمات يهمني التأكيد هنا على أنّها ليست بديلاً لهويتي الوطنية، ولا يمكنها أن تُنسيني قضيتي وناسي أو أن تقطع الحبل السُري الذي يربطني بكل ذرة تراب من بلادي، خصوصاً وأنَّ قوانين الهجرة المرعية في كندا، تُجيز للكنديين الحفاظ على هوياتهم الوطنية الأولى، وتُساعدهم على التمسك بأحلامهم الوطنية والتمسك بخصوصياتهم الثقافية والإثنية، وثمة أمثلة كثيرة تنثال في الخاطر تُعطي أدلة مادية على ذلك منها مهرجان العالم العربي الذي يُقام في كل عام من أجل تعريف الكنديين بالثقافة العربية، إضافة إلى وجود عشرات الصحف التي تصدر باللغة العربية في مختلف المدن الكندية، ووجود مدارس عربية كثيرة ومراكز بحثية تُعنى بالدول العربية.

وتشاء المصادفات أنْ أنال الجنسية الكندية بعد عام من عودة منظمة التحرير الفلسطينية إلى الضفة الغربية وقطاع غزة، وإقامة السلطة الوطنية الفلسطينية، في وقت كنت أعمل فيه مستشاراً اقتصادياً في الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي (مؤسسة مالية إقليمية عربية) يضم في عضويته كل الدول العربية بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية، تنصبُ أغراضه في تمويل المشروعات الإنمائية الاقتصادية والاجتماعية في الدول العربية، عن طريق تمويل المشاريع الاستثمارية العامة والخاصة، وتقديم المعونات والخبرات الفنية، وقد التزم حال إقامة السلطة الوطنية الفلسطينية بتمويل عدد من مشاريعها الإنمائية في غزة والضفة الغربية.

وشاءت المصادفات ثانية أن أُكلّف مع عدة زملاء للقيام بالأعمال الإجرائية اللازمة لتمويل تلك المشاريع التي تبنّتها السلطة الفلسطينية. وبمقتضى هذا التكليف كان لا بد لي من زيارة رام الله ومقابلة مسؤولي جهاز السلطة الرسمي المعني بالتنمية «بكدار»، وهكذا تمكنت من دخول الضفة الغربية لأول مرة بعد ما يقرب من ثلاثة عقود من احتلالها في عام 1967.

إلى جانب قيامي بأعباء العمل الوظيفي الذي جئت مع زملائي من أجله إلى رام الله، وجدت أن وقت الراحة في نهاية الأسبوع يكفي لإجراء زيارات كنت أحلم بها طوال عمري، زيارة حيفا وبُرقة.. وفي صباح يوم جمعة توجهت برفقة زميلي في العمل المهندس علي بسطوس لزيارة حيفا، وهو في الوقت نفسه من أصدقائي المقربين، أصله من المغرب، كثير الإفضاء بمشاعره تجاه فلسطين، لها في أعماق نفسه زاوية خاصة.

اتجهنا من رام الله غرباً بسيارة أجرة كان يقودها صاحبها أحمد أبو غربية، بعد فترة من الوقت سلكنا الطريق الساحلي السريع الممتد شمالاً ما بين يافا وحيفا، شعرت بهواء البحر يضغط على نوافذ السيارة، فتحت النافذة التي قربي وملأت رئتي منه، شيئاً فشيئاً أخذت تجتاحني الذكريات طوال الوقت، تلاحقني دقائق تاريخنا الحزين، وما بين قصة حزن وأخرى (وما أكثرها) كنت أصافح كل أزهار الدحنون المنثورة على جانبي الطريق، سارحاً بعيني بين حبات التراب وأمواج البحر التي ترامت أمامي على طول المدى.

أسرفت بالذكريات، استحضرت لحظات من أيام طفولتي في حيفا، تخيلت والدي سائراً في شارع الناصرة، حاملاً بيديه حلوى (هريسة معطرة كنت أعشقها)، وتخيّلته ملوحاً لي عن بعد، وتخيلت نفسي راكضاً نحوه، ناثراً أصابعي الصغيرة في كفيه.

أفقت على صوت أحمد أبو غربية، صحّاني من أحلام اليقظة، أخبرني بأننا على وشك الوصول إلى حيفا.. نظرت حولي، رأيت قبة البهائيين تطل على البحر من نقطة عالية فوق الكرمل ملفوفة بأردان غيوم شفيفة، قلت له: «نعم نحن على مقربة من أبواب جنة أخاذة الجمال».

بعد قليل تفاجأت عندما سألني أحمد: «أين أتجه الآن، أنا لا أعرف حيفا ولم أزرها من قبل؟».

نظر إلي علي متسائلاً: «هل لاتزال تذكرها بعد تلك السنين؟».

أجلت البصر بينهما قائلاً: «نعم أعرفها وكأنني لم أخرج منها طوال الخمسين سنة الماضية».

أخبرتهما أنني أعرف كل أجزاء حيفا شبراً شبراً، كنت في العاشرة من عمري عندما رُحلت منها قسراً، وكل تلك السنين الطويلة التي عشتها في الشتات لم ُتنسني أحياء وشوارع حيفا ولا مكان منزلي في شارع الناصرة، ودعوتهما بداية إلى زيارة منزل أسرتي الذي حملته وشماً بالعين طوال السنين الماضية.

فيما كنا ندخل المدينة من جهتها الغربية، طلبت من أحمد الاتجاه بسيارته شرقاً على امتداد شارع يافا بموازاة شاطئ البحر الأبيض المتوسط بآفاقه اللانهائية الساحرة، وضحت لرفيقيّ ما نراه حولنا على الجهة اليسرى من الشارع: حي بيت جليم، مكان مسبح العزيزية، البور (الميناء).

في لحظة طلبت منهما أنْ ينظرا إلى الجهة اليمنى العلوية من الشارع، حيث توجد منطقة الألمانية وفوقها الحدائق البهائية الغناء، وبعد قليل انحرفنا في شارع جانبي، وسرعان ما وصلنا حي وادي النسناس.. منه انتقلنا إلى أمكنة لفعتها بعواطفي طوال ما يقرب من نصف قرن، تمثل جزءاً هاماً من حياتي الماضية: ساحة الجرينة، وحارة الكنائس، ووادي الصليب، وساحة الحناطير (الخمرة) وجامع الاستقلال، وعمود فيصل.

مررنا بكل هذه الأمكنة.. ثم طلبت من أحمد مواصلة السير بخط مستقيم إلى ما بعد مسجد الاستقلال.. اقتربنا من زقاق الحجاز، وبعدها صرخت بأعلى صوتي: «هذا شارعي، شارع الناصرة».

سارت السيارة فيه على مقربة من محلات مغلقة، أُغلقت يوم سقوط حيفا وبقيت مغلقة طوال السنين الماضية، طلبت من أحمد السير في بطء، أخرجت رأسي من نافذة السيارة لأرى كل شيء حولي بوضوح أكثر، اعتراني اضطراب وأنا أرى المحلات التي أغلقت قبل زمن بعيد: مقهى العجمي، ودكان أبو العبد قريب والدي، ومصبغة الكرنك ومعمل الثلج الوطني وغيرها من المحلات الأخرى.. نظرت بشيء من الدقة في كل جوانبها، رأيتها خالية لا شيء فيها، تفوح منها رائحة الهزيمة، تمر الدقائق مثل ساعات فيما أنظر إلى محلات كانت تضج بالحركة والحياة في سالف الأيام، وها أنا أراها الآن تلاشت فيها الحياة وأصبحت مجرد أقبية للأشباح، أحاول أن أحييها ثانية قي يقظة الذكريات.

واصلنا السير ببطء، وسرعان ما اقتربنا من عمارة أبو حوا، طلبت من أحمد الاتجاه إلى اليمين، وفي غضون دقائق طلبت منه الوقوف. بعدها قلت لرفيقيّ بصوت متهدج تخنقه الغصة: «هذا هو

منزل أسرتي الذي ولدت فيه».

درت ببصري فيما حولي، انهارت قواي، فقدت وعيي للحظات، أفقت على صوت صديقي علي وهو يُصحِّيني، عدت إلى ما اختزنته ذاكرتي من لحظات قديمة أغلق فيها أبي منزلنا وقت الرحيل، حملتُ تلك اللحظات أعواماً طويلة في ذاكرتي، أغلقه عندما كنت في العاشرة من عمري، وها أنا أزوره وعمري يناهز الستين عاماً ولايزال مغلقاً، حملته وشماً في عيني طوال السنوات الماضية، ولاأزال أحمل مفاتيحه معي في مسارات التيه أنى ذهبت.

غمرني الحزن عندما وجدته بيتاً للأشباح، كحال محلات شارع الناصرة وكل محلات وبيوت الأحياء العربية الأخرى، تهاوى منه طرف من جزئه الغربي، ونخرت السنون أحجار حيطانه، لا أثر فيه للحديقة، لا أشجار حوله ولا ورود ولا أغصان ملساء جديدة تبرعم مع بداية الربيع، ولا أحد في الجوار.

كل البيوت المجاورة مغلقة ومهجورة.

ها أنا أمام منزل أسرتي الآن، تُطاردني الذكريات، أسترجع ذكرى أيام مضت.. أقف أمام المنزل الذي وُلدت فيه وأبصرت الدنيا، سكنته في صِغري مع والديّ، ها أنا أطوف حوله الآن، نعم طفت حوله سبعاً والأبواب موصدة، وغصة في القلب تُدميني، أعدت تراكيب الأمس مُترعاً بكل ما مضى، سمعت دبيب أقدام أمي فيه، وشممت رائحة قهوتها، ورأيت ملاعقها وصحونها ومغارف قدورها، وسمعت رنين صوتها مع انزلاق الصدى، حتى شعرت بعد كل تلك السنين أنَّ رماد موقدها لايزال ساخناً.

أوغلت في ذكرى الأيام الماضية في تلك اللحظة، تذكّرت الكثيرين من أبناء جيلي ونحن نلهو على شاطئ حيفا، ونسطّر على رماله خطواتنا الأولى.

بعد قليل من الوقت طلبت من أحمد الاتجاه في سيارته إلى أعلى الكرمل، توقفنا على مقربة من دير مار الياس، وقفنا فوق تلة كنت أقف عليها مع أصدقائي قبل النكبة، تطل على مشهد بانورامي لكل حيفا، شاهدنا منها كل المناطق العربية التي أعرفها وأتذكر كلّ ما فيها، حدثت رفيقيْ رحلتي عنها وعن ذكرياتي فيها. فقدت خيط الحديث فجأة، بقيت أتأمل ما حولي صامتاً. بعد قليل استعدت توازني، ومن وحي تلك اللحظات التي لا تنسى قلت بصوتٍ عالٍ:

حيفا هنا

إني هنا

البحرُ يجمعُ

بيننا

واللوزُ

والزيتونُ

والقمرُ

..

حيفا

هنا

إني هنا

آتي إليكِ اليوم

أعتمرُ

..

خمسون عاماً

وهذا اليومَ أنتظرُ

خمسون مرت

غزاها الشيبُ

والكبرُ

كرّرت هذه الكلمات عدة مرات، أردت بذلك أن تسمعني حيفا وأمواج بحرها وحتى رُفات أموات الكهوف المعلقة فوق سفوح كرملها، حاولت بالشعر التعبير عما يختلج في داخلي من أحزان دفينة.. وجدت العزاء فيه لوقف نزيف جروحي.

أشاعت كلماتي الحزن لدى رفيقي رحلتي، قال لي أحمد وهو يزداد توتراً: «لن أنسى هذه الزيارة طوال عمري».

واستطرد قائلاً: «تتذكر كل شيء كأنك لاتزال تعيش في حيفا، كأنك لم تخرج منها، تتحدث عنها كأنّها بداية نشأة الدنيا».

أجبته: «مسقط الرأس لا يُنسى، إنّه الوعي الأول للوجود، يبقى وشماً في العين مهما طال الزمان وتباعدت الأمكنة، إني أختزنه في ذاكرتي أعود إليه بالذكرى أنّى ذهبت، تترصد عيني كل ما يجري فيه رغم المنافي والشّتات وأشتدُ في جذبه كلما اشتد في البعد عني».

أعجبني كلام أحمد وقدرته على التعبير عن واقع حالي.

فيما كنت أجمع شتات أفكاري التي كانت تنطلق هنا وهناك، تتقافز في كل أرجاء حيفا، سمعت صديقي علي، يقول لي: «دعنا نعود ثانية إلى المناطق العربية المهجورة، لنسير فيها مشياً على الأقدام لنتعرف عليها أكثر وأكثر».

وهذا ما تم بالفعل، اتجه أحمد بسيارته نزولاً من أعلى الكرمل إلى حي الألمانية، ومنه إلى حي وادي النسناس، ركن سيارته في بداية الحي، وبدأنا السير في بطء عبر شوارع رئيسية قريبة.. كنت أنظر في وجوه المارة فأشعر كأنني أعرفهم ولم أفارقهم يوماً. انحرفنا في شارع رئيسي، وسرعان ما وصلنا إلى مقهى صغير في بيت تقليدي قديم، جلسنا فيه بعض الوقت.. ضحكت في جذل طفولي عندما سألني صاحب المقهى: «من أين أنت؟».

أجبته: «من حيفا، إسه وصلتها مع صديقيّ».

رد علي مبتسماً: «نعم أنت حيفاوي، لا يقول إسه إلا أهل حيفا والشمال الفلسطيني».

تجاذبت معه أطراف الحديث، وجدت من حديثه اشتداد وطأة حي النسناس بأهل حيفا، أغلبيتهم تعيش فيه.

وفيما كنت أغمض عيني وأحاول أن أتخيل نفسي في العاشرة من عمري أسير في حي وادي النسناس، قال صديقي علي بسطوس مقاطعاً أفكاري: «الوقت يداهمنا، دعنا نواصل السير في أماكن أخرى».

اتجهت نحو صاحب المقهى لدفع الحساب.. رفض مردداً بصوت عالٍ: «أنتم ضيوفنا عيب آخذ منكم».

شكرناه على حسن ضيافته، وخرجنا من المقهى، واصلنا السير، توقفنا عند إشارة مرور، اتجهنا يميناً وسرعان ما صرنا في شارع يافا، اتجهنا فيه سيراً على الأقدام إلى ساحة الحناطير»الخمرة»، رأيت عند وصولنا يافطة مثبتة في بدايتها تشير إلى اسمها الجديد «ساحة باريس».

تجولنا في الساحة، حدثت علي وأحمد عن ماضيها، عن عربات الحناطير التي كانت تصطف فيها، وعن محلات الأقمشة التي كانت منتشرة على جوانبها، مع الكثير من المقاهي والملاهي والمطاعم، وحدثتهما عن ماضي شوارع كثيرة حولها أصبحت مجرد أطلال لزمن مضى، منها شارع الخطيب الذي يمتد حتى شارع ستانتون، وشارع فيصل الممتد منها نحو الشرق إلى ميدان الملك فيصل، واسمه الآن شارع حباليام، وشارع الملك جورج الذي يمتد من الساحة نحو الغرب ويسمى الآن شارع هميجنيم، وحدثتهما عن محلات كانت على أطراف الساحة، منها أكبر مكتبة في فلسطين، ودكان سويدان، ومحلّ أحذية مقابل البنك العثماني لصديق والدي سليم البيروتي، ومطعم أبو علي القلعاوي، ومحل علي سقيرق للبوظة والمرطبات.

وفيما كنت أحدثهم عن محل تجاري كبير كان بجانب الساحة أشبه بمول الوقت الحاضر، فوجئت بأننا نقف أمام مطعم تعلو بابه يافطة كتب عليها بحروف عربية «مطعم أبو يوسف»، ضحكنا لأن صديقي علي يكنى بأبي يوسف أيضاً. قررنا دخوله لتناول طعام الغداء، داخله يبعث على الراحة والدفء.. اخترنا طاولة قريبة من المخرج.

وصل النادل، أعلمنا بأنّ المشاوي أشهر وجبة في قائمة طعامهم، تقدم مع صحون كثيرة من المشهيات الحيفاوية.

أخذنا بنصيحته وطلبنا المشاوي.

في غضون دقائق، جاء النادل حاملاً أطباق المشهيات، مع أرغفة خبز ساخنة، وبينما كان يمد صحونه أمامنا، وجه سؤالاً لعلي: «لهجتك ليست فلسطينية من أيّ بلد أنت؟».

أجابه: «أنا من بلد عربي بعيد من واحة صحراوية تقع في جنوبي المغرب».

رحب بعلي كثيرًا وقال له: «أنت أوّل أخ مغربي يدخل المطعم».

بعد دقائق معدودة أتى صاحب المطعم، رجل في وسط العمر ذو ابتسامة عريضة، رحب بنا، ورحب بعلي كثيراً، وتبادل معنا أطراف الحديث. سألته عن نادٍ ليلي كان مشهوراً في ساحة

الحناطير «الخمرة» قبل النكبة، تفاجأت عندما أخبرني أنَّ مطعمه مؤسس في مكان ذلك النادي، وأضاف أنّه في هذا المكان نفسه الذي أنتم فيه الآن غنت سهام رفقي وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وغيرهم.

تناولنا وجبة الغداء وصاحب المطعم يجلس قربنا، يتحدث عن أيام حيفا الحالية، فيما كانت تلمع في ذهني أيامها الماضية في ثنايا شريط صور صامتة، أتلمس فيها عذوبة جلساتي القديمة مع والديّ في مطعم أبو علي القلعاوي في ساحة الحناطير «الخمرة»، وأستحضر أحاديثهما أثناء تناول الطعام فيه.

شكرنا صاحب المطعم على لطفه واتجهت نحو الشخص المسؤول لدفع الحساب، فاجأني بقوله: «الحساب مدفوع».

تناقشت مطولاً معه، وكرر رفضه، بعدها أطلّ صاحب المطعم، وقال مبتسماً: «غمرتموني بالسعادة لوجودكم في مطعمي، الوضع الطبيعي أنْ أستضيفكم في منزلي، هذا أقل ما أقدمه لك أنت شخصياً بعد غيابك عن حيفا كل تلك السنين».

كرّرت محاولتي كثيراً لدفع الحساب وكذلك فعل علي أيضاً، بذلنا جهداً كبيراً لإقناعه.. لكن صاحبنا بقي مصراً على موقفه بحماس زائد، وفي نهاية المطاف استجبنا له وشكرناه على حسن ضيافته ولطفه.. ودّعناه كأننا نعرفه منذ زمن طويل.

شعر علي وأحمد بالراحة لموقف صاحب المطعم، استطعت رؤية ذلك في عيونهما.

خرجنا من المطعم وواصلنا السير على الأقدام باتجاه عمود فيصل، وجدته قد نقل من مكانه القديم أمام محطة سكة الحديد إلى مكان جديد قريب منه خلف مسجد الاستقلال، وجدت العبارة التي كانت مكتوبة عليه في الماضي قد مسحت «الاستقلال يؤخذ ولا يعطى».. لا أثر لها على النصب التذكاري.

توقفنا بعض الوقت في وادي الصليب، أعرق الأحياء العربية، قبل النكبة، وجدت أكثر بيوته مهدمة ومعالمه القديمة ليست نفسها الحالية.. ثمة بيوت قليلة فيه صالحة أغلقت نوافذها وأبوابها بالطوب.. وجدت شارع العراق قد حول اسمه إلى كيبوتس جلويوت، وشارع الأفغاني إلى شارع هراب باروخ ماركوس.. تجولنا في الأحياء القريبة، لم أجد أثراً لبيت الخوري الشهير، ووجدت بيت النجادة قائماً في الحليصة، وقد حول جزء منه إلى كنيس.

عدنا إلى شارع الناصرة ثانية، فيما كنت أمشي فيه، استيقظت في نفسي ذكرى كلّ سكانه ومحلاته، برزت معالمه القديمة من تراكم السنين، إنّه شارعي، أصبح الآن مهجوراً ليس هو الذي كان من قبل، يُخيم عليه هدوء رهيب، لا أصوات فيه ولا ضوضاء، ليس فيه سوى الأنقاض والخراب، بدا في صورة تقترب من الأشباح، وتغير اسمه القديم، أصبح الآن «ديرخ بار يهودا».

اتجهنا بعدها إلى شارع الملوك الذي كان من أهم شوارع حيفا في منطقة الأسواق التجارية، وجدت أنّ اسمه قد حول إلى شارع الاستقلال، لم أجد أيّ أثرٍ فيه لفندق نصّار الشهير، ولشركة الكات، والبنك العربي، ومطعم حرب الراقي ومطعم أحمد الصلح الفوال، ومكتب سفريات العلمين ومكاتب ومحلات أخرى كثيرة كانت مزدهرة فيما مضى.

اتجهنا بعد ذلك إلى ساحة الجرينة التي تقع على مدخل البلدة القديمة من جهة شارع الملوك، كانت في عهدها العربي مركزاً للحركة التجارية في حيفا، وجدت فيها مسجد الجرينة فقط، ولم أجد أثراً لسوق الشوام المتفرع منها، ولا للسوق الأبيض الذي كان يمتد منها إلى حسبة الخضار في داخل البلدة القديمة.

أحزنني ما رأيت، وزاد حزني عندما زرت مع رفيقيْ رحلتي مدرستي مدرسة البرج، كان الوقوف أمام بابها المغلق من أشق اللحظات، وجدت كل شيء حولها خاوياً يثير قدراً كبيراً من الاضطراب.. إنها تنتظرعودة طلابها إليها، كل شيء تحول بجانبها في شارع البرج إلى بقايا أطلال لا أثر فيها للحياة، بيت رشيد الحاج ابراهيم مهدم، ولا أحد في بيت كنفاني وبيت المفتي محمد مراد، وبيت عبد الرحمن الحاج رئيس بلدية حيفا في العشرينيات، عم والدة صديقي الفنان المعروف عبد عابدي، لا أصوات تعلو في تكية الزاوية الشاذلية القريبة، ولا أحد يمر على درج عجلون، حجارته باقية لوحدها على مقربة من شارع البرج الذي تحول اسمه إلى شارع معاليه هشحرور.

تجولنا في شوارع وأحياء أخرى كثيرة، وجدتها مهجورة، أطلال لأيام طواها الزمن البعيد، تطفو بقاياها ومخلفاتها المهدمة.. كلّ شيء تغير فيها، حتى أسماء الشوارع التي كنت أعرفها، تعرف الآن بأسماء أخرى، بلغة أخرى لا أعرف منها حرفاً واحداً.

(30)

في رحلة العودة من حيفا إلى رام الله اخترت الطريق الذي استخدمه والدي يوم رحيل أسرتي من حيفا إلى بُرقة، وهو الطريق الذي يمتد جنوباً مخترقاً الناصرة والعفولة وجنين.

مضى الوقت بطيئاً، كان يرفع من آماد خيالاتي، أحلق أبعد وأبعد، وأفتح آفاقاً جديدة لجراحي، هي المرة الأولى التي أزور فيها بُرقة بعد رحيل والديّ.

وصلنا بُرقة.. كنت أجر فيها خطوي جراً، وجدت نفسي بداية أتجه إلى مقبرة الأسرة، ناديت السنين الماضية عند قبري أمي وأبي، ناجيت أيامي معهما، ورثيت لها. غمرتني ذكريات كل ثانية منها، وتذكرت حلمهما بأن يُدفنا في هذا المكان نفسه، أن لا يبتعدا في الموت عن تراب بُرقة، وهذا ما كان لهما، آمنا أنْ الموت في ربوع الوطن لا ينفصل عن فعل الثبات والتمسك فيه أثناء الحياة، وكأنهما أرادا بهذا القول إنهما باقيان هنا بقاء الأبد.

بوعي كامل لكل ما كنت أرى أيام طفولتي في بُرقة، أضاءت ذكرياتي عنها كل ماضيها، اتسعت خبايا ذاكرتي وأمدتني بكل الوجوه التي رحلت وكل تفاصيل أيام طفولتي، جدتي عائشة والمدرسة وبيت جدي والمسعودية وتفاصيل حياتية مخبوءة في المكان والزمان.

وبينما كنت أسير مع رفيقيّ علي وأحمد في طرق القرية، وصلت معهما إلى منزل أسرتي الذي تعيش فيه قريبتي فاطمة، وقريبتي هذه امرأة تراكمت أثقال السنين على كاهلها، وهي تعيش وحيدة بمفردها دون أنْ يُسمع منها شكوى أو تذمرٌ أو حقدٌ دفينٌ على أحد.. لم تعرف في حياتها سوى مسقط رأسها بُرقة، لم تعرف في حياتها سوى هذه البلدة، عزفت فيها عن مغريات الحياة وبهارجها، أصرت على البقاء فيها ثابتة طوال عمرها أكثر من اثنين وثمانين عاما، وقد زاد ثباتها بعد النكسة، رفضت الخروج منها طوعاً ورفعت راية الصمود والثبات.

تعلّقها بالأرض أتاح لها أنْ تحافظ على أرض أهلي وبيوتنا، وتحمي أشجارنا.. كانت تعرف كلّ أشجارنا تقفز من شجرة إلى أخرى، تحصي فروع أشجار الزيتون واللوز والليمون والرمان، ترويها بقطرات عرقها، وتحصي أتلام أرضنا تلماً تلماً، وتحصي حتى ذرات التراب حبة حبة في أرض البوبع والمسعودية والشلعوطية وجبل البد وأراض أخرى.

كانت بنشوةٍ عميقة تُحافظ على أبواب ومفاتيح أبواب بيوتنا المهجورة من الضياع، تزور تلك البيوت بين الحين والحين، تضع المفاتيح في مغاليقها، تفتحها وتجلس فيها، ويتلوى جسدها النحيل المثخن بالحنين وهي تنتظر قدوم زائر يأتي من الشّتات، تنتظر وسط لهيب شوق يتأجّج لأيّ زائر كان، تنتظر طويلاً وعندما يحلّ الليل ولا يأتي أحد، تغلق الأبواب ثانية وتعيد المفاتيح إلى مخابئها من جديد.

نداء باطني غريب كانت تسعى وراءه دوماً، تلاحق به أخبار من تاهوا من أهلها في دروب الشّتات الموحشة، يعلو صوت نبضها على ذكراهم، تستحضر وجوههم في غمار أيّامها، وتستمد من حبهم قدرة خارقة على الصمود والبقاء.

ها أعود إليها الآن لزيارتها لأول مرة بعد غياب طويل دام ما يقرب من ثلاثة عقود، مرّ خلالها العام إثر العام في بلاد الاغتراب.

كان الباب الرئيسي لحديقة المنزل مفتوحاً، دخلته، وجدت قريبتي جالسة في أفياء شجرة، تسند ظهرها إلى قرمية زيتونة قديمة، استقبلتني بحفاوةٍ دون أنْ تعرفني، وكيف تعرفني وقد ابتعدت عنها سنوات طويلة دون انقطاع؟ تغيرتُ بها وعلا الشيب رأسي، مددت يدي إليها وقبلت كفيها، وبحماس طرحت عليها أسئلة إيحائية عن حالها وأحوالها.

عرفتني وقتذاك من نبرة صوتي، كانت سعيدة لزيارتي لها، حدثتني عن الأهل بحنان غامر، وبعقل راجح قلبت الأمور على جميع وجوهها في ظل الاحتلال، وعبّرت لي ببرطنة لهجتها الريفية عن حزنها لأنَّ كبار السن يشيخون ويعجزون ويموتون، يرحلون الواحد تلو الآخر، يختفون وتغلق أبواب بيوتهم، ولا أحد يحلّ محلهم، وهكذا تفرغ القرى والمدن من أهلها في ظلال الاحتلال الكابوسية من دون قتال، وهذا ما تُراهن عليه دولة الاحتلال.

هكذا استشرفت مع رفيقيّ عالماً لها بكلمات محسوبة قليلة، رددتها بسلوكها العفوي، فكرت جدياً أنْ أسجل أقوالها وأرسلها إلى أصحاب المقامات العالية الطارئة في رام الله، الذين هم في وضعية انبطاح على سطوح بروجهم ويتظاهرون بأنّهم منشغلون في أمور وطنية شتى.

***

تركنا بُرقة عند اقتراب الغسق، كان الجو جميلاً ونديا. اجتاز أحمد بسيارته خلال وقت قصير أراضي بُرقة العلوية ذات المسطحات المتدرجة المزروعة بأنواع كثيرة من الأشجار المثمرة.. كانت وجهتنا نابلس لزيارة ابن عمي الدكتور فارس أحد الأطباء المعروفين في المدينة، بقي فيها طوال عمره ولم يرحل عنها، استقبلنا في منزله بناء على موعد حددته معه عبر الهاتف من قبل.

رأيته آخر مرة في عام 1959 عندما سافرتُ إلى يوغوسلافيا لمتابعة دراستي الجامعية. امتزج اللقاء به بعد كل تلك السنين بومضات سعادةٍ خاصة، قابلنا مع رفيقيْ رحلتي بحفاوةٍ بالغة، وجدنا في استقبالنا في منزله بعض أصدقائه، من بينهم قريبي الدكتور أنيس الحجة الذي لم ألتق به من قبل، وكان يعمل وقتئذ نائباً لرئيس سلطة النقد الفلسطينية. كان الجميع في منتهى اللطف، تحدثنا معهم حول مواضيع كثيرة، قلت كلمات عاطفية عن زيارتي لمسقط رأسي حيفا وزيارتي لبُرقة بعد سنوات طويلة.

اجتمعنا كلنا على مائدة العشاء، تواصل الحديث حول المائدة، بعدها انتقلنا إلى غرفة الجلوس ثانية وتواصل الحديث في مواضيع كثيرة، تحدث حافظ طوقان عن مدرسة النجاح في نابلس، كان مرحاً بقدر ما كان بليغاً في حديثه عن أيامه الماضية وعن ذكرياته مع عمه الشاعر إبراهيم طوقان وعبد الله الخطيب وغيرهما من مجايليه.

بعد ذلك تطرق في حديثه إلى العلاقة الفلسطينية المغربية القديمة، كان حديثه موجهاً إلى صديقي المغربي علي بسطوس، قصّ عليه بكثيرٍ من الحماس حيثيات منحة دراسية قدمتها مدرسة النجاح لأربعة طلاب من المغرب في عشرينيات القرن الماضي، عاشوا طوال دراستهم الثانوية في نابلس واستمروا طوال حياتهم بالتواصل مع أهلها، وبين صديقي علي بسطوس عندما تردّدت أسماؤهم بأنهم ملء السمع والبصر في بلده، شخصيات مغربية معروفة في العمل العام.

وهنا لا بد من تنويه بأنّ وجود صديقي علي بيننا في تلك الأمسية أثار اهتمام الحضور للتحدث عن الوجود العربي في فلسطين ؛ لفهم المكان والزمان والناس فيما مضى من أيام، بإيقاعاتها وأحداثها وما فيها من علاقات بين فلسطين وغيرها من الدول العربية الأخرى.

تواصل الحديث وتكاثف بمعلومةٍ من هنا وأخرى من هناك، وتبين من المجرى العام للحديث أنّ نحو عشرة آلاف مغربي عاشوا فيما مضى في حي المغاربة داخل القدس القديمة، وأربعين ألف مغربي عاشوا في أماكن أخرى في فلسطين ساهم أجدادهم في تحرير القدس مع صلاح الدين في القرن الثاني عشر.

وهكذا استُرسل الحديث في منزل ابن عمي إلى ساعة متأخرة من الليل، وفي لحظة قلت له ولأصدقائه إنَّ الوقت قد أزف ولا بدّ لي ولرفيقيّ من الرجوع إلى رام الله. ودعنا الجميع، خرجنا إلى الشارع العام، عدنا ثانية إلى سيارة أحمد واتجه بها إلى رام الله.. كان يسوق بسرعة، وسط ظلام كثيف على طرفي الطريق.

وصلنا رام الله مرهقين بعد يوم حافلٍ بثلاث زيارات طويلة.. عدنا إلى فندق غراند بارك.

عندما استلقيت على السرير لم يداعب النوم جفوني، كنت أسترجع أمام عيني حيثيات شريط اللحظات المؤثرة التي قضيتها في حيفا وبُرقة، بقيت تلك اللحظات ثابتة أمامي، استقرت لدي تحت جفنيّ وأنستني النوم، بقيت جالساً وحدي، أشعر كما لو كنت عائداً من زمنٍ آخر، ومن عالم آخر عشته في حياةٍ أخرى.

(31)

بعد أنْ أنهينا عملنا في رام الله، عاد صديقي علي بسطوس إلى مكان إقامته، وعدت إلى بُرقة ثانية، قضيت فيها أسبوعاً كاملاً في منزل أهلي، تجولت فيها، وجدت أشياءً كثيرة فيها تُنبهني إلى أنّها محطة مهمة في حياتي، وأنَّ ثمة صلةً قوية تربطني بها تنبعث من أزقتها وسهولها وأشجارها المنتشرة في أراضيها، كانت في لحظات تجوالي تستيقظ في ذاكرتي صوراً كثيرة لأناسٍ كنت أراهم أيام طفولتي وسط القرية في ساحة باب الجامع.

كانت تخيلات الوجوه القديمة تغيب شيئاً فشيئاً، ويحل محلها أناس أحياء، ألتقيهم، لا أعرفهم ولا يعرفونني، تحدثت مع بعضهم عن عالم قريتنا المشترك، تذكّرت أجدادهم وآباءَهم. كنت ألاحظ من بعض الوجوه، كيف التواصل الجيني ينسخ معالمها من الأجيال الماضية.

فوجئت أنَّ لبُرقة مدرسة جديدة غير القديمة التي درست فيها، زرت مدرستي القديمة، وقفت مطولاً أمام عقد الصف الأول الابتدائي الذي بدأ فيه وعيي الطفولي بحقائق الحروف والكلمات المكتوبة.. تأكد لي في تلك اللحظات أنَّ ذاكرة الإنسان ليست ملكةً محصورة فيه بل تتعداه، وتتواصل في شريط عمره مع مكونات ٍ كثيرة، تبدأ مع والديه ومدرسته وتتراكم مع اتساع الأمكنة التي يعيش فيها مع تواصل أيامه بأزمنة متعاقبة، بكل ما يعتري الزمان والمكان من تغيرات وتقلبات.

كنت أحدّث قريبتي فاطمة عن سعادتي لزيارة بُرقة واسترجاع أيام صباي، كنت أحاول في حديثي معها أن أعود بالزمن إلى الوراء، وأن أسترجع أحداثاً كثيرة تتعلق بوالديّ وجدتي عائشة وكل الذين عاشوا في أيامهم.

كنت بتخيلي أيامهم أحاول الهروب من واقع الاحتلال البغيض الذي يذكرني أنَّ غالبية أهل بُرقة يعيشون في الشتات، بيوتهم مغلقة مظلمة بعد أنْ كانت هالات نورٍ في سالف الأيام، لا وجود لهم فيها الآن، إنهم مجرد ذكرى، أختزِنهم في ذاكرتي وأحملهم معي في أسفاري المتواصلة.

***

بقائي في بُرقة لمدة أسبوع ساعدني على لقاء كثيرين من أهلي، منهم خالي علي أبو عودة سيف، كان قد تجاوز عمره المئة عام وجدْته فاقد الذاكرة لا يذكر أحداً، والتقيت بابن خالتي حسن إبراهيم، وابن خال والدي لطفي عبد الحميد الناصر وقد ذكرته من قبل. حدثته عن تأثيره عليّ في حب القراءة والكتابة من خلال قراءتي كتبه ومجلاته في فترة مبكرة من حياتي، كررت له في سياق حديثي عدة مرات عن دَينٍ له في عنقي.

حدثته عن اهتمامي بالبحث عن الجذور في فلسطين في سياقٍ شمولي واسع، وبينت له بوضوح أن هذا لا يعني أبداً الخلط المتعمد مع العصبية العشائرية والقبلية المقيتة، كما أنّه لا يجيز التمادي في دخول دائرة واسعة من البحث بعيداً عن المواطنة والهوية والمحددات الزمانية والمكانية للقضية الفلسطينية.

وأضفت مستدركاً أن هدف البحث عن الجذور هو إبقاء الذاكرة الجماعية سياسياً واجتماعياً وثقافياً حية ومتكاملة، بما يساعد على تثبيت الحق الشرعي للفلسطيني في أرضه وموروثات أهله، وجعل الأجيال القادمة أكثر وعياً وانفتاحاً على تفاصيل القضية الفلسطينية، بعيداً عن العشائرية والقبلية والنعرات العرقية والدينية والطائفية.

فاجأني بقوله إنَّ ثمّة مشاهد كثيرة في مجال البحث عن الجذور في فلسطين تبتعد عن هذه القاعدة فكراً ونصاً وأحداثاً، وتؤكد على أهمية ما يمكن تسميته «ثقافة التعصب» تتعالى فيها نغمات نشاز عشائرية وقبلية، وقدم لي أمثلة كثيرة تستعصي على الفهم، تتصل بقطاع عريض من الناس يحملون قناعة تسمح لهم بإرجاع جذورهم إلى قبائل عربية قديمة كقبيلة «عتيبة» على سبيل المثال لا الحصر، يجدون فيها ما يغري لإضافتها لأسمائهم، وتعميم ذلك على عموم أفراد أسرهم، وإنشاء دواوين عشائرية لهم. والأسوأ من هذا وذاك إنشاء مواقع على الإنترنت، وإعداد أشجار نسب عشائرية أيضاً يعممونها بتفاخر واعتزاز.

قاطعته قائلاً: «هذه دعوة غير وطنية».

أجاب في الحال: «نعم بالطبع؛ لأنها مستلهمة من سياسات مارستها السلطات البريطانية في عهد الانتداب، استطاعت بها زعزعة المجتمعات المحلية في القرى والمدن، وإسقاط بعض العوائل في شرك نزاعات وعداوات وحتى حروب مفتعلة، ساهمت في نشر فتن عشائرية مرعبة، أدت إلى إبعاد الناس عن قضيتهم الوطنية المركزية، وها هي الآن تعود الممارسات نفسها من جديد، في زمن الهزيمة والاحتلال، تُحرك الغريزة البدائية للانتماء لعشيرة منسية، بدلاً من التلاحم في مؤسسات المجتمع المدني وتعزيز الانتماء الوطني والهوية الفلسطينية».

***

المُحزن فعلاً أنَّ هذه الظاهرة تنتشر بدون وعي عبر مئات المواقع الإلكترونية التي تبرز كمصادر معلوماتية بجذور عشائرية مشوهة، تُنمي في نفوس الأجيال الصاعدة توجهات سلوكية غريبة عن روح العصر، ولا يقف الأمر هنا عند حدود الدعاية لعشيرة ما، بل يمتد ليشمل بحث موضوع الانتماءات العشائرية والقبلية على مستوى فلسطين كلها، وبخاصة مناقشة الصراع بين العصبيتين القيسية واليمنية (أي عرب الشمال وعرب الجنوب) ودور هذا الصراع في إذكاء روح الفتنة بين الفلسطينيين في العهد العثماني بتشجيع من الدولة العثمانية لتعزيز سلطتها وإشغال الناس عن مقاومة حكمها، كما استخدمته بريطانيا أيضاً أثناء حقبة الانتداب كوسيلة للتفرقة ونشر النزاعات والعداءات بين الفلسطينيين وإبعادهم عن الاندماج الوطني والتصدي للخطط الصهيونية.

ويمكن للقارئ متابعة ما يُكتب في مواقع شبكة الإنترنت عن القيسية واليمنية في نوعين من المصادر، أولهما مصادر عامة تبحث في مجال جذور العصبيات العشائرية، وفي هجرة العشائر المختلفة على هيئة موجات متتابعة لضرورات حربية أو معاشية بسبب الجدب والحرمان، كما تبحث في نزاعات وحروب تلك العشائر وعلاقاتها التقليدية ضمن منظومة من السُنن البدائية، وثانيهما مصادر تعنى بتعريف انتماءات بعض العوائل في كثير من المدن والقرى الفلسطينية على أساس العصبية العشائرية التقليدية: قيس - يمن.

والغريب أنَّ مثل هذه التصنيفات العصبية وجدتها معتمدة في مجال التعريف بعوائل عدة قرى ذكرت في موقع على شبكة الإنترنت خاص بدائرة شؤون المغتربين التابعة لمنظمة التحرير

الفلسطينية، ما يؤكد صحة النتيجة التي توصل لها الدكتور جميل هلال، ومفادها «أنَّ العشائرية والقبلية كانتا من أبرز المؤثرات على النظام السياسي الفلسطيني الذي تشكل بعد أوسلو». وهذا يعكس اهتمامات رئيس السلطة في هذا المجال، حيث منح العشائرية هذا الدور في التأثير من خلال تعيين مستشار له لشؤون العشائر!!!

وهكذا بدلاً من دفع البلاد نحو التلاحم المدني والاندماج الوطني، شجّعت السلطة الوطنية بعث العصبيات العشائرية والقبلية، وأثر هذا التوجه بجلاء على سير الانتخابات النيابية والبلدية في السنوات الأخيرة، حيث راعت بعض الفصائل الفلسطينية الاعتبارات العشائرية لدى تشكيل قوائمها الانتخابية.

وهذا يعني أنَّ مشكلة إثارة العصبيات العشائرية والقبلية لا تعزى فقط لانزلاق مجموعة من الأفراد في تعميق نزعة الانكفاء على الذات البدائية القديمة، بل تعزى أيضاً إلى خلل مبدئي في سياسات السلطة نفسها، نابع من اهتمامها بإعادة تكييف الزمان والمكان وفقاً لمقاييس منظومة قيم تراثية تقليدية عشائرية مصطنعة، على حساب المسألة السياسية الوطنية، وعلى حساب مدنية المجتمع المعاصر الذي تذوب فيه الأصول العشائرية والقبلية والانتماءات الطائفية.

(32)

تكرّرت زياراتي لرام الله، وأتاح لي عملي الوظيفي أن أزورها عشرات المرات حتى بداية عام 2000، حيث كنت أقوم كما بينت آنفاً بتأدية عملي في مجال إعداد الدراسات اللازمة للمشاريع الإنمائية التي تبنتها السلطة الوطنية الفلسطينية، واستجاب لتمويلها الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي الذي أعمل فيه، وأقوم في أوقات الراحة بزيارة حيفا وبُرقة ومدن فلسطينية أخرى.

رافقني في عدة زيارات صديق الطفولة والصبا صخر الخطيب.. في إحدى تلك الزيارات، زُرت معه عكا ذات يوم، التقينا صديقه شفيق ديب، وتعرفنا معاً في تلك الزيارة على الروائي جريس طنّوس، أسعدني التعرف عليه، أنعشني حديثه عما خبأته الأيام في أصدافه من حكايات ممهورة بحب الأرض والتراب، وشعرت أنَّ الشعر والحروف تجمعنا، وأثلج صدري عندما أهداني نسخاً من رواياته وكتبه، أرست بيننا دعائم صداقة لاتزال حتى الآن.

في تلك الزيارة، تعرفت على عكا من جديد، إنها مفتاح فلسطين كما تسمى لموقعها الاستراتيجي على نهاية الرأس الشمالي لخليج عكا، تجولت حول سورها الذي صد نابليون يوماً، وجدت بعض أجزائه قد تهدمت في الجهتين الغربية والشمالية.. تذكرت ظاهر العمر الزيداني الذي أحاط عكا بالسور وبنى عليه أبراجاً عديدة للدفاع عنها وترك فيه بابين فقط، وتذكرت وصف الشاعر الشعبي لسور عكا:

يا سور عكا يا عاليَ البنيان فرْدِ الشتـايرْ ما يصيب عاليهـا

تعرفت على أزقة عكا العتيقة المفروشة بأحجار مربعة جميلة، بديعة تلك الأزقة، مثقلة بحكايا آلاف السنين، رأيت فيها بيوتاً بأحجارها الملساء تبحث عن أهلها، ورأيت لأول مرة مداخل أنفاق قديمة وخانات وكنائس ومساجد وأبراج وفنار. رأيت جامع الجزّار وجامع الزيتونة وكنيسة القديس جورجيوس الأرثوذكسية وخان الشونة وخان العمدان والسوق الأبيض والقصبة وحمام الباشا والقلعة والسراي القديمة.

فيما اقتربنا من مسجد الجزّار تذكرت صديقي نزار سامي نهاد الذي كثيراً ما حدثني عن طفولته في عكا واسترجع معي ذكرياته فيها، حتى إنني حفظت في ذاكرتي ما قاله لي عن محلات والده القريبة من مسجد الجزّار بجانب بوابة عكا القديمة، وما قاله عن جده من أمّه الذي كان مفتياً لعكا.. أردت أن اسأل عن موروث أسرته، دخلت مسجد الجزّار، وجدت في فنائه رجلاً مسناً يجلس على أحد المقاعد، تبادلت معه أطراف الحديث، وعرفت منه أنّه يعرف كل أهل عكا بحكم عمله طوال عمره في المسجد.. سألته عن والد صديقي سامي يوسف نهاد، وقبل أن أنهي عبارتي نهض عن المقعد ببطء، واتجه معي إلى باب المسجد، وأشار لي قائلاً: «هناك على بعد أمتار من هنا محلات الحاج سامي، ها هي قريبة من المسجد ومن سبيل «الطاسات» كانت له محلات ومخازن ملحقة بها كان يتاجر بالأثاث وبمواد وسلع أخرى كثيرة أذكر منها بانيوهات من النوع الفاخر».

بعد ذلك أخبرني أنَّ بيت الحاج سامي موجود في بر عكا بجانب فبركة الشحاط (مصنع الكبريت) القديم، وعندما عبرت عن رغبتي بالتعرف على بر عكا وبيت أهل صديقي، طلب من أحد مساعديه في المسجد مرافقتي إلى تلك المنطقة.

تطلعت إلى ساعتي وقلت إلى رفيقيْ رحلتي صخر وشفيق: «لن أغيب عنكما طويلاً».

اتفقت على اللقاء بهما عند باب المسجد بعد فترة قصيرة من الزمن.

خلال الساعة التالية تعرفت على بيوت عربية كثيرة مهجورة مبنية من الحجر الأبيض المدقوق. تعرفت أثناء تجوالي في بر عكا على بيت أهل صديقي نزار نهاد، وجدته، يتكون من طابقين، الأرضي منهما غير مسكون، والطابق الأوّل مؤجر لعائلة عربية، بموجب إيجار تتقاضاه منها الجهة المسؤولة عن أملاك الغائبين.

شاء حظي أنْ أتعرّف أيضاً على بيت إبراهيم خرّوبي صديق لي يعيش في الولايات المتحدة، يقع بيته على بعد عدة منازل في الشارع المقابل لبيت صديقي نزار، وتعود الذاكرة بإبراهيم دوماً إلى الوراء إلى عكا وأيامها الماضية، تشكل محوراً أساسياً لأحاديثه في منافي الشتات.

عدت مع مرافقيّ إلى مسجد الجزّار، التقيت الحاج فايز الفحام ثانية، قدمت له ولمساعده الشكر على ما قدماه لي من عون للتعرف على أجزاء من عكا كنت أجهلها.

التقيت شفيقاً وصخراً على مقربة من المسجد، اتجهت معهما إلى مطعم عربي مشهور بوجبات السمك، يقع على الشاطئ في محاذاة منطقة عكا القديمة، دخلنا مطعم خريستو، لاحظت فيه وجود عدد كبير من الناس يلتهمون أطباق السمك العكاوية.. اخترنا طاولة على مقربة من البحر، وبمجرد أنْ جلست رأيت الأمواج تأتي من البعيد متتالية برقص متواصل.

سمعت صوتها يتصاعد حولي وهي تصطدم بالسور القريب مني، تتناثر على حجارته، وتعيد اصطدامها به على إيقاع معزوفة دائمة. حبست أنفاسي وواصلت استماعي لصوتها، في وقت كان فيه رذاذ الموج ينساب بطيئاً حولي يتقافز في شدة وغزارة من طاولة إلى أخرى.

بعد أن تناولنا الغداء، أجلت البصر بين صخر وشفيق، وقلت متسائلاً: «ماذا بعد، هل من مكان آخر في عكا لم نزره بعد؟»؟.

رد شفيق متحمساً: «نعم، تكية الزاوية الشاذلية الشهيرة».

غادرنا مطعم خريستو، واتجهنا إلى شارع يمر خلفه بمسار متعرج في عكا القديمة، وقعت عيني فيه على بيوت أثرية كثيرة، وفيما كنا نتجول بين تلك البيوت، وصلنا التكية؛ إنّها زاوية مهمة عالمياً لدراويش الطريقة الشاذلية الصوفية، أسسها الشيخ علي نور الدين اليشرطي الشاذلي، تخيلتها وأنا أتجول فيها بزخمها القديم مفعمة رقصاً وإيقاعاً، وتخيلت محيي الدين بن عربي فيها، يقول لأصحابه: لا تتركوا حجراً ناقصاً في عكا، أبقوا عكا الأثيرة براً وبحراً تتهادى في نشيج الأبدية.

وفيما كنت أتجول في التكية، رأيت عن بعد بناية سجن عكا القديم، كانت أطياف صورته الماضية تتماوج أمامي، تذكرني بيوم الثلاثاء الحمراء 17 حزيران 1930، يوم تنفيذ حكم الإعدام بحق كلٍ

من حجازي وجمجوم والزير، عمّ الحزن أرجاء فلسطين على إعدامهم ونظم إبراهيم طوقان قصيدته المعروفة:

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما

ليس بعد الليل إلا فجر مجدٍ يتسامى

وقال فيهم الشاعر الشعبي نوح إبراهيم قصيدة من أبياتها:

من سجن عكا طلعت جنازي

محمد جمجوم وفؤاد حجازي

جازي عليهم يا ربعي جازي

مندوب السامي وربعو عموما

محمد أولهم ينادي أنا أولكم

خوفي يا ربعي أشرب حسرتكم.

(33)

زياراتي المتكرّرة لرام الله ساعدتني على معرفة مستجدات الأوضاع الفلسطينية عن كثب، على أرض الواقع الملموس بكل تعقيداته وإفرازاته، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، وساعدتني على تحقيق استعادة واعية لمرحلة من أيّامي الماضية بالتعرف على حيفا وبُرقة من جديد، والرجوع إلى أيّام الطفولة والصبا، ونفض عبء السنين عن كاهلي.

بما شاهدته واستمعت إليه وعايشته، اتضح لي إذ ذاك أن نهج السلطة لا يفي بمستحقات النضال الفلسطيني الطويل، ولا يحقق حلم بناء دولة مؤسسات عصرية على أسس ديمقراطية سليمة، يتم فيها فصل السلطات عن بعضها البعض وقيام نظام قضائي عادل يتساوى فيه المواطنون أمام القانون، ويحصلون على الوظائف من خلال التنافس الحر بعيداً عن المحسوبية والمحاصصة والكوتا.

فوجئت على أرض الواقع من عدم وجود مرجعية قيادية واضحة، وعدم وجود مرجعية برنامجية وسياسية وتنظيمية قادرة على بناء دعامات أساسية لبناء دولة حقيقية بعيدة عن الوجاهة والسجاد الأحمر والزخارف المظهرية.

فوجئت بشكل خاص بما يسمى ببروتوكول باريس الاقتصادي، وجدته يربط السلطة بعرى علاقة وثيقة محكمة غير قابلة للانفصال عن الاقتصاد الإسرائيلي، من حيث الاستيراد والتصدير والاعتماد على الأموال الضريبية المسترجعة.

وفوجئت بسلوكيات غير قانونية وغير ديمقراطية بعيدة عن الهمّ الوطني غارقة في تجاوزات ساهمت في بناء جهاز وظيفي كبير من المستشارين والمديرين العامين وكبار الموظفين أرهق ميزانية السلطة بالرواتب العالية والمكافآت، إضافة إلى وجود أعداد كبيرة من كبار الضباط والعقداء في جيش لا وجود له، وتفوق كبير في عدد الوزراء مقارنة بدولٍ لها مكانتها في الأسرة الدولية، مع تفوق ملحوظ على كل دول العالم من حيث مركزية القرار، بعدم الفصل بين رئاسة السلطة والمنظمة ورئاسة عدد كبير من الأجهزة الأمنية وغير الأمنية، وتوقيع رئيس السلطة على كمّ كبير من الأوراق والإجراءات الصغيرة والكبيرة بما فيها التوقيع على شيكات بمبالغ صغيرة من اختصاص صغار الموظفين.

***

زياراتي المتكررة لرام الله ساعدتني أيضاً على التعرف على قرى ومدن لم أزرها من قبل، على اختلاف مواقعها وحمولاتها التاريخية، استحضرت فيها لحظات كاشفة عرفتني بخصوصيات أمكنة متعددة الوجوه والحقائق، مثل: أريحا والخليل وسلفيت وبيت ساحور والطيبة وأبو قش وبير زيت وعصيرة الشمالية وعرابة (جنين) وطولكرم وارتاح وقلنسوة.. تعرفت على بعض أنسبائي من عائلة الناطور، وعلى أشخاص من عائلات أصدقائي: اسماعيل الزبري ومحمد سعادة وعبد الكريم أبوشنب وسمير طهبوب وعبد الله العاروري ومحارب عبد الرحمن.

كما زرت مدناً وقرى أخرى كنت أعرفها من قبل مثل جنين وقرية سيلة الظهر، زرت فيها بيت خال أمّي الشيخ ديب أبو النجي الذي تحدثت عنه آنفاً، وجدت بيته مغلقاً وكان صدى صوته يسمع من زمن آخر استرجعت من خلاله ذكرى أحاديثه القديمة عن ثورة «36» وقائده أبو خالد، زرت عين زكريا التي كان يحدثني عنها، وجدتها جافة لا ماء فيها، وحتى أشجار البوبع القريبة منها التي تخص أهلي وجدت جذورها جافة لا تتدفق العصارة فيها.

توقفت مطولاً في جبع، حاولت فيها إحياء صورة الممرضة عائشة من مستشفى حمزة، صديقة أمي، فتشت عنها، لم أجد لها أثراً، تعرفت على بيت صديقي نعمان غنام، دخلته والتقيت بعض أقربائه، تمكنت من جمع شتات أخبار قديمة تتعلق بعلاقات جدودي بهم منذ وقت طويل.

أضاءت تلك الزيارة جوانب مخفية في جبع تتعلق بفوزي القاوقجي، إذ اختارها مقراً لقيادته في حرب 1948، وكان مقره في بيت جد صديقي نعمان، دخلت البيت الذي تابع منه القاوقجي معاركه الفاشلة، استولى عليه سكون خلف أبواب موصدة ونوافذ محكمة الإغلاق، تذكرت تلك الأيام، كنت مكتئب النفس عندما تذكرت فوزي القاوقجي وغيره من الزعماء والقادة الجهلة الذين ساهموا في ضياع فلسطين. لم يكن بمستوى الدعايات التي كانت تروج له(********).

(34)

بعد أيام قليلة من زيارة عكا قمت بجولة جديدة في إطار زياراتي، كانت وجهتي يافا، اتفقت مع أحمد أبو غربية أنْ يرافقني بسيارته، وهو السائق نفسه الذي رافقني إلى حيفا.

مضينا معاً في سيارته من أمام فندق «غراند بارك»، وسرعان ما ابتعدنا عن وسط رام الله، اخترقنا حيّاً حديثاً يتألف من شوارع فسيحة تقوم على جانبيها بيوت فخمة أغلبها لرجال السلطة، تتصدر واجهاتها الأمامية سيارات من طراز «بي أم دبليو» ومرسيدس.

واصلنا السير خارج المدينة، اتجهنا بعد ذلك إلى الطريق السريع المتّجه إلى يافا، كنا نسير قرب الهضاب والوهاد.. كنت أنظر لها صامتاً.. كانت الأرض الممتدة حولي تذكرني بأيامها الماضية، بتوالي الزمن بفتراته المتعاقبة، الفترة العثمانية، والفترة الانتدابية، حوادث كثيرة تهب خفايا آثارها في كل مكان، مزدحمة كالجذور في الأرض، أنجرف بالتخيّل، أجد فيها أشياءً كثيرة من تلك الأيّام الماضية التي أتحرق إليها، أدور فيها باندفاع في أجواء لا تخوم لها، أعيدها إلى واقعي المعيش، ولا أستطيع الانفكاك منها.

في لحظة كتبت على أوراقي: «كل شيء حولي يوقظ في داخلي رغبات يتعذر تحقيقها، كل ما أراه يتحول إلى ألم، إلى ذكرى مكبلة بأحداث أيام طويلة».

أطلقت زفرة ضيق، وتوقفت عن الكتابة.

في وقت لاحق، تبين لي من يافطة كتبت باللغة العربية، بأنّنا على مقربة من اللد والرملة. طلبت من أحمد أنْ نتوقف في هاتين المدينتين اللتين سقطتا بعد مهزلة الهدنة، تجولنا في شوارعهما القديمة، قرأت أسماء أصحاب محلات عربية مكتوبة على يافطات لاتزال معلقة فوق أبوابها المغلقة.. قرأت اسماً من عائلة شموط على يافطة محل للخضار في سوق اللد، سألت عنه بعد فترة الفنان التشكيلي الراحل إسماعيل شموط، وأخبرني أنه محل خضار لوالده.

بعد ذلك اتجهنا إلى يافا، وصلناها بعد مرورنا دون توقف عبر بيت دجن واليازور، واصل أحمد السير في بطء في شوارعها الداخلية، وسرعان ما توقفنا بين بيوت على مقربة من الشاطئ، أخبرني أنّنا في حي العجمي الشهير.

لم أزُرْ يافا من قبل، تعرفت عليها من كتابات شفيق الحوت وخير الدين أبو الجبين، وأحاديث أصدقاء لي من يافا، منهم: سمير نور والشاعر طارق قديس وأمه سعاد دلل وحَمْوه بطرس حجاره، وعلي حجاج، سمعتهم كثيراً يتحدثون عن مدينتهم.. خصوصاً بطرس «أبو عمر» الذي تعي ذاكرته كثيراً منها؛ لأنّه فارقها يوم النكبة وعمره تسعة عشر عاماً.

تمشيت مع أحمد في عدة شوارع قريبة من وسط المدينة، وفيما كنا نسير في أحد الشوارع وصلنا إلى الكنيسة الأرثوذكسية، التقينا بمحض المصادفة بشخص يخرج منها، اقتربت منه، وسألته: «أريد التعرف على أحد من آل قديس، هل بإمكانك مساعدتي للقاء بأحد منهم».

أجابني: «أجل، أعرف غابي قديس، إنّه صديقي وقد تركته داخل الكنيسة، سوف أناديه إليك».

رجع إلى الكنيسة وبعد عدة دقائق عاد مع صديقه غابي، تعرفت عليه، حدثته عن أقربائه في عمان، وتحدث بحماس عن أسرته، بيَّن لي عدم معرفته بالكثيرين منهم ممن يعيشون في الشتات، أعلمني بأنّه محامٍ ناشط في الدفاع عن المحيط العربي وأنّه من المدافعين عن حرية رفع الأذان في المساجد وقرع الأجراس في الكنائس، لأنّ السلطات الإسرائيلية تسعى إلى منعهما في مدينة يافا.

وجدت متعة بحديثه عن نفسه وأسرته على سجيته، فوجئ عندما علم أنّني لا أعرف يافا.

قلت له: «لا أعرفها إنّها مجرد حلم لي».

رد قائلاً: «سوف أعرّفك عليها ويصبح الحلم واقعاً».

ثم أضاف: «دعنا نبدأ التجوال مشياً على الأقدام».

اقترح أحمد أنْ نبدأ تجوالنا بمنطقة المنشية وبعدها نزور بقية المناطق الأخرى.

هزَّ غابي رأسه موافقاً وقال: «للأسف إنّ المنشية قد هُدمت، ليس فيها الآن سوى مسجد حسن بك، جذر من جذور يافا المهمة».

تمشينا معاً نحو حي المنشية في الجهة الشمالية من يافا، وجدته قد سوّي بالأرض وقامت على أرضه عمارات جديدة ومتنزه، بيوته القديمة لم تعد قائمة لا حياة فيها بما في ذلك بيت صديقي علي حجّاج؛ إنها مجرد بقايا صور قديمة تحفظها الذاكرة.. أسرفت في تذكرها، انتشلت منها في تخيلاتي على حافة شارع أبو الجبين لحظات خاطفة من زمن مضى.

حدثنا غابي بتوسع عن بعض تلك الصور، عن بيوت المنشية القديمة في امتدادات طويلة بأنماطها المختلفة والمتنوعة، وعن شوارعها البراقة وقرقعة عجلات السيارات فوقها، وعن عروق الصيادين النافرة وهم يحملون في المساء أحمال صيدهم.

عرفنا غابي على مسجد حسن بك الذي يعتبر الأثر المعماري العربي الوحيد في حي المنشية، حدثنا عن تاريخه، وعن وقوف أهل يافا صفاً واحداً من أجل بقائه والمحافظة عليه.

بعد ذلك اتجهنا إلى وسط مدينة يافا، إلى ساحة الساعة، عرّفنا غابي على مكان سراي الحكومة والجامع الكبير، ثم واصلنا السير إلى شارع إسكندر عوض وشارع جمال باشا، وشارع النزهة، تعرفنا أثناء تجوالنا على الكنيسة الأرثوذكسية وكنيسة القلعة، والنادي الأرثوذكسي في أوّل الجبلية، كما عرّفنا على أماكن مهمة من يافا القديمة تذكر بمعالم مهمة من معالمها الماضية، كالمدرسة العامرية، وسينما الحمراء، ومقهى الانشراح في طريق المحطة، ومقهى المدفع على ناصية شارع يمتد نحو الميناء، وغيرها من المعالم الأخرى.

شعرت بالحزن لأنَّ يافا الحالية اختزلت في ثلاثة أحياء يسكنها أهلها العرب، حي العجمي المحاذي للبحر، وحي الجبلية جنوب حي العجمي، وحي النزهة عند شارع جمال باشا، وأنّه لا أحد يسكن يافا القديمة، خالية من السكان العرب، يثبتون وجودهم فيها من خلال الكنائس والمساجد، إضافة إلى مسرح السرايا العربي.

تعرفت أثناء تجوالنا في العجمي على بيت صديقي سمير نور بجانب مدرسة حسن عرفه، أكّد لي شقيقه جورج أنّه بجانب المدرسة، كما تعرفت على بيت صديقي بطرس حجارة في الحي نفسه على مقربة من الحاووز، وعلى بيت عائلة صديقي طارق قديس.

كان منظر البحر جميلاً في العجمي، تسمرت في مكاني أتأمله، حدقت مطولاً في الأفق البعيد حيث تلتقي السماء مع الأمواج في رقصة دائمة لا نهاية لها، تذكرت في تلك اللحظة لازمة في كتاب راس روس لخليل السكاكيني الذي كان مقرراً للأول الابتدائي في مدارس فلسطين قبل النكبة:

بحـر يافـا أزرق

سماء يافا زرقاء.

ذكرت هذه اللازمة إلى غابي وأحمد، وأضفت: «السكاكيني على حق، كلماته تعيد إلى قلبي أيّام يافا القديمة، حيث تفتح السماء كواتها فوق بحر يافا مع تباشير كل فجر جديد، توشحه بخيوط من الضوء، وتدب فيه الحياة من جديد».

ابتسم غابي وقال لي: «دعنا نتحدث عن بحر يافا على مقربة منه في مطعم أبو العافية في قلب يافا بين المباني التراثية القديمة، ونواصل حديثنا أثناء تناول الطعام».

استقبلنا استقبالاً احتفالياً من صاحب المطعم.. نادى غابي بكنيته «أبو أنيس»، وبعد قليل أحضرت النادلة عدداً كبيراً من صحون المشهيات، تلتها وجبة شهية من سمك السلطان إبراهيم الشهير.

تحدث غابي أثناء الغداء عن طائفته الأرثوذكسية التي عرفت بمواقفها الوطنية ودفاعها عن عروبة فلسطين، ذكر من التابعين لها ميشيل عيسى الذي قاد مجموعة من المتطوعين العرب للدفاع عن يافا، كان بينهم وحدة استثنائية مكونة من 50 مسلماً من البوسنة، وبيَّن في سياق حديثه أنَّ التظاهرات في يافا كانت تبدأ دوما من المدرسة العامرية في النزهة، ومن المدرسة الأرثوذكسية في أول شارع البطمية، كان يقودها أحمد أبو طه وشفيق الحوت وإبراهيم أبو لغد، وكانت توجه شعاراتها ضد الإنجليز والصهيونية، وتتركز أناشيدها في نشيد حماة الديار ونشيد موطني.

انتقل غابي في حديثه بعد ذلك إلى النادي الأرثوذكسي، بيَّن أنّه كان في أوّل الجبلية مركزا مهما للأنشطة الثقافية والاجتماعية والرياضية، وملتقى كبار الكتاب والشعراء والمثقفين في الوطن العربي، استضاف في أيّامه الماضية عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني وأحمد زكي وميخائيل نعيمة والشاعر محمد مهدي الجواهري وغيرهم، وكان فيه مكتبة ضخمة لأسطوانات الموسيقى الكلاسيكية الغربية، كما كان لديه أيضاً قاعة كبيرة للعب البلياردو.

توقف عن الحديث برهة، كأنه يسعى إلى التنفس، ثم استطرد قائلاً: «كل أهل يافا يذكرون قصيدة الجواهري «يافا الجميلة» التي نظمها في إحدى زياراته ليافا، ومن أبياتها:

بـ «يافا» يوم حطَّ بها الركابُ تمطر عارضٌ ودجا سحابُ

ولفَّ الغادة الحسناءَ ليلٌ مريبُ الخطوِ ليسَ به شِهابُ

وأوسعها الرذاذُ السَحُ لثماً ففيها من تحرُّشِه اضطرابُ

«وبياراتها» ضربت نطاقاً يُخطِطُها كما رسم الكتابُ

فقلتُ وقد أخذتُ بسحر يافا وأترابٌ ليافا تُستطابُ

«فلسطين» ونعم الأُمُّ هذي   بناتك كُلها خوذٌ كعابُ

تدخلت قائلاً: «أخبرني صديقي بطرس حجارة (أبو عمر) أنَّ نشيد النادي وضعه أحد شيوخ الأزهر المعروفين وفاجأني بأنّه يحفظه عن ظهر قلب».

أجاب غابي: «نعم فضيلة الشيخ سليمان التاجي الفاروقي(********)، وأنا أحفظ نشيده عن ظهر قلب».

أخذ يردده بصوت عال:

لا تهن يا وطـنُ سوف يصفوالزمنُ ضامنُ النّصر لنا هممٌ لا تهنُ

وشبابٌ حين تحمرُ المآقي خشنُ   وسيوفٌ قُضبٌ ورماحٌ لدُنُ

ونفوسٌ عن فلسطين لا تمتهنُ   يا فلسطينُ لك الأرواحُ قلّ الثمنُ

نحن مهما اختلف الدينُ بنا والسننُ أخوةٌ يجمعنا بالله هذا الوطنُ

بعد ذلك استوضحته عن النشاط الرياضي للنادي الأرثوذكسي.

تهلل وجهه وقال: «كان من أهم الأندية الفلسطينية في مختلف الأنشطة الرياضية وبخاصة كرة القدم والكرة الطائرة وكرة السلّة والبنغ بنغ، ومن أهم اللاعبين في كرة القدم لاعب الهجوم ميشيل بطشون، ولاعب قلب الدفاع سليم أبو خضر ولاعب الوسط أنطون نور ولاعب الدفاع عبد الله دحدح».

أعربت له عن إدراكي لهذه الحقائق الرياضية، وأخبرته أنني سمعت بهذه الأسماء من قبل، حدثني عنها سمير وجورج وعايدة نور أصدقائي وجيراني في مدينة مونتريال الكندية، لاعب كرة القدم الشهير أنطون نور هو شقيقهم الأكبر يعيش أيضاً حتى الآن في مونتريال لكنه مصاب بمرض الزهايمر، لا يعي شيئاً عن نفسه وسابق أيّامه ونجوميته كلاعب كرة قدم في يافا.

طال الحديث مع غابي، كنت أُصغي إليه باهتمام، وتجتاحني في الوقت نفسه تخيلات كثيرة، أعيد فيها تغيير حي العجمي على هواي، أرجعه إلى وضعه القديم كما كان في سالف الأيام، يملأه أهل يافا حركة وكلاماً، غادين ورائحين فيه في كل الاتجاهات، إلى بيوتهم القديمة، وإلى البحر الذي يتماوج على مقربة من بيوتهم.

بينما كنت منشغلاً في تخيلاتي، كانت الشمس المتوهجة توشك على الانطفاء مع اقتراب الليل، كانت إشارات الليل الأولى تخيم شيئاً فشيئاً فوق البحر.

تطلعت في ساعتي، لم يطل بي الأمر لأدرك أنَّ الوقت قد أزف ولا بد من الرجوع إلى رام الله.

شكرت غابي على حسن ضيافته وعلى معلوماته القيمة، مضينا معه من أمام المطعم، عدنا إدراجنا إلى السيارة على مقربة من الكنيسة الأرثوذكسية.

ودعناه، لوحت له بيدي بينما كان أحمد يقود سيارته إلى الطريق السريع خارج يافا.

في تلك اللحظة كنت صامتاً أردد في داخلي كلمات من أغنية شعبية قديمة:

عَ باب يافا حنحنت لجراس

مراكب وارخى لها المراسي

***

بعد عدة سنوات، في وقت كنت أضع فيه لمساتي الأخيرة على هذا الكتاب، اتصل بي صديقي الشاعر طارق قديس من عمان، أخبرني أن مجرماً أقدم علناً على قتل قريبه غابي طعناً بالسكين خلال احتفال عيد الميلاد المجيد للروم الأرثوذكس في 7 كانون ثاني 2012، باغته من الخلف متنكراً بلباس «بابا نويل» وطعنه أكثر من مرة في ظهره.

اغتيل بعد أن شارك في صباح اليوم نفسه في تظاهرات المسلمين ضد منع الأذان في مساجد يافا.

حزنت كثيراً على أبي أنيس، تذكرت لقائي به قبل سنوات، برق في خاطري حديثه عن يافا ومقدساتها وهويتها العربية، كنت أريد أن أقابله ثانية لأوصل الخيوط بيننا من جديد، وأسمع منه الكثير عن جذور يافا المشتركة فيما بيننا، خصوصاً بعد أن اتسع مدى نشاطه كشخصية وطنية بارزة ورئيس للجمعية الخيرية الأرثوذكسية، وزاد تأثيره في المحافظة على هوية يافا العربية والدفاع عن مقدساتها وأراضيها وأوقافها.

(35)

في إحدى زياراتي لرام الله التقيت بالمرحوم الدكتور إبراهيم أبو لغد، تحدثت معه عن الموروث الثقافي الفلسطيني، خصوصاً غير المنقول منه مثل المباني والبيوت الأثرية التاريخية، وأهمية توثيقه في كل المجالات، وأعلمني عن وجود مركز أهلي فلسطيني في رام الله باسم «رواق» يشمل برنامج عمله «إعداد السجل الوطني للمباني والمراكز التاريخية في المدن والقرى الفلسطينية، بهدف توعية المجتمع الحالي بأهمية الموروث الثقافي المعماري الذي يشكل جزءاً من الهوية الحضارية للشعب الفلسطيني».

وهكذا بالمصادفة اقتربت من نماذج معمارية مميزة من الموروث المعماري الفلسطيني وُثِقت في كتب كثيرة صادرة عن مركز «رواق» (ومعروضة في موقعه على شبكة الانترنت)، وتلى هذا مصادفة طيبة عرفتني على كتاب للدكتورة سعاد العامري(********) أصدرته ضمن منشورات مركز رواق بعنوان «عمارة قرى الكراسي في تاريخ الإقطاع في ريف فلسطين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر»، ركزت فيه المؤلفة على إحدى عشرة قرية منها قريتي بُرقة، اختارت بيتاً من كل قرية، عرفته بدراسة تحليلية كثيفة في فصول متتالية من الناحيتين الهندسية والتاريخية، وتحدثت على امتداد فصل كامل من الكتاب عن أدق تفاصيل بيت عائلتي «آل مسعود» الذي بدأ تشييده جدي الأكبر مسعود وأكمله حفيده فارس في عام 1863، تدفقت معلوماته موثقة ومزدانة بالصور، واختارت المؤلفة صورة له ثبتتها على غلاف الكتاب.

انفعلتُ انفعالاً شديداً لما ذُكر في الكتاب عن بيت عائلتي وساكنيه، سيطرت وجوه أهلي على تفكيري لأيام كثيرة، وحلق الخيال في أجواء عالية من المشاعر المتأججة حول أيامهم الماضية، رأيتهم، ألتقط تقاطيع وجوههم، وفضاءات أتلام أرضهم، واتسعت في عيني بيادرهم المضفّرة بسنابل القمح، ومعاصرهم المليئة بالزيت والزيتون.

قرأت قولاً رائعاًفيما مضى للفنانة النرويجية ليف أولمن تقول فيه «حيثما يضربُ المرء جذوراً تنبعث من أفضل ذاتٍ لديه وأصدقها سوف يجد دائماً بيتاً». وأعترف أن أول جذر أردت البحث عنه هو بيت عائلتي الكبير في بُرقة، ازدادت علامات الاهتمام لدي مع مرور الأيام لمعرفة حيثياته، وكذلك حيثيات محطة سكة حديد «المسعودية» التي أقيمت إبان الحكم العثماني على أرض جدي الأكبر. أردت البحث في الجذور التاريخية لهذين المعلمين من أجل توثيق جزء من موروث عائلتي الشرعي في وطني، لتجديد حاضر الاغتراب البغيض بمرآة واسعة يتداخل فيها الزمن الماضي بخيوط أحلام تعكس لأبنائي وأحفادي الوجه الحقيقي لامتداد جذوري عميقاً في فلسطين.

كانت يقظتي على تكوينات الوطن مبكرة في حيفا قبل النكبة، كنت أسمع والدي وأعمامي يتحدثون عن بيت العائلة الكبير في بُرقة، كونتْ عندي هذه الأحاديث الوعي الأول على بيت كبير يعج بالحياة ويسكنه عدد كبير من أبناء العمومة، كما اكتشفت من أحاديثهم خصوصية محطة سكة حديد «المسعودية» بهوائها وترابها وحجارتها.

خلال سنوات كثيرة طالت واستطالت لم أتمكن فيها من الحصول على أية معلومات مدوّنة وموثقة عن بيت عائلتي ومحطة سكة حديد «المسعودية»، واستمرت رحلة البحث وكأنما لم تبدأ قط، بمعنى كنت أحس دوماً كلما أكتب شيئاً في هذا السياق أرميه وأبدأ ثانية من جديد.

لهذا كنت سعيداً بكتاب الدكتورة سعاد العامري، وجدت فيه ضالتي، والإجابة على تساؤلاتي. وبعد مضي خمس سنوات على معرفتي الإجابة اللازمة حول بيت عائلتي، حصلت على الإجابة التي تلزمني عن محطة «المسعودية»، فقد أرسلت لي الباحثة التركية «اسراء ستراتورن» نسخةً من المعلومات المدونة عن محطة سكة حديد «المسعودية» المحفوظة في مركز الارشيف العثماني، وكنت قد تعرفت عليها في مر كز ثقافي معروف على ضفاف البوسفور أثناء زيارتي إسطنبول مع زوجتي قبل عدة سنوات، حدثتني عن سيلٍ دافق من المعلومات الموثقة عن فلسطين في مركز الأرشيف العثماني الموجود في حي السلطان أحمد، وسرعان ما وجدتني أطلب منها تزويدي بما يتوافر فيه من معلومات تجدها موثقة عن محطة سكة حديد «المسعودية»، وافقت على طلبي وأوفت بوعدها بعد مدة، وتأكدت من المعلومات التي أرسلتها مكانة المحطة عند إنشائها وأنها سُميت نسبة للمنطقة التي امتلكها جدي في زمن مضى.

كثيرون ذكروا محطة «المسعودية» في كتاباتهم، وأفضل مَنْ كتب عنها الكاتب الفلسطيني سلمان ناطور، في صفحة 252 من كتابه بعنوان «ستون عاماً رحلة الصحراء: ذاكرة.. سفر على سفر.. انتظار».. تذكّرت أيام المسعودية المفرحة والجميلة عندما قرأت ما كتبه عنها.. استحضرت أصولها المعمارية القديمة متوجة بعقود حجرية ونوافذ بأشكالٍ هندسية بديعة. تذكرت صوراً لها كثيرة لاتزال تفاصيلها عالقة في ذهني ووجداني، يعلو فيها صوت صفير القطارات عند اقترابها من المحطة، واصلت اقتفاء آثارها.. ازدادت حراكاً في مزيد من مشاهد صور أخرى تفعمني بصفو الطفولة بعيداً عن مرارة الغربة.

أعيد هنا كتابة ما ذكره المؤلف سلمان ناطور عن المحطة بكلماته المعبّرة: «بقايا محطة المسعودية، الخطوط الحديدية ممتدة على الأرض في انتظار أنْ يعود زمان الوصل وأنْ تعود البلاد إلى تاريخها، محطة مركزية يلتقي فيها الشرق بالغرب والجنوب بالشمال، محطة العرب المركزية على الطريق من حيفا إلى القاهرة».

بحثي في الجذور لا يقف عند موروثي الشخصي، بل أخرج عليه، لاكتشاف صورٍ لها علاقةٌ بأُسر أخرى من قريتي بُرقة وغيرها من قرى ومدن أخرى، لاستيحاء الدروس والعبر الكثيرة من كوامنها للأجيال القادمة.

أذكر هذه الأمثلة عن جذور أسرتي التي تنثال صورها بوعي وعفوية في سطوري عن بيت جدي ومحطة «المسعودية»، ليس لأبناء جيلي المثخن بجراح الهزائم والشّتات والكآبات والأحلام المختنقة، بل لأبناء جيل حفيدي «ليث» لإيقاظ طفولتهم على إشارات دالة ومؤثرة تعرفهم على جذورهم، وتنحت لهم في الذاكرة علاقة دائمة مع فلسطين، بقراها ومدنها، وترابها ورجالها وأوجاعها، تلاصقهم في نوازعهم وأمزجتهم وميولهم وطريقة تفكيرهم، وتمنحهم في غربتهم رؤية حقيقية عن وطنهم، تحضُّهم دوماً على استرداد حقوقهم الضائعة، والرجوع إلى أرضهم رافعين فيها راية العزة.

(36)

حاولت بالكتابة شعراً ونثراً على صفحات الجرائد أن أكون قريباً من الوطن، ومن حيفا وبُرقة، كتبت برغبة محمومة عن الهزائم والشتات والنكسات، وعن جذوري وجذور غيري من المعارف والأصدقاء، حاولت بما أكتبه أن أكون شاهداً صادقاً على تفاصيل أحداث أيام عشتها في وطني وفي منافي الشّتات.

نشرت مقالاتٍ كثيرة في صحف عربية وكندية، وفي ذات يوم قررت أن أكتب في جريدة الاتحاد الحيفاوية، أول ما كتبت فيها قصيدة أسجل هنا بعض ما جاء فيها:

سيدتي

ارسُميني

على شاطئ

حيفا

راكعا ًعلى رَمله ِ

املأي عَينيَ بهِ..

دَبقي نسائِمَهُ

في عُروقي..

وَشِّحيني

بقُمبازٍ

زُرقتُهُ زاهيه.

..

لا تكتبُي اسماً

لرَسمي..

اسمي ضاع َمني

في دُروبِ شِتاتي الدامية.

اكتبُي:

هذا عاشقُ

حَيفا

بملءِ العينِ

يحملهُا ويَخفيها..

لم يغِبْ عَنها

ما زال فيها

جذراً في

روابيها.

..

بعد ذلك نشرت عدة مقالاتٍ بعناوين: في ذكرى رحيل الطيب صالح. فارس القوافي وداعاً (بمناسبة رحيل الشاعر محمود درويش). كندا تعتذر للسكان الأصليين من يعتذر للشعب الفلسطيني؟، حول أهمية التاريخ الشفوي الفلسطيني، وهج الذاكرة ستون عاماً على النكبة الفلسطينية، امرأة الرسالة لمسات على أوتار الوطن.

ونشرت على صفحات الاتحاد مقالة َب تاريخ 17 تموز 2009 بعنوان «البحث عن الجذور» بيّنت فيها اهتمامي بالبحث عن الجذور في فلسطين ما قبل النكبة، ليس من أجل البكاء على الأطلال، بل من أجل استحضار لمحاتٍ من حياة أهلنا الماضية بمختلف مشاهدهاوأحداثها وأوجاعها ومآثرها التراثية والعمرانية، بهدف توثيقها وتسجيل صفحات من التاريخ الشفوي بصوت عالٍ ومزيد من الأقوال والتفاصيل.

كل هذا من أجلالتأكيد على دلالات انتماء الآباء والأجداد للأرض الفلسطينية، ومعرفة القرى والمدن والحواكير والأشجار والبيوت وحتى أتلام الأرض وأمواج البحر موجة موجة، وهكذا نكتب تاريخنا الحقيقي ونضفي على حقنا بأرضنا وأملاكنا ومكتسباتنا طابعاً توثيقياً يخفف عنا منغصات هزائمنا وارتحالاتنا الدائمة.

عرفت القارئ بانتمائي لحيفا كمسقط رأس لي تعرفت فيها على الحياة، وأنني في سن العاشرة دخلت مرحلة َتَلقي واقع الاغتراب والنفي، هاجرت منها قسراً في يوم سقوطها، ولجأت مع أسرتي إلى بُرقة.. تحجرت أحلامي وقتذاك وتراكمت في نفسي حالة وجدانية مؤثرة من مآسي الهزيمة، ترسخت في ظل غربةٍ باكرةٍ لصبي صغير.

وبيّنت للقارئ أنَّ مرارة الغربة تُرجعني دوماً إلى أيام مضت لا يطويها النسيان، أتحسس فيها وميض ضوء أراه يحبو على أمواج بحر حيفا، ينفضُ عن كاهلي عبء السنين، يعيدني ثانية إلى حيفا عبر حروف أنشرها في جريدة الاتحاد الحيفاوية، أمدّ بها خيطاً من التواصل مع أيام مزهرة مضت في طفولتي الباكرة، لاتزال تفاصيل صُورها باقية في نفسي حتى الآن، لن تختفي، ستبقى دائماً جوهراً ثابتاً للروح حتى آخر لحظةٍ في الحياة.

اتسعت الذاكرة في مقالتي عن الجذور، تطايرت منها أنقاض أيّام مضت عشتها مع أهلي في حيفا وبُرقة، نقاط وفواصل كثيرة شكلت بها بعفوية ومضات صور عن عروق جذوري بين قرامي الزيتون في أتلامٍ تمتد طويلاً طويلاً عبر السنين، بينت فيها مشاهد كثيرة متشابكة تتصل بجدي وأهلي وموروث عائلتي في بلدي، أردت بها استبدال حاضر الاغتراب البغيض بمرآة واسعة يتداخل فيها الزمن الماضي بخيوط أحلام تعكس الوجه الحقيقي لامتداد جذوري عميقاً في فلسطين.

وبينت في نهاية مقالي أنني أذكر أمثلتي عن الجذور التي تنثال صورها بوعي وعفوية في سطوري، ليس لأبناء جيلي المثخن بجراح الهزائم والشتات والكآبات والأحلام المختنقة، بل لأبناء جيل حفيدي ليث لإيقاظ طفولتهم على إشارات دالة ومؤثرة تعرفهم على جذورهم، وتنحت لهم في الذاكرة علاقة دائمة مع فلسطين، بقراها ومدنها، وترابها ورجالها وأوجاعها، تلاصقهم في نوازعهم وأمزجتهم وميولهم وطريقة تفكيرهم، وتمنحهم في غربتهم رؤية حقيقية عن وطنهم، تحضُّهم دوماً على استرداد حقوقهم الضائعة، والرجوع إلى أرضهم رافعين فيها راية العزة.

أحسست بما يكفي من الارتياح لأنني نشرت المقالة على صفحات الاتحاد الحيفاوية، لأنها تستثير حنيني إلى تلك الفترة من الطفولة الهنيئة التي عشتها مع أهلي في حيفا، وهي الجريدة نفسها التي كان والدي يتابع قراءتها في أربعينيات القرن الماضي ويتماهى بأفكارها، وكثيراً ما كنت أتصفحها بدون قراءة أيّ حرف فيها في مرحلة مبكرة عندما كنت صبياً صغيراً، أذكر تماماً تلك اللحظات الخاطفة كما لو أنها كانت بالأمس.

***

بعد عدة أيّام من نشر المقالة، وفيما كنت أتصفح بريدي الإلكتروني، عثرت على رسالة من سيدة لم أسمع باسمها من قبل، عَرفت نفسها باسم منى دراوشة من بلدة إكسال قرب الناصرة، استهلت رسالتها بعبارات مفادها أنَّ أختها الكبرى حسناء قرأت مقالتي المنشورة في الاتحاد، واكتشفت منها أني أمتُّ بصلة قربى مع جدتها «نجّية».

بيّنت لي بوضوح في رسالتها أن أخوال جدتها يحملون اسم عائلتي، وذَكرت أدلة كثيرة بينها أسماءٌ لبعض أعمامي أثبتت لي بها بدقة حقيقة تلك القرابة، وبينت لي أيضاً أنَّ جدتها برقاوية في الأصل تزوجت جدها راغب شلبي، خلفت منه أولاداً وبناتٍ وعاشت معه طوال عمرها في إكسال، وأنَّ النكبة أبعدتها عن أهلها في بُرقة، وبقيت حتى مماتها في شوق للقائهم، وكانت دوماً تكثر من ذكرهم في أحاديثها.

داهمتني في تلك اللحظة أطيافُ وجوهٍ من أقاربي تراكمت في ذهني، تصفحتها مرات ومرات بسرعة متناهية، تذكرت انطباعات بصرية أغرقتني في أحلام اليقظة، وجدت فيها وجه قريبتي «نجية» تذكرت آخر مرة رأيتها فيها في حيفا قبل سقوطها بوقت قصير، أحيا ذكرها في نفسي أقرباء لي من بُرقة كانوا يعيشون في حيفا، منهم أخوها نجيب الذي كان يسكن على مقربة منا وكانت زوجته عريفة صديقة أمّي وهي من إكسال أصلاً، وابنه محمد من أصدقائي، وقد هاجروا معنا إلى بُرقة بعد النكبة.

راجعت كل ما يمكن مراجعته في ذاكرتي، وضعت وجه قريبتي تحت منظار الفحص كثيراً، وجدت أنَّ التواصل معها قد توقف قبل سقوط حيفا بشهور قليلة.. تذكرت أصداء كلمات سمعتها عنها من والديّ بعد النكبة، وها أنا الآن بعد أكثر من ستين عاماً تتعرف عليَّ حفيدتها مصادفة، وأبدأ بمدِ خيوطٍ من التواصل مع نسلها. أحسست وسط هذه المستجدات بسرور عارمٍ أنعشني في بلاد الشّتات البعيدة، في كندا على تخوم آخر أطراف المعمورة.

وأحسست في الوقت نفسه باضطراب شديد لأنَّ «التغريبة الفلسطينية» ساهمت في ضياع الجذور، الحياة فيها تسير في عجل، وكثيرون من أبناء ما بعد النكبة لا يعرفون ما خبأه الماضي من جذورهم، والخطر هنا لا يقف عند حدود ضياع الذاكرة الفردية فحسب بل يتعداها إلى ضياع

الذاكرة الجمعية، وتحويل الأجيال الفلسطينية المتلاحقة في منافي الشتات إلى شيء مجهول خطير لا يعرفون فيه ماضيهم وأهلهم وناسهم، ما يعني ضرورة التعرف بوعيٍ على الذات والآخر والبحث عن الجذور، وتدوين كل ما للوطن من إرث جذور متراكمة لتبقى محفوظة في مجرى الأيّام، حتى لا تُنسى، وحتى تذكرها الأجيال القادمة، وتحيي فيهم وعياً دائماً للحفاظ على ثوابت هويتهم الفلسطينية.

أجبت على الرسالة التي وصلتني برسالة مطولة وجهتها إلى حسناء ومنى دراوشة، عبرت فيها عن سعادتي بالتعرف على نسل قريبتي نجّية التي كنت أراها في طفولتي ولها مكانة في خبايا ذاكرتي، وبينت في سياق رسالتي أن بدء التواصل مع نسل قريبتي نجية يوقظ في داخلي ضجيج ذكرياتي في حيفا وبُرقة، ويرفع من آماد خيالاتي لأحلّق أبعد وأبعد في بلادي، وأفتح فيها آفاقاً واسعة للبحث عن الجذور لي ولغيري في كل مكان، بما يساعد على تشكيل الذاكرة الجمعية الغائرة في عمق الزمان والمكان كالشجرة الظليلة في تشكيل الهوية والانتساب إلى الوطن.

(37)

تملّكتني رغبة للتعرف على أقربائي الجدد في إكسال، وعقدت العزم على زيارتهم والتعرف عليهم في بيوتهم، لكي أعاين بعض أطراف جذوري في فلسطين، وهذه الرغبة ليست مشتقة من غمغمات تبجحات مباهاةٍ ذاتية، إنها تتعدى حدود الذات، وتعبر عن إرادة حقيقية للمحافظة على الجذور والهوية وإرث الوطن بكل ما فيه من تراب وأصول وانتماءات تحمل لنا عبق أزمنة غابرة ؛ إرادة تغريني وتتوالد ذاتياً معي بسبر الذات في منافي الشتات.

وعندما حان الوقت لزيارة إكسال، شعرت بحاجة ماسة لصديق يرافقني، وامتزجت في ذهني أسماء عدة من الأصدقاء ممن يعيشون في الأراضي الفلسطينية المحتلة، ويمكنهم التنقل داخل الخط الأخضر، وسرعان ما قررت مفاتحة صديقي إسكندر النجار بأمر زيارتي، أخبرته عبر الهاتف عن رغبتي بزيارته في القدس حيث يقيم، ودعوته للمضي معي بعد ذلك في رحلة لزيارة أقربائي الجدد في إكسال. كان ردّه إيجابياً، ورحّب بزيارتي له أيما ترحيب.

بعد بضعة أيام وصلت القدس والتقيت بصديقي إسكندر في منزله، آه يا قارئي أيُّ كلامٍ عن القدس يظل عاجزاً عن الإحاطة بسحرها، إنها زهرة المدائن، التي تشكل جزءاً من جنة الغيب، يتجسد الزمن بها، وفي كلّ ما فيها، يتقلب على أبوابها، ويحبو على سورها ومآذنها وكنائسها وحواريها بتشكيلات تتصاعد للأعلى بامتدادات الكون.

كلما آتي للقدس تلاحقني أطياف التاريخ، تتسع فائضة في المدى، أترك عند مدخلها الدنيا خلفي، أعبرها وأطوف حول أبوابها باباً باباً، أحدث حجارة بيوتها العتيقة، أغفو تحت ظلالها وأفيق على آذان مآذنها وأجراس كنائسها، وأحصل فيها على حالة تكونٍ جديدة.

كررت على صديقي إسكندر أكثر من مرة قائلاً له، إنه يكتنز السعادة كلها لعيشه في القدس في بيت أهله الذي ولد فيه، وعبرت له مراراً عن فرحي لأنه حقق حلم حياته بالرجوع إلى مصدر جذوره بعد أربعة عقود من الترحال في عدد من الدول العربية والأجنبية، وتمكن بهذا من تبديل مساراته والبدء بحياة جديدة كأستاذ في جامعة القدس يكحل عينيه بزهرة المدائن صباحاً ومساءً، ويتغلغل فيها جذراً صلداً عميقاً.

كلما كنت أصغي له وهو يحدثني عن حياته في القدس، أزداد فرحاً، وأرى التاريخ في أحاديثه يجر فصوله فصلاً فصلاً، لا يحس بها إلا من يعيش عباب معاناة القدس.. قرأ لي ما كتب عنها من شعر ونثر لا يتسع إلا لها، يعلو منها صوت صلاة لا تعرف الانتهاء، يشكو فيها من عدم اهتمام العرب بالقدس التي يجري فيها التهويد على قدم وساق، كلّ ما فيها مهان: الإنسان والأديان، وفي كل يوم يزداد فيها مدى حفر الأنفاق وهدم المنازل ومحاصرتها بالبؤر الاستيطانية.

تعرفت على القدس مبكراً في سنيّ حياتي الأولى، وانقضى زمن وأنا في بعد عنها، لكنها معي أنّى ذهبت أحملها مع حيفا وبُرقة فوق رفوف الوعي فيما يشبه أحلام اليقظة، أعيش مشاهد الذكريات فيها بشكلٍ دائم، وأتواصل معها بخيط أثيري، طرفه الأوّل يترامى فيها يلاصق أبواب أسوارها، والطرف الآخر معي مدبقاً في أعماق قلبي، أتابع أخبارها وأقرأ كل شيء يُكتب عنها.

ها أنذا فيها الآن أستنشق هواءها النقي، في أول يوم لي فيها، طلبت من صديقي إسكندر أن نتجول معاً في أزقة القدس العتيقة.

توجهنا من منزله في وادي الجوز إلى شارع ابن خلدون في الحي نفسه، توقفنا لحظاتٍ في الجهة المقابلة للمدرسة المأمونية على مقربة من بيت أسرة صديقي وجدي المصري، تبينته من خريطة رسمها لي من قبل.. بعد ذلك اتجهنا إلى شارع صلاح الدين، أهمّ شارع في القدس الشرقية خارج الأسوار، سرنا فيه وبعد عدة تقاطعات انحرفنا يساراً في شارع جانبي، وسرعان ما كنا نعبر شارع السلطان سليمان القانوني، توقفنا عند إشارة مرور مقابلة لباب العامود، واصلنا السير بعض الشيء، ثم اتجهنا يساراً نحو الجهة المقابلة، نزلنا الدرج الموصل إلى باب العامود (باب دمشق) أكبر باب في سور القدس الشمالي، وأهمّ مداخلها الرئيسة لدخول القدس القديمة.

دخلنا من باب كبير منفرج يؤدي إلى داخل السور، مشينا بعده في طريق يُفضي إلى مركز المدينة القديمة عبر طرقات عديدة، تغيرت صورة المكان في الداخل، حيث يكثر الباعة المتجوّلون، وتعلو الأصوات المختلطة بأصوات أغانٍ تخرج بصوت عالٍ من بعض المحلات التجارية الصغيرة المنتشرة في كل الجهات؛ ويكثر المارة الذين يعبرون في بساطة وسط عربات الباعة، وتكثر البسطات الشعبية التقليدية لبيع الكعك الذي تشتهر به القدس، كعك بسمسم يؤكل مع الفلافل والبيض المشوي بالفرن.

اجتزنا المنطقة المكتظة، وصلنا بعد نحو مئة متر من دخول باب العامود إلى طريقين، أولاهما تتجه نحو اليمين إلى سوق باب خان الزيت، وثانيتهما تتجه نحو اليسار إلى طريق الواد فالمسجد الأقصى، انحرفنا نحو اليسار، اخترقنا طريق الواد؛ شارع طويل تكثر على جانبيه محلات تذكارات الأرض المقدسة المليئة بالمشغولات المحلية الخشبية والصدفية، وفيما كنا نجتاز تلك المحلات، توقفنا أمام بناية عند حافة قنطرة تقع مقابل نزل الهوسبيس النمساوي، أمعنت النظر فيها وتأكد لي أنها البناية التي عاش في الطابق الثالث منها صديقي وجاري في مونتريال جورج عزارة الذي أدرك فيها مبكراً حقائق القضية الفلسطينية.. كثيراً ما حدثني عن منزله وعن مدرسة تراسنطة التي درَس وَدَرّس فيها، إنه يعيش على ذكريات أيّامه في القدس في منفاه البعيد.

واصلنا السير، وسرعان ما وصلنا باب القطانين الذي يُفضي إلى المسجد الأقصى والصخرة المشرفة ؛ بقينا في هذا المكان بعض الوقت، طفنا في أرجائه، وزرنا المتحف الإسلامي، غصت فيه في عبق التاريخ وأصالة الماضي القديم، وعجبت لأن اهتمام رجال الدين العرب بهذا المكان المقدس يضيق مع الأيام، إنهم يهتمون كثيراً بتكفير الآخر وإصدار فتاوى مثيرة للجدل لا علاقة لها بصحيح الدين كفتوى إرضاع الكبير وفتوى عدم مصافحة المسيحيين من أبناء الوطن وعدم تهنئتهم بأعيادهم الدينية، في وقت يتخبط فيه الأقصى في خضم أخطار حقيقية أكثر من أي وقت مضى، إنه على وشك الانهيار الفعلي من جراء حفر الأنفاق تحته من كل الجهات.

عدنا أدراجنا من حيث أتينا واتجهنا الى كنيسة القيامة مروراً بسوق خان الزيت أكثر أسواق القدس ازدحاماً، بعد فترة من الوقت صعدنا منه إلى عتبات متدرجة، أدت بنا إلى ممرات ضيقة مليئة بمحلات بيع تذكارات الأرض المقدسة المصنوعة من الصدف وخشب الزيتون، ثم مضينا من أمام مسجد عمر، وبعد أمتار معدودة منه سرعان ما بلغنا كنيسة القيامة، زرتها كثيراً أيام طفولتي

البعيدة، كان والدي بعد تأديته الصلاة في المسجد الأقصى يُحضرني معه هنا، يكرر دوماً لازمةً سمعتها منه مئات المرات مفادها «بلادنا مقدسة علينا التعرف والتنعم بكل جزء مقدس فيها».

غادرنا كنيسة القيامة، مضينا نسير في الطرق نفسها التي جئنا منها، وصلنا إلى مكان يسمى «الدبّاغة» تتوسطه نافورة جميلة أقيمت قبل مئات السنين، لمحت مقهى على مقربة منها، على ناصية شارع صغير مغطى بأقواس حجرية ملفعة بخلود زمني طويل، أثارني المكان وطلبت من صديقي أنْ نجلس في المقهى للراحة بعد ساعات طويلة من التجوال.. جلسنا وطلبنا شايًا ممزوجاً بالميرمية، وسرعان ما وضع صاحب المقهى أمام كل منّا كأساً من الشاي المطلوب.

دار الحديث بيننا حول أمور كثيرة، عُدنا فيها إلى أيّام القدس القديمة، ما قبل النكبة وبعدها، تذكرت إذ ذاك الزعماء القدماء من المجلسيين (من أتباع المفتي) ومن المعارضين من أبناء القدس، الذين انتهى ببعضهم الأمر وأصبحوا موظفين ومترجمين وشبه خدم في السعودية والدول النفطية، يهتمون بجمع المال فقط، نسوا قضيتهم وشعبهم ومواقفهم السياسية القديمة التي ساهمت في النكبة وقضوا على عزّهم وكرامتهم ومقاماتهم العالية، وضيعوا القدس وكلّ فلسطين.

بيّنت لصديقي أنَّ وجودي في القدس هو سبب حديثي عنهم، وأضفت له أيضاً، أنّني في صغري في حيفا سمعت من والدي وأصدقائه الكثير عن تلك الزعامات التقليدية التي أوصلتنا إلى سلسلةٍ طويلة من الهزائم.

خطرت ببالي في تلك اللحظة أبيات شعر لإبراهيم طوقان، نطقتها لصديقي بظلال صوتية حزينة:

يا بائع الأرض لم تحفلْ بعاقبـةٍ ولا تعلمت أنّ الخصم خـداعُ

لقد جنيت على الأحفاد وا لَهَفي وهم عبيد وخـدامٌ وأتبــاعُ

وغرّك الذهب اللمّـاع تُحـرِزهُ   إنّ السرابَ كما تدريه لمّــاعُ

فكّر بموتكَ في أرضٍ نشأت بها واترك لقبرك أرضاً طولها باعُ

كرّرها بانفعال معي.

تناول رشفةً من الشاي، ثم تطرّق في حديثه إلى استعراض أحواله الشخصية الممتزجة بحياة القدس الزاخرة بالأحداث، تتبعت تفاصيلها باهتمام واستوضحت منه بعض جوانب منها.

توقّف عن الحديث لعدة دقائق، وفجأة بادرني متسائلاً عن المركز الكندي لدراسات الشرق الأوسط الذي أسسته في مدينة مونتريال الكندية، كمؤسسة فكرية وبحثية تعنى في تعزيز التنمية الإنسانية العربية، وبخاصة في مجال الحقوق والحريات الإنسانية والديمقراطية وتمكين المرأة العربية، استعرضت له نبذة من إنجازات المركز منذ إنشائه في عام 2006، وأعلمته في سياق حديثي أني أصدرت عنه خمسةَ كتبٍ لي منها: موسوعةٌ اقتصادية من جزأين، وكتاب عن الأزمة المالية العالمية، كما بيّت له أنّه تم - بناءً على اقتراحٍ من أصدقاء لي - تأسيس فرع ثقافي للمركز باسم الصالون الثقافي الأندلسي يُعنى بالأنشطة الثقافية، صدر عنه حتى الآن عشرة كتب في مجالات الشعر والرواية، منها مجموعة شعرية لي باسم «الوجه الآخر للأيّام»، وكتابٌ آخر لي بعنوان

«رؤى وتأملات»، وثلاثة كتب لاثنين من مؤسسي الصالون منها رواية للروائي محمد الأطرش ومجموعة شعرية لطارق قديس أحد أصدقاء الصالون.

استطردت أيضاً في الحديث عن أمورٍ شخصية لي بيّنت له فيها أنّني توقفت عن كتابة المقالات الاقتصادية في جريدة الحياة اللندنية، وأنني أنشر مقالاتي في جريدة المستقبل الكندية ومدونتي الإلكترونية، كما أهتم بين الحين والحين بنشر مقالاتٍ أدبيّة في جريدة الاتحاد الحيفاوية.

وهنا وجدتني أحدّث صديقي بتوسع عن مقالتي «البحث عن الجذور» التي عرفتني على أقربائي الجدد في إكسال، وبينت له صلة قرابتي مع جدتهم، وسعادتي بتعرفي على جزءٍ من جذوري في تلك القرية الجليلية التي لم أزرها من قبل.

في سياق الحديث عن أقربائي الجدد، طلبت منه أنْ يضع خطة لرحلتي معه إلى إكسال، اقترح على أنْ نتجه في اليوم التالي شمالاً باستخدام الطريق الممتدة عبر الأغوار، التي تمر في بيسان وطبريا وصفد، ومن ثم نتجه غرباً نحو قانا الجليل والناصرة.

وافقته على اقتراحه، واجتاحني شعورٌ بالراحة لأنّه لا خبرة لي بهذه الطريق، ولم أزرْ تلك المدن من قبل، وهكذا من خلالها يمكنني التعرف على جذور مدن فلسطينية لم أزرها من قبل.

فيما كنت أسأله عن بعض حيثيات رحلتنا إلى الشمال الفلسطيني، كان الليل يُلقي ظلاله على البلدة القديمة.

ألقى إسكندر نظرة على ساعته، واقترح أنْ نعود إلى منزله.

غادرنا المقهى، مشينا في عدة أسواق أوصلتنا إلى سوق العطارين.. ثم مضينا منه عبر طريق السرايا(********) إلى أن بلغنا شارع الواد ثانية، ومنه استأنفنا السير إلى باب الأسباط، بعدها انحرفنا يساراً إلى المقبرة اليوسفية، حيث رفات عائلة صديقي، ترحمنا على أمواته، ومضينا باتجاه منزله في شارع الأخطل على مقربة من المتحف الفلسطيني (متحف روكفلر).. منزل ينبعث منه هدير أزمنة طويلة، لأنّه من أوائل المنازل التي شيّدت خارج منطقة باب الساهرة في حي وادي الجوز.

(38)

في اليوم التالي، اتصلت هاتفياً بعبد السلام دراوشه زوج قريبتي حسناء، وأخبرته بموعد وصولي إكسال مع صديقي إسكندر، سمعت على الطرف الآخر ترحيباً، أعقبه بتفاصيل أخبرني بها عن كيفية الوصول من الناصرة إلى إكسال، كما حدّد لي بالضبط كل العناوين اللازمة.

بعدها غادرنا القدس نحو الأغوار مروراً بمدينة أريحا، ومن ثم انطلقنا شمالاً، اعتراني إحساس أنّني لم أفارق هذه الأرض يوماً ولو للحظة واحدة في حياتي.. كنت أنظر إلى الحقول الممتدة حولنا على طول الطريق وأتفحّصها عن كثب، تراءى لي أنها أشبه بلوحة فنية في أجمل تجريدها ؛ أبدعتها يد فنان ملهم، مزينة بأجمل الأشجار قاطبة، أشجار الموز والنخيل تتداخل فيها في تركيبٍ جميل وتمازج نادر أبسطة - على اتساع المدى - من الدحنون وشقائق النعمان والأعشاب البرية لم أرَ لاحتشاد الألوان فيها مثيلاً.

قلت لرفيق رحلتي: «إنّها الجنة في أحلى صورها، لا تموت فيها زهور شقائق النعمان بل تواصل الانبعاث دوماً من جديد».

هز رأسه موافقاً، وأردف قائلاً: «بعد قليل سنوغل في المسير وسط تصاوير وتجليات للجنة في مرج بيسان».

ومضات من السعادة تركت بي أثراً كبيراً عندما وصلنا مرج بيسان، وهو المرج الذي يصل غور الأردن بمرج بني عامر، وجدته متشحاً بمزيج من ألوان زاهية منقوشة على الزهور ولباليب أغصان الشجر، تخيلت أهله يتفيأونها في وقت الراحة بعد حرث الأرض وزرع الأتلام تلماً تلماً، ها أنا أعود لجراح الذكرى ثانية، في غمار فيض من الأحزان.

أخيراً أفيق من تخيّلاتي على باب بيسان، ما أجمل هذه اللحظة التي أرى بها أقدم مدن فلسطين التاريخية، نعم إنها الأقدم فقد ظهرت في أقدم العصور، فيها سلسلة من الطبقات الأثرية بلغت حوالى ثماني عشرة طبقة يرجع أقدمها إلى 4000 قبل الميلاد، تحدثت عنها أوراق البردي الفرعونية الخاصة بانتصارات تحتمس الثالث في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وتذكر تلك الأوراق أنها كانت وقتذاك مركزًا إداريًا للأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة عندما خضعت بلاد الشام للسيطرة الفرعونية.

هناك الكثير من الآثار القديمة في بيسان، منها ما يتصل بالحضارة الفرعونية والرومانية والبيزنطية، يرنُّ صوت التاريخ فيها، ويظهر الزمان حولها دون أقنعة في قوالب داكنة من الحجارة، لائحة طويلة ومفصلة من قصص التاريخ اختلطت بها أزمنة بعيدة، ليس بوسعي تقديم شرح دقيق لها، ولا رسم تركيباتها القديمة، وكل الذي أريده الآن هو تحقيق تطلعاتِ أناسٍ كانوا هنا قبل ستة عقود، أريدهم هنا في بيوتهم، يغسلون عيونهم مرة أخرى في ندى بيسان.

لطالما كنت حالمًا، هكذا قلت في داخلي، ثم أضفت، لدي أسباب كثيرة للتشبث بهذا الحلم، ربما لن يتحقق في زمني ولا زمن أولادي، وقد يتحقق في زمن حفيدي «ليث»، لزمت الصمت برهة، ثم

أفقت على صوت إسكندر، وهو يذكرني أنَّ الوقت يمضي بسرعة، ولا بدَّ من الاتجاه إلى مدينة أخرى.

وهذا ما تمّ بالفعل، اتجه بسيارته شمالاً على الطريق نفسها، واصلنا المسير تاركين بيسان سابحة على امتداد الأفق خلفنا، تابعنا الطريق، وصديقي يعلق باهتمامٍ زائد حول المناطق القريبة، وعن أيام كانت حياتنا فيها حقيقية قبل الشتات والضياع.

وفجأة أبهجني قوله بصوت عالٍ: «إننا الآن في الجليل».

ثم أضاف: «انظر إنّنا على مقربة من صفد عاصمة الجليل الأعلى».

أخبرني أن الوضع الطبيعي أن نتجه من بيسان إلى طبريا، لكنّه يفضل الانحراف في طريق جانبي للوصول إلى صفد أولاً.

واصلنا السير في طريق جانبي، وسرعان ما وصلنا صفد بعد فترة وجيزة، اتجهنا نحوها صعوداً إلى أعلى، لأنها تقع على قمةٍ عالية تُطل على بحيرة طبريا ومرج بيسان الواقعين في الجنوب الشرقي منها، وعلى جبل الجرمق الواقع في الشمال الغربي منها وهو من أعلى قمم فلسطين، وقريبة جداً من الحدود اللبنانية.. وصلنا أعلى نقطة فيها، ألقيت نظرة عليها، وجدتها مقامة على عدة تلالٍ محاطة على امتدادها بأنواع كثيرة من الأشجار، بما فيها أشجار الزيتون، وتفصل بينها أودية تتجه نحو الجنوب، والتلة الممتدة جنوب سفح جبل كنعان هي أقدم التلال المعمورة في صفد، ومن قمة هذا الجبل تُشاهدُ بحيرة طبريا بوضوح.

ذكّرتُ إسكندر بأن لصفد شهادة منشأ كنعانية، فقد أسسها الكنعانيون، وسُميت قديماً «صفت» باللغة الآرامية، لغة السيد المسيح، ولهذا تعتبر مدينة أثرية من أقدم مدن فلسطين التاريخية، لاحظت ونحن نتجول فيها مقامات ومزارات وبقايا أبراج وخرائب ومعاصر زيت وأحواض محفورة في الصخر، وسلالم حجرية تتصاعد إلى أعلى على امتداد التلال، كما لاحظت وجود مساجد تحولت إلى استعمالات أخرى من قبل الاحتلال الإسرائيلي، المسجد اليونسي الكبير (جامع السوق) في حارة «الوطاه» تحول إلى معرض للفنون (رسوم وصور)، ومسجد مقام يعقوب تحول إلى كنيس يحمل اسم نوح وحفيده.

بينما كنا نتجول في الجهة الشرقية من المدينة مشينا ببطء على مقربة من مئات البيوت القديمة المبنية من الحجارة الطبيعية البيضاء، تتماثل فيها الجدران والأبواب والمزاريب، وكلّها مهجورة، وقفتُ بين البيوت قليلاً، وخيل لي أن أهلها فيها وأني أسمع أصواتهم، وضعت يدي على باب بيت مهجور تتدلى من سقفه فواجع النكبة، خيّل لي أنَّ صاحبه في داخله، أردت أن أسأله عن بيت صديقي نهاد قدورة الذي يجاورني في منطقة «الويست ماونت» في مونتريال، ويحمل صفد وشماً في عينيه، ويتابع في أحاديثه على مرّ السنين وقع خطوات أهله فيها.. ثمة تخيلات كثيرة راودتني، لم أتمكن من جلو تفاصيلها، لأنّ رفيق رحلتي نبهني ثانية إلى ضرورة مواصلة السفر، ولهذا هبطنا من أعلى قلعة صفد إلى الطريق العام واتجهنا نحو طبريا.

بعد فترة قصيرة رأينا عن بعد بحيرة طبريا تطل علينا، البحيرة العذبة الأكثر انخفاضاً في العالم، تابعنا الطريق بمحاذاتها بعض الوقت، توقفنا عند تدفق المياه في طرفها الجنوبي حيث يبدأ نهر الأردن بالجريان نحو البحر الميت، شاهدنا عن بعد التقاءَه بنهر اليرموك القادم من سوريا، وفي

هذه النقطة الجغرافية تلتقي فلسطين والأردن وسوريا، عند جسر على نهر الأردن يُسمى جسر المَجَامع.

بعدها واصلنا السير نحو الطرف الجنوبي للمدينة المسورة، ومن ثم ركنّا السيارة في موقفٍ خاص، رأينا على مقربة منه بقايا السور الذي بناه ظاهر العمر الزيداني في القرن الثامن عشر، اتجهنا بعدها إلى مجموعة أدراج أوصلتنا إلى فندق طبريا الذي اعتبر فيما مضى أهم فندق في الجليل، حوله لايزال مسبح الليدو التابع له حتى الآن، نقلت البصر من هناك بين أطراف البحيرة الجميلة، وجدتها كصورة طرزت على السماء زرقاء زاهية، وفي الوقت نفسه نظرت عبر المدى بنظراتٍ مشتتة رأيت فيها جبل الشيخ وجبال عجلون وهضبة الجولان ماثلة للعيان.

اقتربت مع صديقي من البحيرة، رأينا الأمواج تتقافز أمامنا كأنها مُحتثّة بضربات لا تُرى، مياهها قابلة للشرب، تنخفض إلى مستوى مئتين واثنى عشر متراً تحت سطح البحر، مما يعطيها ميزة خاصة من ناحية الطقس، محاطة بتلال وهضاب، تشبه القيثارة في شكلها، فيها أنواعٌ كثيرة من الأسماك، أكثرها شيوعاً الشبوط والمشط، اختار السيد المسيح أربعة من حوارييه من صياديها، أرسلهم رسلاً يحملون رسالته، رسالة السلام والمحبة، وفيها أقام الشاعر العربي الكبير المتنبي مدة سنتين ووصف بحيرتها بقوله:

كأنهَا في نهارِها قَمـرٌ   حَـفَّ بهِ من جِنانِها ظُلَمُ

تغنّتِ الطَيرُ في جوانِبها وجادتِ الارضَ حولهَا الدِيَمُ

فهيَ كَماوِيَةٍ مُطوَقـةٍ   جُرّدَ عنها غِشـاؤُها الأدَمُ

تجولنا سيراً على الأقدام حولها، مشينا على الأقدام في شارع البنط المحاذي للشاطئ الغربي من البحيرة، ومنه اتجهنا إلى أعلى نحو شارع المسيح، مشينا فيه، وبعده ولجنا شارع الجليل في بطء، تجولنا واستنشقنا فيه عبق التاريخ، شعرنا بالمرارة ونحن نمر أمام منازل وأبنية ومحلات قديمة كثيرة مهجورة مبنية من أحجار البازلت السوداء.

وقفت أمام المكان الذي كان فيه مكتب البوسطة (البريد) على طرف شارع الجليل، المكان ذاته الذي عمل فيه والدي قبل ولادتي وانتقاله إلى حيفا، خيل لي صورته ثابتة في تلك البقعة من طبريا، استقرت في عينيّ، رأيته فيها في وضوح كأنه أمامي، وخيل لي بعد لحظات وجه أم أحمد منصور أمام بيت قديم، جارة أهلي الطبرانية التي استضافها والداي في بُرقة بعد النكبة، وذكرتها آنفاً، كان لها خمس بنايات في طبريا، فقدتها يوم سقوط مدينتها وخرجت منها إلى المنفى مفزوعةً نصف مبصرة.

غبت في تخيلاتي عن الواقع المعيش، وفي لحظة أفقت على صوت إسكندر وهو يقول لي: «طبريا هي بلد زميلنا وصديقنا المشترك الراحل يوسف صايغ، عاش طفولته الباكرة فيها، وسيطرت على أحاسيسه طوال حياته».

أجبته: «بعد رحيله صدرت له مذكرات بعنوان «سيرة غير مكتملة»، تحدث فيها مطولاً عن طبريا، ويظهر منها أنّه بدأ مسيرته الوظيفية مديراً لفندق طبريا (ومسبح الليدو التابع له)، الذي

زرناه قبل قليل، كانت تملكه عائلة ألمانية، وفيه تعرف على شخصيات كثيرة منها الفنانة المطربة أسمهان التي كانت كثيراً ما تقيم في هذا الفندق».

تحدثنا في طبريا مطولاً عن صديقنا الراحل، عن سيرته المتميزة، دَرّس في عدد من الجامعات الكبرى منها: الجامعة الأمريكية في بيروت، وجامعة هارفرد وبرنستون وأكسفورد، ورأس الصندوق القومي الفلسطيني ومركز التخطيط الفلسطيني، وألف عشرات الكتب والبحوث، وشارك في مئات الندوات العلمية وحلقات البحث في عدد كبيرٍ من الدول على امتداد نصف قرن، أعطى نتاجاً ندر أنْ حققه غيره من الباحثين العرب، أجل إنَّه ابن طبريا، وقد دوّن في مذكراته تاريخ أسرته فيها في مشاهد لا تُنسى.

خرجنا من مدينة طبريا واتجهنا إلى زيارة بقايا قصرٍ أموي على مقربة من شاطئ البحيرة، وبعده وصلنا إلى مكان قرية المجدل العربية، التي تُنسبُ إليها مريم المجدلية المعروفة كرمز للتوبة الصادقة، وعلى مقربة توقفنا عند كنيسة التطوبيات، وكنيسة الخبز والسمك، التي حدثت على مقربة منها معجزة السيد المسيح المعروفة بتكثير الخبز والسمك، ثم اتجهنا بعد ذلك إلى درج ينزل باتجاه شاطئ البحيرة، يوصل إلى حمام أيوب وشلال أيوب، ثمة من يؤمن أن في مياهه صفات شفائية ساعدت في شفاء أيوب من أمراضه، بعدها اتجهنا نحو تل يشرف على الطريق المتجه من طبريا إلى سمخ، تعرفنا فوقه على موقع السيدة سكينة بنت الحسين، وهو واحد من عدة مواقع يقال إن السيدة سكينة دفنت فيها.

ولجنا بعد ذلك ساحة عند مفترق عدة طرق، ثم انحرفنا في شارع يتجه غرباً نحو قانا الجليل، في تلك اللحظة نظرت نحو الخلف وشعرت بانفعالات كثيرة توالت في نفسي الواحدة تلو الأخرى وأنا أعانق البحيرة بنظرة وداع أخيرة.

كان إسكندر يشعر بحماس عارم لزيارة قانا الجليل، المدينة الجليلية التي شهدت معجزتين للسيد المسيح، هما تحويل الماء إلى خمر، وشفاء «خادم قائد المئة»، ولهاتين المعجزتين في إنجيل يوحنا معنى خاص فهما تحددان بداية ونهاية سِفر العجائب في إنجيله.

وصلنا قانا صبيحة يوم عيد الفصح المجيد، ولهذا تدثرت بهاء خاصاً بهذه المناسبة، إضافة إلى ما يطفح منها بهاء الطبيعة المميزة، التقينا بوجوه كثيرة ونحن نعبر المدينة، بشر يملأون الطرق الضيقة، رحبوا بنا ودلّونا على الطريق الموصل إلى كنيسة الروم الأرثوذكس، التي تتميز باحتفاظها بجرتين كبيرتين يعتقد أنهما استعملتا في معجزة السيد المسيح.

التقينا في داخل الكنيسة بمرشد حدثنا عن عرس قانا الجليل، ودلّنا على الجرتين، وعلى صورٍ كثيرة قديمة لجرارٍ فخارية، كما دلنا على المكان الذي تمت فيه المعجزة، نزلنا إليه على درج طويل ينتهي بحجرة سفلية كبيرة.

(39)

خرجنا من قانا الجليل في اتجاه الطريق المؤدي إلى الناصرة، وهي على مقربة من قانا، أطلّت علينا متربعة على سفح جبلها الذي التصقت به منذ القدم، تحيط بها مجموعة من الهضاب، هي أكبر مدن الجليل، تطلّ على مرج بني عامر الشهير، وتعتبر في الوقت الحاضر مركزاً إدارياً، وثقافياً للفلسطينيين، ومن الناحية التاريخية ولدت فيها السيدة مريم العذراء، وبشرت فيها بالسيد المسيح، الذي عاش فيها غالبية سني حياته، ولهذا دعي يسوع الناصري.

دخلنا الناصرة من جهتها الشرقية، اتجهنا نحو وسطها، ألقيت نظرة على ساعتي، ثم قلت لإسكندر إنّه لدينا بعض الوقت للتجوال في الناصرة قبل الذهاب إلى إكسال، وافقني الرأي، وفي الحال أوقف سيارته، تركناها في مبنى انتظار عام للسيارات في وسط المدينة، وبدأنا التجوال مشياً على الأقدام، سرنا في أزقة ضيقة مرصوفة بالحجارة، وسلالم مرتفعة متعرجة، اتجهنا فيها صعوداً لكنيسة البشارة للاتين، التي تعتبر واحدة من الكنائس الكبيرة في العالم، بنيت فوق المغارة التي يؤمن الغربيون أنَّ السيدة مريم العذراء سكنتها واستقبلت فيها بشارة الملاك جبرائيل، والمعروف أنَّ ثمة كنيسة بشارة في الناصرة للكاثوليك، وأخرى للروم الأرثوذكس.

اتجهنا بعد ذلك في الشارع المقابل لكنيسة البشارة اللاتينية، للتعرف على دير اللاتين الذي توجد فيه آثار بيوت وآبار وقبور من القرون الميلادية الأولى، ينسب أحد هذه القبور ليوسف النجار، ويوجد في قبو من الأقبية جدار يكسوه الدخان من موقد كانت تستعمله العذراء، زرنا بعد ذلك عين العذراء التي كانت مريم تستقي منها عندما ظهر لها الملاك ليبشرها بأنّها ستغدو أُمّاً للسيد المسيح، كما زرنا المسجد الأبيض قرب بناية السرايا، وهو أول مسجد بُني في الناصرة، ووصلنا في تجوالنا عند مبنى خان الباشا، ومقام شهاب الدين الأيوبي أحد أقارب صلاح الدين وأحد قادة جيشه.

كانت لديَّ رغبةٌ جامحة للتعرف على مدرسة المسكوبية التي درس فيها الأديب العربي الكبير ميخائيل نعيمة، تبين لي من الدليل السياحي الذي أتابعه صفحة تلو صفحة أن دار المعلمين الروسية قريبة منّا.. اتجهنا لها وجدناها بناية من ثلاثة أدوار يطلق عليها أهل الناصرة اسم «المسكوبية» تحولت إلى مقر دائرتي الشرطة والبريد، وقد أقامتها الجمعية الروسية الفلسطينية في عام 1886 باسم «دار المعلمين الروسية» كان طلابها يعدون للتعليم في المدارس التابعة للبعثات الروسية في بلاد الشام، ومِنْهم من يُرسل في بعثات إلى روسيا لاستكمال التعليم الجامعي فيها.

درس فيها ميخائيل نعيمة، وتحدث عنها في مذكراته (سبعون: المرحلة الأولى) ويهمني أنْ أثبت هنا ما قاله عن شخص من حيفا ساعده للوصول إلى الناصرة للالتحاق بالمدرسة، يقول عنه نعيمة بأسلوبه المميز «.. فاتني في غمرة امتناني وسروري بتيسير ما تعقد من أموري، أن أسأل الرجل عن اسمه، وعن عمله، وعن دينه، ولعله كان من الخير ألا أسأل، وإلاّ لما كان لي أنْ أشهد أمام نفسي وأمام الملأ أن معين الخير لم ينضب- ولن ينضب – في الإنسان من أيّما لون، أو لغة، أو دين، وحيثما كان نصيبه من رقعة الأرض. والذي أرجوه هو أن يعرف ذلك الإنسان أينما كان - في هذا العالم أو في «هذاك»– أن الولد الغريب الصغير الذي عطف عليه منذ ثمان وخمسين سنة

على ظهر الباخرة «جولي» في ميناء حيفا، لم ينس عطفه قط. بل إنّه – بعد سنين – قد اتخذ منه ومن أشباهه مفاتيح لما استعصى عليه من أسرار الحياة، والعلائق البشرية بنوع خاص».

كنت أتمنى ونحن نتجول في الناصرة أن أجد أي معلم يدل على أثر لخليل بيدس في مدينته، هو أيضا تخرج مثل نعيمة من دار المعلمين الروسية، وقد ذكرته آنفاً. من أهم آثاره: مجلة «النفائس المعاصرة» التي بدأ بإصدارها في حيفا عام 1908، ونقلها إلى القدس عام 1911، وأعاد إصدارها بعد الحرب العالمية الأولى في حيفا عام 1919، ثم احتجبت بعد سنة واحدة، ومن إنجازاته المميزة، ترجمته «أحوال الاستبداد» لتولستوي من الروسية مباشرة إلى العربية، و«ابنة القبطان» لبوشكين، وغيرها من عيون الأدب الروسي، ومن مؤلفاته: «تاريخ روسيا القديم» و«رحلة إلى سيناء» وغيرها، وله كتبٌ مدرسية جئت على ذكرها من قبل، وقد عُني بالقصة، ويكاد كل عدد من مجلته السابق ذكرها، يشمل على قصةٍ واحدة على الأقل من ترجمته أو تأليفه، ويُعتبر رائد القصة القصيرة في فلسطين.

***

تذكّرت الشاعر الراحل محمود درويش في الناصرة، تذكرت مقولة له يصف بها السيد المسيح بأنّه ابن البلد ويعني بأنه ابن فلسطين، وهو كذلك تجده في كل مكانٍ في فلسطين، وهذا ما قرأته في مقالة على صفحات جريدة الاتحاد الحيفاوية لرندة زريق صباغ حول تداعيات عيد الميلاد بأنّ مقولة الشاعر الكبير «تنطبق تماماً على الديانة المسيحية ذاتها بأنها أيضاً بنت البلد، أي بنت فلسطين، أُمّ البدايات وأمّ النهايات».

(40)

عُدنا أدراجنا إلى السيارة، لمحت دكاناً لحلويات»المحروم» على مقربة ؛ تكدّست فيه أصنافٌ كثيرة من الحلويات الفلسطينية الأصيلة، ابتعت منه عدة علبٍ من حلويات تشتهر بها الناصرة لتقديمها إلى أقاربي، بعدها اتصلت من هاتفي المحمول بعبد السلام دراوشة، أخبرته أننا في طريقنا إليه، غادرنا الناصرة جنوباً، سرنا في شارع «توفيق زياد» إلى خارج المدينة.

ألقيت نظرةً سريعة على الورقة التي سجلت عليها خط السير إلى إكسال، تأكد لي أننا نسير في الطريق الصحيح، ثمة نفقٍ طويل أمامنا، اخترقناه، واتجهنا في نهايته نحو اليسار، وصلنا إلى مدخل إكسال حيث يسكن أقربائي الجدد من نسل عمتي نجية، على اسم هذه القرية سمي المرج القريب منها، الذي هو جزءٌ من مرج بني عامر الشهير، إكسال قرية جليليّة تقع في ظاهر جبل القفزة، تبعد نحو ستة كيلومترات عن الناصرة، يجاورها من الشرق جبل الطور الشهير.

مضينا باتجاه الشرق، اخترقنا شارعًا عريضاً تقوم على جانبيه محلات تجارية كثيرة، فوجئت بأنّ إكسال بلدة كبيرة وليست قرية صغيرة كما تخيلتها؛ إنّها مكتظة بالبيوت الفخمة والحدائق الجميلة الملحقة بالبيوت، بعد فترة قصيرة اتجهنا يسارًا في شارع جانبي، وسرعان ما بلغنا المنزل المطلوب الذي حدد لي صاحبه قريبي عبد السلام دراوشة تفاصيل عنوانه عبر الهاتف قبل مغادرتنا القدس.

كان عبد السلام دراوشة زوج حسناء حفيدة عمتي نجّية ينتظرنا أمام المنزل، محاطاً بزوجته وبعددٍ كبير من أقاربي الجدد، وهي المرة الأولى التي ألتقي أحداً منهم، قابلوني مع إسكندر بترحاب وعناية رقيقة تعبر عن دفء فريد وعن حسن ضيافتهم وكرمهم، وجدت نفسي محاطًا بهم، غمرتني الفرحة، وشعرت بعد دقائق معدودة أنني شديد القرب منهم وكأنني أعرفهم معرفة وثيقة منذ زمن طويل، بدت حسناء مزهوة في حديثها عن مقالتي التي اكتشفت منها صلة قرابتي معهم، وكذلك تحدثت منى التي راسلتني طوال فترة طويلة، وكانت تكتب لي بانتظام عن أخبار أهلها.

أمامي الآن صورة للحضور من آل شلبي وآل دراوشة، أكتفي بذكر أسماء بنات وأولاد وحفيدات وأحفاد عمتي نجية: فوزية وفاطمة وكلثوم وخديجة ومحمد وإدريس وحاتم وفايز وحسناء ومنى ورجاء وتغريد وعادل.. حدثتني ابنة عمتي فاطمة بإسهاب عن مآثر أمها، وبيّنت لي توهجات خاطفة من حياتها مع زوجها راغب محمد شلبي ومع بناتها وأولادها وأحفادها وحفيداتها من آل دراوشة، ومع أخوالها من أقاربي في بُرقة من أيام ما قبل النكبة، واستفاضت في ذكر عشرات الأسماء من أقاربي ممن تعرفهم في شيء من الدّقة والتفصيل، منهم: فارس، فايز، عبد السلام، عبد الفتاح، نجي، نجيب، أمين، والحاجة سكّر.

دونت بعنايةٍ كل الأسماء، وفي الجلسة نفسها رسمت بدقة بخط يدي عدة فروع من شجرة عائلتي بذكر النساء فيها، واجتاحني إحساس دافئ بالراحة حين وجدت أنّ أمّ نجية، واسمها نجمة هي ابنة عمّ والدي، وقد ماتت قبل مولدي بعشرات السنين، وأن أختها الكبرى سكّر هي زوجة عمي أمين، وقد اعتنت بوالدي في صغره بعد وفاة أمّه وأبيه، ولدهشتي علمت من فاطمة أيضاً، أنّ سكّر

اعتنت أيضاً بتربية نجية، أي أنَّ والدي ونجية عاشا في كنف امرأة واحدة في الصغر، في إطار انتماءاتهما العائلية الضيقة.

تحمست في توضيح ما سجلته على الورق لرفيق رحلتي إسكندر، الذي تابع حديث فاطمة باهتمام، وقلت له أمام الجميع سوف أسجل كل ما سمعت اليوم في مقالة، ليس من أجلي، بل من أجل تدوين الذاكرة المفردة زماناً ومكاناً بكل تجلياتها، وتحويلها من ذاتية مباشرة إلى ذاكرة جماعية ببؤر لاقطة لحياة الفلسطيني الماضية والحالية بكل أنسجتها وتشابكاتها.

فيما بعد أقيم حفل عشاء كبير، أقامه عبد السلام وحسناء في منزلهما.. امتدت مائدة طويلة في وسط قاعة الطعام رُصّت فوقها عشرات الصواني الكبيرة بما لذَّ وطاب، تحدثنا مطولاً في مواضيع كثيرة حول مائدة الطعام، طُرحت عليَّ أسئلة عن وقائع حياتي وأجبت عليها، كنا كلنا في أقصى حالات الإثارة، ضحكنا عالياً من أعماق قلوبنا واستمتعنا بوقتنا أيّما استمتاع، بالطعام، والحديث الدائر، وأخذنا صوراً كثيرة أثناء العشاء، وسمعنا أغانيَ جليلية شعبية من حمودي ابن عبد السلام.

فجأة فقدت خيط الحديث، سرحت صامتاً أتأمل أطياف أفكار كثيرة مرت بخاطري، حاولت فيها إيقاظ أرواح كثيرة ذكرت أثناء العشاء، أُحسُّ بأصحابها يتراكمون في تلافيف ذاكرتي، يجذب أحدهم الآخر نحوي، أرى بينهم عمتي نجية مشرقة سعيدة بتواصلي مع أولادها وبناتها وأحفادها وكل أطراف جذورها.

على حين غفلة، سمعت صوت عبد السلام، ينتزعني من خواطري قائلاً: «يصعب عليكما أنت وصديقك الرجوع إلى القدس في هذا الوقت المتأخر من الليل، ستنامان هنا في منزلي».

بعد ذلك وجّه الدعوة إلى إسكندر.. استجبنا لطلبه ونمنا على مقربة من حقول مرج بني عامر.. في تلك الليلة تابعت الليل إلى نهايته جرياً وراء الأحلام، ستبقى لها في نفسي دوماً ذكراها العذبة.

وقفت خلف نافذة غرفة النوم، نفحة هواء منعش هبت عليَّ من مرج بن عامر، لامست وجهي أشعرتني بسعادة، وانطباع، لم أمرّ أبداً بانطباع أجمل منه، إنّها أوّل ليلة أنام فيها في بلدي بعد 61 عاماً من الشتات، أذكر آخر ليلة نمت فيها في حيفا، كانت يوم سقوطها، أويت إلى الفراش آنذاك في حضن أمي، بقيت يقظاً لم أستطع النوم، أصغيت إلى صوت الرصاص يشق صمت الليل.

وها أنا الآن أعود كهلاً إلى بلدي، آوي إلى الفراش، وغصّة في الحلق تُدميني، وأشعر بكثير من الإصرار أنّني جزءٌ من هذا المكان يتملّك كل منا الآخر.

(41)

في صباح اليوم التالي، بدأت يومي بتصفح جريدة الاتحاد التي تصل إلى منزل عبد السلام صباح كل يوم كمشترك دائم بها، وبعد تناول الإفطار، تبادلنا كلماتٍ حارة وقت الوداع مع حسناء وفاطمة وعبد السلام وعمر وإدريس، لم أستطع أن أتلفّظ سوى بعدة كلمات حين ودعتهم، قلت لهم «لن أنسى اللحظات التي قضيتها معكم، آمل أن ألتقي بكم دومًا».

بعدها اتجهت مع إسكندر نحو حيفا للقاء عادل دراوشة شقيق حسناء، كنا اتفقنا معه من قبل على التجوال برفقته في حيفا، التقيناه عند ناصيةٍ تقع قرب شارع حسن شكري، ركنَ إسكندر سيارته في مكان قريب، ثم صعدنا في سيارة عادل واتجهنا بناء على رغبة إسكندر إلى دالية الكرمل، ومنها زرنا حي الكبابير، توقفنا فيه، أدرت بصري في كل الجهات، تذكرت في تلك اللحظة بستان الخياط، الطرق القريبة من كل الاتجاهات تقود إليه، تذكّرت زيارتي له في صغري، أثارت فيَ قدراً كبيراً من الحنين إلى ما مضى.

استمر بصري بالتنقل بين أجزاء الكرمل المتعاقبة، اتسع نطاق نظري قي الإمتداد نحو الأمام، بدت أراضي بلدة الطيرة منبسطة أمامي متجهة من أعلى جبل الكرمل نحو البحر.. فجأة تذكرت صديقي علي عويس ابن الطيرة التي يتسع مداها في حياته ويستنسخ منها صوراً تعينه على تحمل منفاه البعيد في كندا.

من حي الكبابير رجعنا ثانية إلى حيفا، اتجهنا نزولاً من أعلى الكرمل، توقفنا عند جسر رشميا، واسمه كنعاني، يقع فوق الوادي الذي يحمل الاسم نفسه، على مقربة منه يوجد حي الحليصة، بعدها انتقلنا إلى وادي النسناس، وساحة الحناطير «الخمرة»، وشارع الملوك، وشارع الناصرة.

توقفنا ثلاثتنا ملياً عند مسجد الاستقلال، المسجد نفسه الذي كان يصلي فيه والدي، كنت ميّالاً بطبيعتي إلى مرافقته، يتلاحم كفي الصغير دوماً بكفه ولا يُفلتني، وعندما نصل ساحة المسجد يبقيني فيها أمارس اللعب مع الأطفال.. وقفت اليوم في الساحة نفسها وبدأت بتجميع نتفٍ من حكايا تناهت إلى مسمعي في سنيّ طفولتي الباكرة، بعدها طفت حول المحلات التجارية التي تكون الطابق الأرضي من المسجد وكانت وقفاً له، كلها مغلقة باستثناء مطعمٍ كبير، نظرت في داخله وجدته يقدم كل أنواع الخمور!!!

على مقربة من المسجد توقفنا عند لوحة جدارية ضخمة لسكة حديد الحجاز، وفيما كنا نتابع قراءة النص المكتوب باللغة العربية، وصلت قريبتي تغريد زوجة عادل، التي جاءت خصيصاً من إكسال للحاق بنا.

سرنا بناء على طلبي مشياً على الأقدام في شارع الناصرة، الذي عشت فيه طفولتي، تذكرت بألم مقهى العجمي، وعمارة الكرنك الدائرية، وعمارة أبو حوا، ومحطة فرعية لسكة الحديد، وعن بعد رأيت بيتي في عرق الطريق المؤدي إلى الكرمل، أيقظ في داخلي شهوة الحياة ولحظات المسرة النادرة، لكننا للأسف لم نستطع الوصول إليه بسبب إغلاق الشارع جراء أعمال بناء جسر كبير في

تلك المنطقة، تنهدت تنهيدة ثقيلة، وأخبرت من معي عن زيارتي له قبل ثلاثة أعوام، طفت وقتها حوله سبعاً، غاص قلبي في أعماقي، وصاحبتني غربة الروح طويلاً.

بعد هذا التجوال في حيفا، سرنا بالسيارة على امتداد شارع الناصرة، باتجاه عكا، اخترقنا حواسة وبلد الشيخ، وفي لحظة هدوء تذكرت مصنع قرمان وديك وسلطي للدخان، ومصفاة نفط حيفا.. وتجولت في أشرطة صورٍ مرئية كثيرة من صور الذكريات.

أخيراً وصلنا عكا بكل حمولاتها التاريخية، المدينة التي أوقفت الغزاة على سورها في الماضي واحداً إثر الآخر، والتي يرسم الموج على ثغرها ابتسامة أبدية، ها أنا أرى فيها عن بعد امتدادات السور حولها، وفضاءاتٍ أتخيل فيها وجوه أهلها ومشاهد زمن مضى، ألامس على إيقاع تخيلاتي جرحها العميق في واقع اللحظات الآنية المعتمة.

كل ما أريده في عكا الآن هو اللقاء بصديقي الروائي جريس طنوس، الذي أعتز بصداقته وأتواصل معه عبر البريد الإلكتروني منذ عدة سنوات، تصلني كتاباته مسكونة بكثير من الصور والمعاني الجميلة، ومحملة دوماً في سطورها برذاذ من بحر عكا، يُذكرني فيها بماضينا القديم الجميل، ويملأ نفسي بالسعادة في لمساتٍ جميلة من المحبة والوفاء.

اتصلت به هاتفياً قريبتي تغريد، طلبت منه عنوان منزله، وبعد قليل التقينا كلنا به، أنساني عندما رأيته تقطيبة الشتات الحزينة، حدثته عن أقربائي الجدد في إكسال وعرفته على إسكندر وعادل وتغريد، وعرّفنا على أولاده وأحفاده، باركنا لهم بعيد الفصح المجيد، حدثني عن نشاطاته الإبداعية، طبعة ثانية جديدة من روايته الموسومة، «ذاكرة الأيام»، وقد أهداني عدة نسخ منها لأصدقاء لي في مونتريال، شدّني حديثه عن مشروع قاموسه حول التقارب والتشابك بين اللغتين العربية والعبرية.

ورغم أنَّ الحديث مع صديقي جريس لا يُقاوم، إلا أنَّ اللقاء به كان قصيراً لضيق الوقت، ساعاتٍ معدودة، ودعناه بعدها والشمس توشك على المغيب. سرنا بمحاذاة البحر ومضينا في سيارة عادل خارجين من عكا، أشم شذا رذاذ أمواج بحرها، وأستشعرها على وجهي، بقيت صامتاً بعض الوقت وخيالي يحلق في أجواء عالية حول أوضاع بلدي تراثاً وتاريخاً وراهناً.. وهج آمالٍ لفحتني واتسعت حولي في المدى الممتد إلى ما لا يدركه البصر.

عدنا إلى حيفا ثانية، توقفنا عند سيارة إسكندر، تماسكت الأيدي وقت وداع عادل وتغريد، قدمنا لهما الشكر على قضاء يوم حافل معهما في رحاب حيفا وعكا، رجعا جنباً إلى جنب إلى إكسال، وانطلق صديقي متجهاً بسيارته إلى القدس، عبر الطريق السريع رقم 6. أمضيت طوال الوقت في ثرثرة معه، تحدثنا في أمور شتى، وأسعدني كثيرا حين قال لي إنّه استمتع بالتعرف على أقاربي الجدد أيما استمتاع، وصف رحلتنا لهم بأنّها كانت مفرحة ومدهشة تجلى فيها روعة اكتشاف الجذور بعد سنين طويلة من غربة النفي والشتات.

وصلنا منزل إسكندر في ساعة متأخرة من الليل. كان وادي الجوز هادئاً، غارقاً في ظلام تتناثر فيه أضواء مصابيح تترقرق عن بعد، وقفت عند مدخل منزله وقلت له للمرة الألف «أغبطك يا صديقي لأنك باقٍ هنا في بيتك في القدس».

***

أفقت في صباح اليوم التالي، إنّه يوم مغادرتي القدس، أصر إسكندر على مرافقتي إلى مكان انتظار سيارات رام الله، مضينا إلى ذلك المكان، ودعته وشكرته على حسن ضيافته، واتفقنا على اللقاء قريباً في عمّان.

(42)

غادرت القدس إلى رام الله، للقاء ناصيف معلم مدير المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية، تعرفت عليه في سياق بحثي عن الجذور، لم ألتق به من قبل وانحصر تواصلي معه في حدود تبادل الرسائل عبر البريد الإلكتروني، قرأت له ما يكتبه في الصحافة الفلسطينية، وقرأ لي بعض ما أنشر، تلتقي جذورنا معاً في بُرقة، إنها قريته أيضاً، تشابكت وتمازجت جذوره فيها.

مضيت إلى مكتبه في عمارةٍ قريبة من بداية المصيون، صعدت إلى الطابق الثاني والتقيته لأول مرة، تحدّثنا مطولاً عن بُرقة، أخبرته - في سياق حديثنا - عن الأهل أن والدي كان صديقاً لوالده، وأن أمي كانت دوماً تتحدّث عن أخيه الطبيب ناصر بتقدير وتصفه بخصائل إنسانية مميزة، وحدّثته أيضاً عن جورج وفرنسيس نصر الله من أقربائه الذين استقروا مبكراً في الناصرة، وأنهما ارتبطا مع عمتي نجية في إكسال بعلاقة متميزة فقد «خاوتهما» لأنّهما مثلها من بُرقة تترابط معهما بذكرى مسقط الرأس، وقد عاملاها كأخوين لها حتى وافاها الأجل المحتوم، وبينت له أنّ هذه العلاقة لاتزال مستمرة حتى الآن، يتسع مداها وتمتد جذورها مع الأبناء والأحفاد.

وحدثته أيضاً عن الكثير مما في جعبتي من ذكريات مدفونة عميقاً في داخلي تنتمي إلى فترة مبكرة من طفولتي في بُرقة.

قدمت له نبذة عن المركز الكندي للشرق الأوسط الذي أديره في مونتريال وأهديته آخر كتاب صدر لي بعنوان «الأزمة المالية العالمية، نهاية الليبيرالية المتوحشة»، وفي المقابل حدثني عن مركزه، وقدّم لي عدة كتب قيمة من إصداراته.

بعدها تحدثنا عن الأوضاع الفلسطينية، وأعلمني أنّه بصدد إعداد ورقة عن الاستقلال الاقتصادي كبوابة للتحرر السياسي. وجه لي عدة أسئلة حول هذا الموضوع لاستجلاء رأيي حولها، وأجبته بمنتهى الصراحة، إنّه من الصعوبة بمكان تحقيق الاستقلال الاقتصادي في الأراضي الفلسطينية في ظل المعطيات المتوافرة لأنّ اتفاقية أوسلو وبروتوكول باريس الاقتصادي عملا على تدعيم ارتباط الاقتصاد الفلسطيني بالاقتصاد الإسرائيلي. قدمتُ له أمثلة على ذلك من واقع المؤشرات الرقمية للصادرات والواردات ومستحقات الضرائب التي تدفعها الحكومة الإسرائيلية للسلطة الفلسطينية.

ثم بيّنت له أنَّ السلطة الفلسطينية لم تلتزم منذ تأسيسها بسياسات اقتصادية ناجعة، كل ما تنفذه مجرد «إجراءات» تتناسب مع مطالب الدول المانحة لا ترقى إلى سياسات، ساهمت للأسف في تضخيم الجهاز الحكومي والأمني وانتشار البيروقراطية والفساد(********).

بمرور الوقت انضم إلينا عدة زملاء له من المركز، كما انضم أيضاً الكاتب الفلسطيني عبد المجيد حمدان، أسعدني التعرف عليه وعبرت له عن إعجابي بمؤلفاته، وبخاصة ما يتعلق منها بالجوانب التاريخية، وتحليلاته للعهد الراشدي، أفعاله وأساليبه وإجراءاته في إدارة الحكم.

***

لاحقاً، كان عليّ الخروج من مكتب ناصيف، من أجل موعد مع صديق آخر، اتجهت في شارع هادئ خالٍ من الدكاكين، واصلت السير فيه على الأقدام ثم انحرفت في شارع مجاور، وسرعان ما وصلت إلى بناية وسط المدينة يقع فيها مكتب صديقي صخر الخطيب، رئيس غرفة التجارة والصناعة الأوروبية في الأراضي الفلسطينية.. صعدت إلى الطابق الثاني، أسعدني اللقاء به، بقيت معه بعض الوقت في مكتبه، وفي ساعة الظهيرة غادرنا رام الله.. انطلقنا باتجاه نابلس، مضى يقود سيارته، ويعرفني كعادته عما نراه حولنا من قرى، ونثرثر معاً عن ومضات الطفولة وذكرياتها التي تنثال في الخاطر، خصوصاً ما يتعلق منها بمدرسة بُرقة التي تعارفنا فيها في سنيّ الدراسة الابتدائية.

نزلت ضيفاً على صديقي صخر، واستقبلتُ بحفاوة زائدة من قبل زوجته ياسنا وابنه نور وابنته مي، لاحقاً خلال السهرة حدثتهم عن أقربائي الجدد في إكسال، وشدّدت في معرض حديثي على أجمل اللحظات التي أدهشتني في رحلتي إلى الشمال عبر طريق الأغوار، وكانت تلك اللحظات كثيرة تعج بها ذاكرتي كاملة بصورٍ زاهية.

في صباح اليوم التالي، أقلتني سيارة أجرة إلى بُرقة، جئتها لزيارة قريبتي فاطمة التي لم تفارق القرية طوال عمرها، تقيم في بيتها على هضبة عالية، تظللهُ شجيرات كثيرة من اللوز والرمان والتفاح والليمون، وتترامى حوله زهور تعبق برائحة زكية.

لا أذكر أني شاهدت مكاناً يفوق هذا المكان جمالاً، كأنه لوحة زيتية مرسومة بخطوط خضراء، ولارتفاعه يمكن منه ليلاً مشاهدة أنوار الأطراف الغربية لأرضنا المحتلة، على مقربة من البحر.. كلما أزور قريبتي هنا في هذا المكان، أحس بومضات سعادة جارفة تترك بي أثراً أعمق من أيّ شيء آخر، وتزداد سعادتي حين تعد لي بيديها وجبة من «المسخن» بزيت من أشجار زيتون جدودي.

أمضيت ساعات طويلة في الحديث معها في أمور كثيرة، كأحوال الناس في بُرقة، وتفرّع الحديث أيضاً حول الأموات من أهلنا، وفي لحظة أردت أنْ أعرف منها المزيد عن أقاربنا الجدد في إكسال، كنت على قناعة أنّها تعرف الكثير عنهم، لأنّها تبلغ من العمر ثلاثة وثمانين عاماً، وتحتفظ بذاكرة جيدة.

طرحتُ عليها أسئلة كثيرة عن عمتي نجية ردت عليَّ بالمعلومات نفسها التي ذكرتها لي ابنتها فاطمة في إكسال، وأضافت نتفاً من حكايات لها مع نجية حدثت قبل النكبة في حيفا، وعندما سألتها عن سبب عدم معرفتي بهذه المعلومات، ردت عليَّ بعفوية: «الشتات أخفى أخبارها عنك وعنا».

شعرتُ بضرورة التحدث مع أقاربي في إكسال، اتصلت عبر هاتفي المحمول بفاطمة وزوجها عمر وبحسناء وزوجها عبد السلام، أخبرتهم بما سمعته من قريبتي في بُرقة، عن نبتة الجذر نفسها التي تحدثنا عنها في إكسال، أسعدهم ما قلته لهم، وفاجأتني حسناء بقولها إنّ خالها الأكبر محمد شلبي «أبو رستم» لم يكن في إكسال يوم زيارتي لهم، ويريد التعرّف علي لأنّه يذكُرني ويعرف أمي وأبي.

في وقتٍ لاحق اتصلت هاتفياً مع قريبي «أبو رستم»، كان ودودًا في حديثه معي، عدد لي أسماءً كثيرة من أبناء جيلي ممن كنت ألعب معهم في الساحة المتاخمة لمنزلي على أطراف شارع الناصرة في حيفا، بيَّن لي أنّه كان يلعب معنا، ولأنه يكبرني بأربع سنوات، ويحافظ على صفاء

ذاكرة متميزة، فإنَّه يذكرني جيداً، ويذكر أبي، ويذكر أمي صديقة عمته عريفة التي كانت جارة لنا، وكان ابنها محمد أحد أصدقائي في طفولتي الباكرة.

أحيا حديثه صورته في ذاكرتي، وأدخلني في تجاذب مع تفاصيل حياةٍ مضت يشتد في كل يوم شوقي لها، استحضرت معه عبر الهاتف جزءاً منها، لم يُقيدنا الزمان ولا المكان في استحضارها، لم تمنعنا الأيام من الابتعاد عنها، ها هي تجري باندفاع حولي هنا وهناك في حرية مطلقة، أجول فيها وأعيد تشكيلها في حروفي.

(43)

كتبت مقالاً نشرته في جريدة المستقبل الكندية بعنوان «البحث عن الجذور ثانية» تحدّثت فيه عن تعرفي على أقاربي في إكسال بعد ستة عقود من النكبة، عبرت فيه عن سعادتي عندما التقيت أبناء وبنات وأحفاد قريبتي نجية، ووعدت قرائي أن أسجل تجربتي في كتاب يدور موضوعه حول بحثي عن الجذور، وكرّرت هذا الوعد على الهواء عبر راديو كندا الدولي في مقابلة أجرتها معي الإعلامية العربية كوليت ضرغام، وشجعني بعض أصدقائي على تحقيق هذا الوعد وخصوصاً فادي الهاروني وجورج عزارة و محمد حسين الأطرش.

وبما أن الذكريات القريبة تتداعى، فقد تحدّثت عن هذا الوعد أيضاً في أمسيةٍ شعرية قدمتها في مونتريال في إطار أوّل نشاط للصالون الثقافي الأندلسي بعد تأسيسه في خريف عام 2011.

ذات يوم من آذار 2011، كان فيه الجو بالغ البرودة في مونتريال، صعدت الطائرة المتجهة إلى عمان، أردت زيارتها لتسليم مسودة كتابٍ جديد لي بعنوان «وجهة نظر اقتصادية» إلى دار الشروق في عمّان التي أصدرت لي خمسة كتب خلال السنوات الخمس الماضية.

كان إقلاع الطائرة عند اقتراب الغسق، كانت مونتريال تبدو من الجو مظلمة، مع خطوط أضواء تتماوج فيها على اتساع المدى تتشابك انعكاساتها على وجه مياه نهر «سان لوران» وترسم لوحة جميلة حالمة تتراكب فوق صورٍ أخرى حول النهر غير قابلة للنسيان.

بعد الإقلاع بقليل تناولت مسودة كتابي وألقيت عليها نظرة متفحصة، مللت القراءة وأغلقت الأوراق وانتقلت إلى جهاز التلفزيون المثبّت أمامي. تنقّلت بين القنوات، تابعت جانباً من فيلم تاريخي، ووجدت في قناة أخرى أغاني عربية، سمعت موشحاً جميلاً لفيروز، وفي لحظة شعرت بألم في رأسي، اجتاحتني نوبة رهيبة من الضيق لتواصل الألم، اخترت قناةً للموسيقى الكلاسيكية، تلاحقت فيها حركات إيقاعية من السمفونية السادسة لتشايكوفسكي، ضربات متصاعدة تتدفق بعنفٍ إلى أعلى، انتشيت بها، لكن ألم رأسي أنساني تلك النشوة، استمر الألم طوال الرحلة ولم يسعفني منه تناول عدة حبات من التايلانول.

في اليوم التالي لوصولي عمّان، زرت طبيباً مختصاً، لإجراء الفحوصات اللازمة وأخذ العلاج اللازم لألم رأسي، أحاطني برعاية لطيفة، لكن فحوصاته كانت روتينية، تحاليل مخبرية وقياس مستوى ضغط الدم، أخبرني أنَّ سبب آلامي هو الإرهاق، والبقاء ساعات طويلة أمام الحاسوب، أعطاني أدوية من معرفتي السابقة بها كانت عادية.

كان ألم رأسي يتوقّف تارةً ومن ثم يعود ثانية، حاولت التعايش معه ومواصلة تناول الأدوية التي وصفها الطبيب، لم يقلقني مواصلة الألم، اقتنعت بما قاله الطبيب، أخذت أقلل من استخدامي للحاسوب، وأعطي نفسي وقتاً أطول للراحة والنوم.

لم يكن لديّ خطة لزيارة الأهل في الداخل، غير أن دعوات كثيرة انهالت عليَّ من أقربائي في إكسال لزيارتهم. في أحد الأيام اتصل بي هاتفياً عبد السلام دراوشة، وبين لي أهميّة زيارة الجليل في فصل الربيع، تبدو فيه الأرض في ذروة جمالها وحسنها تكسوها الأزهار والنباتات البرية

بألوان خلابة ساحرة، قال لي إنَّ زيارتي الأولى كانت قصيرة ولم أتعرف فيها على كل نسل عمتي نجية، استجبت لدعوته واتفقنا على اللقاء في أقرب وقت ممكن.

أكملت كل الإجراءات اللازمة لنشر كتابي الجديد، وعدت إلى الطبيب ثانية، أضاف لي دواءً إلى أدويتي الأخرى، أحسست عند استخدامه أنه يزيد من أوجاعي، كنت أتوجّع من ألم رأسي دوماً وباستمرار، وأشعر في الوقت نفسه بفرح لقرب موعد زيارتي للأهل في الداخل، لكي أغوص في معين الطفولة من جديد، وأتعرف عليهم أكثر وأكثر، وأتلمس جذورهم وتفرعاتها على امتداد تراب الجليل.

(44)

غادرت عمّان في صبيحة اليوم الأول من نيسان 2011، كان عبد السلام دراوشة في استقبالي على الطرف الآخر من جسر الشيخ حسين.. كان لقائي به فرحةً لا توصف، ركبت معه في سيارته، مضى بطيئاً، وأنا أنظر حولي، أنادي سني طفولتي في بلدي وتغمرني الذكريات، أنظر إلى الأبعد، أرى أرض مرج بن عامر، وأشم عن بعد رائحة ترابها المجبول بعرق جباه أهلي وأجدادي.

أفيق من أحلامي على صوت عبد السلام، يفتح حواراً معي عن حالي وأحوالي، وشيئاً فشيئاً يتسع الحديث، ويسدل علينا ظلالاً وارفة من سيرة عمتي نجية، تقربُ بيننا، وتضيء لي دروباً متشابكة لقيت فيها أجزاء تائهة من ذاتي.

على حين غفلة يعلن عبد السلام وصولنا إكسال، تباطأت السيارة ونحن نخترق شوارع القرية، تمهل عند أحد التقاطعات، وسرعان ما وصلنا منزله، التقيت بحسناء وفاطمة وعمر، وبعد فترة قصيرة توالى وصول الأهل، التقيت أكبر عدد منهم، استعدت بهم لحظاتٍ من زمن مضى كانت هاربة مني، أعدتها رغم سطوة الزمان، وانتقلت بها إلى واقعٍ جديد تخطيت بها وقائع الشتات المعتمة.

تشابكت خيوط الحديث مع بنات وأبناء وأحفاد عمتي نجية، أضاءت أحاديثهم ذاكرتي بهالات صورٍ كثيرة من أيام ماضية، أنستني أوجاع رأسي، أحاديثهم أعطتني القدرة على تجاوز الأوجاع.

فجأة قال لي عمر دراوشة: «وضعت خطة مع عبد السلام لتعريفك بالناصرة وبعض المناطق المجاورة».

صمت قليلاً، ثم سألني: «هل تود زيارة أمكنة محددة لإلحاقها بالخطة». أجبته بإيجاز: «أريد زيارة ضريح الراحل إميل حبيبي في حيفا».

سكتّ بعض الشيء، ثم التقطت طرف الحديث ثانية وأضفت قائلاً: «لأنه أوصى أن يُكتب على ضريحه بعد موته: باقٍ في حيفا».

توقفتُ عن الحديث، أحسست بوجع شديد في رأسي أكثر شدة من ذي قبل، أخذت عدة حبات من الأدوية، ومسحت بعض حبات من العرق تجمعت على جبيني، استفسر عبد السلام عن الأدوية.. أخبرته عن أوجاع رأسي.

بعد قليل، اتصل عمر بعائلة المرحوم إميل حبيبي لمعرفة عنوان مقبرته، تحدث مع الدكتور سميح غنادري زوج بنت إميل الدكتورة راوية حبيبي، وأخذ عنوان المقبرة في الجهة الغربية من حيفا.

في صبيحة اليوم التالي زرت مع عبد السلام وعمر ضريح إميل حبيبي.. وقفت أمامه بإجلال كبير، وأعدت قراءة الكلمات المكتوبة على ضريحه عشرات المرات بسيل من الحنان والعاطفة «باقٍ في حيفا»، نظرت حولي في الفلاة المجاورة، وعادت الذكريات، ها هي تتدفق في خاطري

فيخفق قلبي، ما أكثر ما كنت آتي هنا، تتوافق خطواتي مع خطوات والديّ عندما كنا نزور مناطق حيفا الغربية.

بعدها زرنا منزل أسرتي في شارع الناصرة، وسرنا مشياً على الأقدام حتى منطقة بيت جليم، توقفنا أمام مستشفى كبير أقيم فوق بناية مستشفى حمزة، حدثتهم عن طبيبي هانس الذي عالجني في مستشفى حمزة.. استمر التجوال في حيفا، ثم اتجهنا إلى حي وادي النسناس، ومنه إلى ساحة الحناطير «الخمرة» ثم رجعنا منها إلى حي الألمانية لتناول الغداء في مطعم فتوش.

شعرت في داخل المطعم بآلام في الرأس لا تطاق، مع بدء رجفة بيديّ الاثنتين لازمتني بوضوح ظاهر، لم أتمكن من الأكل، وفي الحال اقترح عليّ عبد السلام مراجعة طبيب أخصائي أعصاب من أصدقائه في الناصرة، أصرّ على اقتراحه، وأيده عمر، أخبراني أنّه لا فائدة من أخذ الأدوية مع تواصل المرض وزيادة آلامه أكثر من ذي قبل.

قلت لهما متسائلاً: «لماذا طبيب أعصاب؟ «

رد عبد السلام: «لأن رجفة اليدين تتصل بالأعصاب».

اتجهنا ثلاثتنا نحو الناصرة، بعد نحو نصف ساعة كنا أمام مستشفى الناصرة، المعروف أيضاً باسم المستشفى الإنجليزي، دخلنا في الحال إلى عيادة الدكتور ساهر عابد، رئيس قسم أمراض الأعصاب في المستشفى، وبينما كنا ننتظر انتهاء الدكتور من معاينة أحد مرضاه، أخبرني عبد السلام بأنّ المستشفى أسس قبل 150 سنة، وأنّه في حقبة من الزمن كان المستشفى الوحيد في فلسطين وشرقي الأردن وسوريا حيث كانت المستشفيات في تلك الحقبة موجودة فقط في بيروت.

ثم أضاف بصوتٍ هادئ: «الدكتور ساهر أخصائي ماهر في الأعصاب، ما كان بإمكانك أن تجد مثله في أي مكان».

واستطرد مضيفاً: «إنّه في الوقت الحاضر رئيس نقابة الأطباء العرب فرع الناصرة».

فيما كنت أستمع إلى قريبي، شعرت بشيء ينذر بالشؤم، تأكدت من ذلك مع ازدياد رجفة يديّ بتواصل دائم.

انتهى الدكتور ساهر من معاينة مريضه، دعانا إلى غرفة مكتبه ورحب بنا أيّما ترحيب، قدمني قريبي عبد السلام إليه، وبين له بإيجاز أمر مرضي تاركاً التفاصيل لي، حدثته عن آلام رأسي ورجفة يديّ والأدوية التي أعطيت لي، بعد ذلك أدخلني إلى غرفة المعاينة، بدأ بمعاينتي سريرياً، وركز بشكل واضح على فحص اليدين والرجلين، بالضغط بإبهامه وسبابته على يديّ ثم على رجليّ، ثم الضغط عليهما بكفيه طالباً مني أن أدفع كفيه عني بقوة.

اتضح لي اهتمام الدكتور ساهر بأمري، وأشعرتني أحاديثه العامة مع قريبيّ بالراحة، شعرت بالرضا لأنني وصلت إليه.

على ضوء معاينته، طلب مني أخذ صورة أشعة مقطعية لرأسي، رافقتني ممرضة لقسم الأشعة، وبعد وقت قصير رجعت مع الأشعة المطلوبة، وفي الحال أخذ الدكتور ساهر بتفحصها، بعد لحظات نظر إلي قائلاً: «الصورة تؤكد على وجود نزيف في دماغك، نزيف خفيف في جهة اليسار، ونزيف آخر كبير في الجهة اليمنى».

سألته مستغرباً: «ماذا تقول؟».

كرر كلامه ثانيةً بصوت واضح، وأضاف: «إنه نزيف في مرحلةٍ مبكرة نتيجة ضربة في الرأس، يمكن إيقافه بعملية جراحية، يجب أنْ تجرى في أقرب وقت ممكن».

نظر إليه عبد السلام وعمر وأكد لهما ضرورة إجراء العملية.

سألته: «وماذا عن الأدوية، ألا يمكن إيقاف النزيف بالأدوية؟».

أجابني: «الأدوية لن توقف النزيف وعدم إجراء العملية سيؤدي خلال فترة قصيرة إلى شلل الجزء الأيسر من جسمك».

سألته ثانية بقلق: «هل حالتي خطيرة؟».

قال مؤكداً: «الخطورة في عدم إجراء العملية، ستؤدي بك إلى نتائج صحية وخيمة ولا بد أنْ تجرى عندنا في الحال، أي أنّك لا تستطيع إجراءها في كندا ولا حتى في عمان القريبة، لا تستطيع السفر مع حالة النزيف المستمرة التي أنت فيها».

شرح لي الدكتور ساهر أن أفضل مكان لإجراء العملية هو مستشفى رمبام في حيفا، أهم مستشفى لمثل هذه العمليات، بإمكاني تحويلك إليه الآن».

نظر إلي عبد السلام قائلاً: «رمبام» هو المستشفى الذي رأيناه اليوم في منطقة بيت جليم، وهو نفسه مستشفى حمزة الذي تعالجت فيه عندما كنت طفلاً صغيراً ؛ تمت توسعته عدة مرات بعد النكبة، وتبدل اسمه من حمزة إلى رمبام وهذه الكلمة مختصر لاسم موسى بن ميمون الطبيب والفيلسوف الأندلسي الشهير، الذي يحمل المستشفى اسمه الآن ويعتبر في الوقت الحاضر من المراكز الطبية العالمية المشهورة».

وافقت على إجراء العملية بعد يومين حتى أتمكن من الاتصال بأسرتي وبعض أصدقائي، بدأت اتصالاتي في الحال عبر هاتفي المحمول بينما كنت أتجه مع عبد السلام وعمر إلى إكسال.

اتصلت بدايةً بالدكتورة دعاء بكري في تورونتو، طبيبة أخصائية من عرابة الجليل، حصلت على بعثة لإجراء بحوث لفترة محدودة من الوقت في مستشفى تابع لجامعة تورونتو الكندية، أخبرتها بأمر مرضي، وسألتها عن مستشفى رمبام، أفادتني بأنّه المستشفى التي عملت فيه في قسم الأطفال قبل مجيئها إلى كندا، وأكدت لي ما قيل لي بأنه من أفضل المستشفيات لعمليات الأعصاب، وشجعتني على إجراء العملية، وأثنت على الدكتور ساهر عابد.

كان الجزء الأصعب عليَّ الاتصال بزوجتي وأولادي، كنت أعرف مدى أثر سماع خبر مرضي عليهم، كانت زوجتي رويدة تقضي إجازة في دبي عند ولدينا هاني ووليد، عندما اتصلت بها كانوا ثلاثتهم يتحدثون عبر «سكايب» مع ابني الأكبر فادي وزوجته لندا وابنه ليث المقيمين في شيكاغو، شرحت لها كل ما يتعلق بمرضي، وطلبت منها إخبار أولادي بما قلته لها، تأثرت كثيراً، ولكي أخفف الأمر عليها، أنهيت حديثي معها بالقول إنّني بين أهلي وأقربائي في إكسال، يغدقون عليّ عنايتهم، وعندما أتعافى سألتقيها في عمّان.

بعد دقائق معدودةٍ اتصل بي ابني فادي، شعر بخطورة مرضي لكونه طبيب أسنان يعمل بروفسور مساعد في جامعة إلينوي، على دراية بما تعنيه عمليات الأعصاب والدماغ، أبلغني برغبته في

المجيء إلى إكسال ليكون إلى جانبي أثناء إجراء العملية، طلبت منه عدم المجيء لبعد شيكاغو عني، وبعد أخذ ورد وحوار طويل معه عبر الهاتف، وافقني الرأي على مضض، واشترط عليَّ أن يلحق بي أحد أولادي، ووعد الاتصال بأخويه في دبي للتباحث في الأمر.. بعد عدة ساعات اتصل بي ابني الأصغر وليد وأخبرني أنّه في مطار دبي في طريقه إلى عمان، ومنها سوف يتجه في الغد براً إلى إكسال.

وصل في اليوم التالي، كان الوقت عصراً، وفي الحال اتجهنا مع عبد السلام وعمر إلى عيادة الدكتور ساهر في الناصرة، سلمني تقريراً طبياً عن حالتي يجيز لي دخول قسم الطوارئ في مستشفى رمبام، بعدها اتجهنا إلى حيفا، كل شيء كان يضطرب في داخلي ويهتز من جذوره، وساءلت نفسي كيف تتوالى المصادفات الغريبة من نوعها في حياتي، ألتقي بالمصادفة بأهلٍ لي لم أكن على معرفةٍ بهم طوال سنوات الشتات البغيضة، وعندما ألتقيهم يداهمني المرض، وها أنا الآن بكنفهم وربما غداً أموت بين أيديهم.

(45)

ألتقط أنفاسي بصعوبة على أبواب مستشفى «رمبام» في منطقة بيت جليم بجانب البحر، تسمّرت عيناي على موقع كلمات يافطةٍ قديمة كانت تحمل اسماً آخر، نظرت إلى موقعها مشدود الأجفان كأني أرى اسم مستشفى «حمزة» ثانية، خيّل لي أنني بعد قليل سأرى طبيبي هانس ومترجمه والممرضة عائشة وأمي وأبي، تماديت في تخيلاتي واندفعت في غورٍ عميق اشتد تزايده تخيلت فيه كل شيءٍ حولي مثلما كان عليه أيام طفولتي الباكرة.

أفقت على صوت عبد السلام يقول في هدوء: «السيدة المسؤولة في قسم الطوارئ تريد جواز سفرك الكندي».

أعطيتها جواز سفري، نظرت إليه في صمت، ثم تطلّعت إليَّ متسائلة: «من أي مدينة كندية أنت؟».

أجبتها دون تردد: «أنا من هنا من حيفا».

نقلتني تلك الكلمات إلى أجواء مكتظة بالانفعالات، تلمست بها طريقي الى عالم طفولتي الرحب الفسيح المليئ بأحلى الذكريات.

***

تم إنهاء الإجراءات الروتينية اللازمة لدخول المستشفى، توجّهت مع عبد السلام وعمر ووليد باتجاه رواقٍ طويل، توقفنا في نهايته أمام باب غرفة خصصت لي، فوجئت عندما دخلتها بأنّها تقع في الجهة المقابلة لجبل الكرمل، اقتربت من الشرفة وكدت أحبس أنفاسي عندما ألقيت نظرة عليه، توالت صور أيامه الماضية في رأسي، وأشياء كثيرة توالت معها يجذب أحدها الآخر نحوي، أحسست أنها أوقفت نزيف الدم في تلافيف مخي، تركت لنفسي حرية الدخول في خبايا التخيّل ثانية لأكون كيفما أريد، كي يحتويني الليل مع حيفا بعد غيابٍ طويل.

أعلمتني الممرضة المسؤولة أنها من كفر كنا، وهي نفسها بلدة قانا الجليل التي تحدثت عنها من قبل، بينت لي أنها ستشرف على إتمام ملفٍ مفصلٍ عن مرضي لتقديمه في الصباح إلى الطبيب الجراح، وأنّها سترافقني إلى الأقسام المختصة لإجراء الفحوصات المخبرية وصور الأشعة اللازمة، بدأت تجوالي معها داخل المستشفى، وفي الوقت نفسه ودعني عبد السلام وعمر ووليد على أمل اللقاء بهم في الصباح.

تم توفير كل المعلومات الصحية اللازمة للعملية، رجعت إلى غرفتي، وفيما كنت أرتدي ملابس النوم، سمعت طرقاً على باب الغرفة، فتحت الباب ووجدت سبعة شبان يقفون أمامي، أخبروني أن قريبي عبد السلام أخبرهم عني وأنهم أطباء عرب يتخصصون في المستشفى، دخلوا الغرفة، علمت أنَّ ثلاثة منهم من آل دراوشة وثلاثة من آل شلبي، أي أنّهم على علاقة قرابة مع أقاربي من نسل عمتي «نجية» والسابع كان صديقاً لهم من قرية دبورية العربية القريبة من إكسال.

حدّثوني عن المستشفى، وعن البروفسور زعرور الجرّاح الذي سيجري لي العملية، وبينوا لي ليطمئنوني أنّه من المشاهير في هذا التخصص، وأنَّ أموري الصحية ستكون على خير ما يكون.

عرفت منهم عن وجود أطباء عرب كثر من أفضل الأطباء في مستشفى رمبام وفي مستشفيات أخرى، منهم الدكتور أحمد عيد ابن عمّة قريبي عبد السلام دراوشة وهو أوّل من أجرى عملية كبد ناجحة في مستشفى هداسا، وجراح القلب الدكتور طايع الصفدي من مستشفى الكرمل في حيفا، ومن غريب المصادفات أنّه أجرى عملية قلب مفتوح لصديقي إسكندر النجار في مستشفى المقاصد العربي في القدس.

ومن الأطباء المشاهير أيضاً: الدكتور منذر بولس، والبرفسور نعيم شحادة، والبرفسور محمود أبو شقرة، والدكتور عماد أبو النعاج، والدكتور عبد العزيز دراوشة.

استهواني حديثهم عن وجود مشاهير عرب منّا في مجال الطب في تخصصات متميزة.. استغرق وجودهم معي بعض الوقت، ودّعوني في تمام العاشرة مساء، أغلقوا باب غرفتي وأخذ الليل يحتويني في المستشفى وحدي.

انقضى وقتٌ طويل منذ نمت في حيفا لآخر مرّة، رحلت عنها في العاشرة وأنا الآن في الهزيع الأخير من العمر، أذكر تماماً تلك الليلة الأخيرة، إنها أول سجلات أحزاني، حاكت في طياتها الأيام فصولاً طويلة من أحزان المنافي والشتات، أحمل تفاصيلها معي، وتتراكم في ذهني صورها الواحدة فوق الأخرى، أستعرضها دوماً بكل أبعادها وألوانها المتشابكة وتستثير حنيني إلى تلمس أحداث تلك الحقبة من طفولتي الباكرة.

(46)

بعد سنواتٍ طويلة، ها أنا ذا أرجع بالمصادفة إلى أحضان حيفا من جديد، أنظر من شرفة غرفتي، أراها على اتساع أطرافها، أرى فيها أنقاض بيوت أهلي، يدور حولها صدى أيّامنا الماضية، وتلمع على جدرانها وأبوابها وجوه أصحابها، رأيت وجه والدي عن بعد في مكتب البوسطة (البريد) على مقربة من شارع الخياط، ورأيت وجه أمي على اتساع المدى.

لاحقاً، في صباح اليوم التالي، فيما كنت أجيل نظري لرؤية المزيد من أحياء حيفا، دخل طبيب إلى غرفتي، قدّم لي نفسه بأنه مساعد البروفسور زعرور الذي سيجري لي العملية، أعطاني تفاصيل كثيرةً عنها وأخبرني أنَّ مساعداً آخر للبرفسور سيشارك في إجراء العملية، وبيَّن لي بأنها ستجرى في الجهة اليمنى من رأسي في الساعة الرابعة مساء، وأنّه لا حاجة لإجراء عملية في الجهة اليسرى، وضح لي أنّ ثلاثة أنواع من الأدوية ستعطى لي بعد العملية لفترة قصيرة لا تزيد عن شهر واحد وأنني سأبقى في المستشفى مدة أربعة أيّام بعد العملية، ويمكنني فك الغرز عند أيّ طبيب بعد أسبوع، وأكد لي أنني لن أحتاج إلى مراجعة في مستشفى رمبام أو عند أي طبيب آخر للأعصاب بعد ذلك.

ذلك اليوم، أتى عندي عبد السلام وعمر وابني وليد، ولحق بهم عدد كبير من الأهل في مقدمتهم حسناء وفاطمة وأبو رستم وإدريس وفايز وحاتم وحكيم وأمير وحمودة وعلاء وآخرون من نسل عمتي نجية.. اختليت بعبد السلام، وأوصيته في حالة وفاتي أنْ أدفن في حيفا على مقربة من ضريح إميل حبيبي وأنْ يكتب على قبري «أنا من هنا»، اخترت أنْ أجاوره لأنّه أوصى أنْ يكتب على ضريحه «باقٍ في حيفا».

وعدني عبد السلام بأنّه سينفذ وصيتي، وفي لحظة أخذ يطمئنني بأن العملية ستمد بعمري وترجعني إلى سابق نشاطي.

تلقّيت في ذلك اليوم مكالمات من زوجتي رويدة وابني هاني وابني فادي وزوجته لندا ومن أصدقائي سمير نور وجورج عزارة وطارق قديس ومحمد الأطرش وابتسام وفادي الهاروني، وقبل دخول قاعة العمليات بوقتٍ قصير، اتصل بي ابني فادي ثانية، لم أسمع صوته على الطرف الآخر، سمعت صوت حفيدي ليث، كان عمره أقل من عامين بقليل، قال لي بصوت عالٍ «سيدو حبيبي» كررها عدة مرات،أدخل السعادة إلى قلبي، وجعل أملي بنجاح العملية أقوى مما كان عليه من قبل.

أدخلوني غرفة العمليات، جاء طبيب التخدير وخلفه أربعة من المساعدين يرتدون لباس غرف العمليات، التفّوا حولي، وضع أحدهم دائرة مطاطية حول ذراعي الأيمن، وبعد عدة دقائق وضع آخر قناعاً على وجهي وطلب مني أن أتنفس بعمق.. وفيما كنت أستنشق الهواء النقي، بدأت أشعر بالدوار، وفقدان الرؤية الواضحة.

بعد ذلك وجدتني في غرفة كبيرة، أنوارها ساطعة، وعلى جانبي عدة مرضى مستلقين على أسرة مثلي، أسمع طنين أجهزة مثبتة على مقربة مني، وأشمّ رائحة أدوية، وأرى ممرضات في زي

أبيض يقفن حولي، إحداهن قالت لي بلهجة عربية جليلية: «حرك إيدك عمو، حرك رجلك، حرك، حرك».

لاحظتني وأنا أحرك رجليّ ويديّ بسهولة.. ابتسمت، وأضافت: «استمر بالتحريك، مبروك عمو عمليتك ناجحة».

بعد ذلك لاحظت وجود كيس بلاستيكي، معبأ بمحاليل طبية وريدية مثبت على رافعة قرب سريري، تسيل الأدوية منه إلى جسدي عبر إبرة ثبتت قبل العملية قرب معصم يدي اليسرى.

بعد نحو ساعة في غرفة الإنعاش، استجمعت قواي وتحسست رأسي، وجدت أنبوباً مطاطياً مغروساً في جهة رأسي اليمنى، وفي نهايته كرة مطاطية لحفظ الدم السائل فيها، لاحظت بقع دم على رداء العملية، تسربت بعض النقط عبر الشاش الملفوف على رأسي.

عادت الممرضة، قالت لي في صوت هادئ ودافئ: «سوف تخرج بعد بضع دقائق وترى أهلك».

سألتها: «هل انتهى كل شيء».

قالت لي: «نعم سترى طبيبك بعد قليل في غرفتك».

أخرجوني من غرفة العمليات.. التقيت أهلي من إكسال، أسعدتني طلّتهم.

بعد فترة وجيزة، زارني طبيبي وأخبرني أن العملية تمت بنجاح، هنأني، وشكرته وشكره عبد السلام وعمر وابني وليد وبنت عمتي حسناء وكل الحضور، تعبأت غرفتي بالزهور وعدة أنواع من السكاكر والحلويات، وزعت الكثير منها على الممرضات والممرضين.

في صباح اليوم التالي، أُخذت لرأسي صورة مقطعية جديدة أكد تقريرها على توقّف النزيف في دماغي ما يعني نجاح العملية، وفي الوقت نفسه طلب مني طبيبي المشي في المستشفى بمرافقة الممرضات، كُن أثناء التجوال يحدثنني عن قراهن العربية في الجليل، تجولت معهن في أقسام المستشفى المختلفة وتوقفت بعض الوقت في قسم الأطفال الذي عملت فيه الدكتورة دعاء بكري التي شجعتني على إجراء العملية في رمبام.

حصلت على تقريرٍ نهائي لحالتي المرضية، وخرجت من المستشفى في اليوم الرابع بعد إجراء العملية، رافقني عند الخروج قريبي عبد السلام وابني وليد، كنت في وضع صحي جيد.

لاحظت في البهو الأرضي على مقربة من باب المستشفى مجسماً لموسى بن ميمون(********) بلباسه العربي الأندلسي مثبتاً على الجدار لكون المستشفى كما بينت آنفاً يحمل اسمه (الأحرف الاولى من اسمه العربي رابي موسى بن ميمون) وقفت أمامه ووجدت على مقربة من مجسمه خزانة مغلقة فيها بعض كتبه باللغة العبرية من أيّامه الأندلسية، يمكن قراءة بعض صفحاتها من خلف الزجاج، تذكرت أنَّ هذه اللغة استخدمت في الكتب في العهد الأموي القرطبي لأول مرة بعد إهمالها طوال فترة طويلة من الزمن.

تمشينا فترةً من الوقت بقرب شاطئ منطقة بيت جليم حيث يوجد المستشفى، استولى عليّ في تلك اللحظة مستشفى حمزة بطغيان ذكرياته، استرجعت صورةً من ذاكرتي، وضعتها أمام عينيّ بكل ما فيها من أشكال الناس وحركاتهم وفي مقدمتهم أطباؤه، حمزة وهانس واليشرطي وغيرهم والممرضة عائشة على مقربة منهم، وأرى نفسي مع والديَّ مع بدء حياتي الجديدة بعد علاجي،

تترابط أصواتهما مع أصوات آخرين غيرهم من الأهل والأصدقاء وهم يجلسون في بهو المستشفى، أحدّق بهم واحداً واحداً وأشتمُّ رائحة طفولتي تنتشر حولي وتنفذ في أعماقي.

أفقت فجأة ًعلى صوت ابني وليد، قال وهو يلتقط صورة لي: «أظنك كنت تستعيد ذكرى مستشفى حمزة».

أجبته: «نعم، كان يجذبني بقوته العجيبة وينساب سرابه أمام عيني».

في تلك اللحظة تدخَّل عبد السلام، وجّه كلامه لي يذكّرني بأنَّ وليداً لم يزرْ حيفا من قبل، وأنه لا بد من تعريفه ببعض أجزائها.

مشينا معاً في الساحة الكبيرة الملاصقة للمستشفى، إلى أنْ بلغنا سيارة عبد السلام، اتجهنا إلى مدخل الطريق الرئيسي القريب وانطلقنا فيه إلى حيّ الألمانية وحيّ وادي النسناس وساحة الحناطير «الخمرة» بعد ذلك اتجه عبد السلام بسيارته إلى الجزء الشرقي من حيفا، عرفه على حي وادي الصليب والكنائس، وشارع الملوك ومسجد الاستقلال وعمود فيصل، ثم تابع سيره في شارع الناصرة، وبعد قليل توقف على مقربةٍ من منزل أسرتي، وسمعته يقول له بصوته الهادئ: «هذا منزل جدك يا وليد، خلف بابه المغلق بدأت حياة والدك».

أيقنتُ آنذاك أنّ زمني الذي مضى وأصبح في تتابع الأيام بعيداً عني لايزال يستولي على واقعي المعيش، يزحف في أثري، أقوى مني، تتوالى لحظات ذكراه مع تتابع الأيام دون توقف، ويعيدني دوماً إلى زمن طفولتي بأصواتها وحركاتها وكل ما فيها، ليس هناك من يستطيع أنْ ينتزع مني تلك الذكرى.

في تلك اللحظة استيقظت لدي بعض الكلمات التي بدأتُ بكتابتها في غرفة المستشفى، رددتُ حروفها الأولى بصوت متهدج بعد إجراء العملية بقليل، وها أنا أُعلي صوتي بها أمام بيت أسرتي في شارع الناصرة:

أنا من هُنا

أمي هُنا

وأبي هُنا

أهلي هُنا

وهذا البحرُ

مُلكي أنا

أنا موجهُ

وندى الرذاذ.

بيتي هُنا

من ألفِ

عامٍ

ألفِ عامْ

هذي حجارتُه

مثل السحابْ

لهُ ألفُ بابٍ

ألفُ بابْ

أفتعرفين الآن

من أنا؟

أنا من هُنا

من ثرى حيفا

بيتي هُنا

يبقى هُنا

يبقى هُنا.

(47)

شعرت بفرحٍ عندما طلب مني عبد السلام وحسناء البقاء في ضيافتهما حتى أستجمع قواي، رجع ابني وليد وحده إلى مقر عمله في دبي، وبقيت عند الأهل في إكسال، بعد نحو أسبوع زرت الدكتور محمد دراوشة في عيادته، وهو حفيد عمتي نجية وشقيق حسناء، أزال لي قطب العملية، أكد لي أنَّ الجرح تحسن بشكلٍ جذري دون ندوب واضحة، ولا أثر له على مظهر رأسي وشعري، وأستطيع متابعة حياتي كما يحلو لي، كما كنت أعيش من قبل.

بقيت في إكسال نحو ثلاثة أسابيع، جعلت تلك الأيام ذاكرتي مفتوحة على مصراعيها، أدخلت فيها وجوهاً جديدة من نسل عمتي نجية وأقربائها، تعرفت على الأستاذ عبد الوهاب دراوشة النائب السابق، والدكتور وليد دراوشة، والمربي محمد حسين شلبي، ورستم شلبي، وسهام وجمال دراوشة، والمربي أحمد يحيى، والشيخ فايز شلابنه، كماعرّفني ابن عمتي محمد شلبي «أبو رستم» على عمه أحمد، رجلٌ كبير يقترب عمره من الخامسة والتسعين، يقرأ من غير نظارة ولديه ذاكرة عامرة، حدثني عن زمن عاشه على امتداد عمره الطويل، فاجأني أنه يعرف أمي وأبي وكل أقربائي، ويعرف بُرقة، كان يزورها كثيراً قبل النكبة، وحدثني كثيراً عن عمتي نجية زوجة أخيه، ترك حديثه في نفسي أثراً كبيراً.

كما تعرّفت في تلك الأيّام على أقرباء جدد، شاركت أقربائي بجاهة لطلب يد عروس من عائلة أخرى، كان العريس حفيد عمتي نجية؛ أصر خاله أبو رستم على أنْ أتحدث باسمهم وأطلب يد العروس من والدها، استمعت مشدوهاً إليه وهو يقدمني للحضور، أسعدني طلبه، ألقيت كلمةً طويلة كانت معانيها انتقائية بطبيعتها لم أستطع أنْ أفلت فيها من قبضة العاطفة الجارفة.

في غضون تلك الأيّام استمتعت برحلاتٍ متعاقبة زرت فيها طبريا وحمامات طبريا وعكا وسمخ وحطين وعين جالوت، والشجرة بلد الفنان الراحل ناجي العلي، والسنديانة بلد الدكتور محمود نزال وصالح العصفور، وصبارين بلد الكاتب سليم النجار، كما زرت أيضاً سخنين وشاهدت فيها النصب التذكاري ليوم الارض، من الأعمال الإبداعية المشهورة لصديقي الفنان الحيفاوي المعروف عبد عابدي(********)، كذلك زرت جبل الطور الذي تجلّى عليه السيد المسيح لطائفة من تلاميذه.

كان عبد السلام وحسناء وعمر وفاطمة هم الذين ينتقون الأماكن التي نتجول فيها، يعرفونني على لوحات جميلة منها تستدرج البصر، وتمنحني مسرةً لا توصف، كنت وأنا معهم أحول تلك اللوحات إلى كلمات أسجلها أمامهم حتى أخلدها في سطور يمكنني العودة إليها في مقالاتي وأعمالي وأعيد تشكيلها في غربتي من جديد.

عندما أستعرض شريط تلك الأيام الآن أرى أنّ المناظر الطبيعية تشابكت في مسارات تلك الرحلات.. جُلنا طويلاً في هضاب وتلال وسهول كثيرةٍ ساحرة في مرتفعات اللجون وعين المنسي، مساحات واسعةٍ مكسوة بأشجار السنديان والبطم والجوز وغيرها من الأشجار بأغصانها

الملساء وأوراقها اليانعة الخضراء، أشجار وارفة الظلال تمتد على مساحات واسعة تبدو وكأنها تعانق السماء بطولها.

ويذكرني شريط تلك الأيام بالأرض الممتدة في الحقول وفي أحضان التلال، مرصعة بأزهار عديدة الألوان تغلب عليها ألوان الدحنون والبرقوق وشقائق النعمان، تتلألأ ألوانها في كل مكان.

سرت في أمكنة كثيرة على جانب أنهر صغيرة قريبة القاع تترامى بين الحقول والبساتين، وعلى مقربة منها رأيت شلالات كثيرة تنحدر المياه في مجراها من قمم تلال عالية، تثير مع شدة انحدارها أصواتاً هادرة دون انقطاع، تذكر بأصوات إيقاعات باخ وبرامز وغيرهما، كنت أسمع معها من وقت لآخر صوت قطرات ماء تتناثر خارج مجرى الشلالات، ليس من الممكن وصف تلك الأجواء أو التعبير عنها، كل ما يمكنني قوله أنه من شدة سعادتي بها رأيت نفسي في تلك اللحظات على خلاف ما تعودت أنْ أراها من قبل.

تجولنا عدة أيام في تلك المناطق الساحرة من الظهيرة وحتى هبوط الليل، عرفتني تلك الرحلات على بلدي من جديد، تيقظت معها حواسي كلها وتدفقت في أعماقي تخيلاتٍ جميلة لا حدود لها، أعادت حقبةً من يفاعتي دالة ومؤثرة.

بعد أسبوعين من إجراء العملية، زرت برفقة عبد السلام صديقه الدكتور ساهر عابد في عيادته في مستشفى الناصرة، استقبلني بحفاوة وقدمت له الشكر على كل ما فعله من أجلي.

أخذ صورةً مقطعية جديدة لرأسي، وطمأنني أن وضعي الصحي على ما يرام، وأستطيع ممارسة حياتي الطبيعية كما كنت عليها قبل العملية، وعدني أنْ يقوم شخصياً بترجمة تقرير مرضي الذي تسلمته في مستشفى رمبام إلى اللغة الإنجليزية، وهذا ما تم فعلاً، أرسله لي مترجماً في البريد الإلكتروني، كان لهذه اللفتة أثرها الكبير في نفسي بدا لي متألقاً بمنسوب عالٍ من طيبة أهل بلدي.

في مساء ذات يوم، فيما كنت أتابع الغروب من شرفة منزل قريبي عبد السلام دراوشة كانت الشمس تغيب تدريجاً وراء الأفق البعيد، والسكون يخيم على امتدادات مرج بن عامر القريبة، قلت له : «غداً سأتوجه إلى عمّان».

حاول أن يُبقيني في ضيافته فترة أخرى، شكرته، كان إصراري قوياً على السفر،اتفقنا أنْ يزورني قريباً في عمّان مع حسناء وعمر وفاطمة.

في صباح اليوم التالي ودعت الأهل في إكسال، عبرت لهم بعاطفة جياشة عن اعتزازي بهم، وعن شكري لهم لما غمروني به من مشاعر أنستني آلام المرض، قلت لهم بصوت متهدج: «كنتم لي بلسمي ودوائي».

اتّجهت مع عبد السلام وعمر إلى جسر الشيخ حسين، كنا نخترق المرج في بطء، ونتبادل أحاديث متقطعة عن جمال الأشجار الممتدة على جانبي الطريق، وعن عبورنا الحياة عبر مسارات فراق متواصلة غير عادية بكل إيقاعاتها وأحداثها.

وصلنا الجسر، ودعتهما، واجتمعت في نفسي أحاسيس لا توصف.. قلت لهما بصوت متهدج:

«سأظل محتفظاً على الدوام بذكرى أيامي عندكم».

ابتعدت عنهما.

لوحت لهما بيديّ عن بعد.

شعرت في تلك اللحظة أنَّ جذوري بهما أصبحت أعمق وأكبر.

شعرت أنّني بالبحث عن الجذور تعرفت على نفسي أكثر، وتأكد لي أنَّ لدي ما يكفي لكي أكون جذراً لأحد، يكفي لكي تتدفق عصارة جذوري إلى أحفادي، لكي تنبت في فصول أيامهم، ويتعرفون بها على وطنهم بأرضه وإرثه التاريخي المتراكم عبر الزمن.

المؤلف في سطور

- ولد عام 1938 في مدينة حيفا بفلسطين.
- حصل عام 1967على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة بلغراد.
- عمل سابقاً مستشاراً اقتصادياً في ثلاث مؤسسات إقليمية عربية.
- انتخب في عام 1990 رئيساً للاتحاد العام للاقتصاديين الفلسطينيين ـ فرع الكويت.
- عضو رابطة الكتاب الاردنيين.
- يعمل حالياً مديراً للمركز الكندي لدراسات الشرق الأوسط في مدينة مونتريال بكندا.
- ساهم في تأسيس الصالون الثقافي الأندلسي في مونتريال كرافد ثقافي للمركز الكندي لدراسات الشرق الأوسط.
- نشر مجموعة شعرية بعنوان «الوجه الآخر للأيام» عن دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، 2011.
- نشر نصوصاً نثرية بعنوان «رؤى وتأملات» عن دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، 2012.
- صدر له خمسة عشر كتاباً في مختف المجالات الاقتصادية باللغتين العربية والانجليزية منها:
- المشروعات العربية المشتركة، الواقع والآفاق، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988.
- الموسوعة الاقتصادية (جزءان)، دار الشروق، عمان ـ رام الله، 2008.
- تحديات التنمية العربية، دار الشروق، عمان ـ رام الله، والمركز الكندي لدراسات الشرق الاوسط، مونتريال، 2009.
- قضايا اقتصادية عربية، دار الشروق، عمان ـ رام الله، 2009.
- وجهة نظر اقتصادية، دار الشروق، عمان – رام الله، 2010.
- الأزمة المالية العالمية نهاية الليبيرالية المتوحشة، دار الشروق، عمان ـ رام الله، 2011.

smasoud38@hotmail.com

الهوامش

(*) تفيد الموسوعة الحرة ويكيبيديا أن علاقة فلسطين بكرة القدم ترجع إلى عام 1908 حيث تشكل أول فريق كروي في مدرسة الروضة في القدس، وازدهرت كرة القدم بعد ذلك وتأسس الاتحاد الفلسطيني لكرة القدم عام 1928، وانضمت فلسطين رسمياً للاتحاد الدولي لكرة القدم عام 1929، وشاركت في تصفيات كأس العالم عام 1934 الذي أقيم في إيطاليا، وكانت نتيجة مباراتي فلسطين أمام مصر هي الفاصلة في الوصول إلى نهائيات مونديال إيطاليا 1934.. وخسرت فلسطين مباراتيها أمام مصر في القدس والقاهرة وتأهلت مصر إلى النهائيات. وشاركت فلسطين أيضاً في تصفيات العالم 1938، وبهذا كان المنتخب الوطني الفلسطيني لكرة القدم أول منتخب عربي آسيوي يشارك في تصفيات كأس العالم.. ازدهرت بعد ذلك الكرة الفلسطينية في بداية الأربعينيات، ونشأت العديد من الفرق الفلسطينية المهمة (18 فريقاً من الدرجة الأولى و24 فريقاً من الدرجة الثانية) ومن أشهر اللاعبين الفلسطينيين في تلك الفترة كان جبرا الزرقا وجورج مارديني وميشيل الطويل وعبد الرحمن الهباب ورشاد الشوا وحيدر عبد الشافي وجورج رشماوي وصبحي الزهر.. وتجدر الإشارة إلى أنَّ اليهود أسّسوا في حيفا فريق نادي مكابي في عام 1913، ولايزال حتى الآن من أعرق أندية كرة القدم وأفضلها، ضم على مر السنين الكثير من اللاعبين العرب، على رأسهم نجمه السابق زاهي أرملي، برصيده أكبر عدد أهداف في تاريخ الفريق، وهناك ستة من اللاعبين العرب المميزين الذين يضمهم الفريق في الوقت الحاضر.

(**) كلمة عربية تعني الأرض ذات الحجارة المختلفة الألوان، كتب عنها مصطفى الدباغ في كتابه الموسوم «بلادنا فلسطين» العبارة التالية:».. ومن يشرف على التلال الواقعة على الطريق بين بُرقة وسيلة الظهر يرى منظراً جميلاً من أجمل المناظر في الوطن الحبيب، حيث يطل على الأودية المخضرة والقرى المنتشرة هنا وهناك والجبال الشامخة، وإذا وجّه وجهه نحو الغرب يزداد المنظر جمالاً وبهاءً لرؤية السهول الممتدة على الشاطئ البحري الجميل».

(***) أسس صندوقاً في لندن في عام 2000 لمصلحة مشاريع خيرية في عكا، زارها في السنوات القليلة الماضية مرات عديدة، ويذكر عنه أنه كان يحرص كل صباح على القيام بجولات ميدانية في أحياء عكا وأزقتها والجلوس في المقاهي مع أهلها.. موّل فيها عدة مشاريع خيرية، وقد افتتحت مدرسة «حلمي الشافعي» في عكا في 23-6-2011 مكتبة في بنايتها سميت باسم مكتبة «الدكتور عبد اللطيف اليشرطي» تكريماً له على أعماله الخيرية في عكا ولحبه لمدينته التي ظل مسكوناً بها رغم فراقه القسري عنها، والمعروف أنه أحد أحفاد علي نور الدين اليشرطي الذي نشر الطريقة الشاذلية الصوفية في عكا، المدينة التي أحبها، عاش وتوفي فيها، علماً أنّه يرجع في أصوله إلى مدينة بنزرت التونسية التي ولد فيها في عام 1796، ولايزال ضريحه قائماً في الزاوية اليشرطية في عكا حتى الآن، أحد مزارات المدينة المهمة التي تعتبر المركز العالمي الأول للطريقة الشاذلية الصوفية المعروفة وفيها تقام حلقات الذكر الصوفية حتى الآن.

(****) أقام البهائيون بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين معبداً لهم في سفح جبل الكرمل جعلوا هندسته على طريقة ترمز للأديان الثلاثة السماوية إشارة إلى وحدة الأديان وإعلان السلام بين

البشر، واتخذ شيخهم عباس مقاماً له بجانب المعبد يطل على حي الألمانية وأحاطه بحديقة ضخمة مغروسة بشتى أنواع الأشجار والأزهار تعرف باسم حديقة البهائيين وتعتبر معلماً سياحياً بارزاً في حيفا.

(*****) حي يقع في الجزء الغربي من المدينة في أراضي الموارس، ملاصق لحي وادي النسناس في أسفل حدائق البهائيين، يحيط به البحر والكرمل من جهتيه، فيه دورٌ حجرية متشابهة في طرازها لها حدائق مزروعة بأجمل الأشجار وشوارع واسعة تظللها الأشجار الباسقة على كلا جانبيها، كان كمتنزّه عام لسكان حيفا كافةً يقصدونه في كل مساء، أسسته جالية ألمانية من طائفة الكاثوليك، هاجرت إلى حيفا في عام 1870، رجع بعضهم إلى ألمانيا عند إعلان الحرب العالمية الثانية، ووضعت حكومة الانتداب المتبقين منهم في معتقلات خاصة ثم أبعدتهم إلى أستراليا وكندا ووضعت يدها على ممتلكاتهم.

(******) لدي ضمن مقتنياتي الشخصية عدة أعداد من مجلة «هنا فلسطين» تركها لي والدي، كانت تصدر عن القسم العربي للإذاعة الفلسطينية وتنشر برامج الإذاعة العربية لمدة أسبوعين، أنقل من عدد 10 تشرين الثاني عام 1940 (العدد الثاني والعشرون، المجلد الاول) مقتطفات مختارة من برنامج الإذاعة في ذلك العدد: «الأختان نوال ووداد موسيقى وغناء مع فرقة الإذاعة، عزف على العود روحي الخماش، أغاني فهد نجار مع فرقة الإذاعة، فرقة الإذاعة وسعاد عز الدين منولوجات فكاهية، فرقة الإذاعة وتيسير فيض الله جابر موسيقى وغناء (تسجيل مصلحة الإذاعة الفلسطينية)، عزف على الربابة وأغانٍ بلدية أنطون شحادة وإلياس الشاعر، فرقة الإذاعة والآنسة أمل، رباعي عبد الكريم والسيد يوسف رضوان موسيقى وأغانٍ بلدية، عزف على الربابة وأغانٍ بلدية سعيد عثمان، فرقة الإذاعة والسيدة رجاء الفلسطينية موسيقى وأغانٍ بلدية، حديث للأطفال للآنسة وديعة، فرقة الإذاعة ومحمد غازي موسيقى وغناء، فرقة الإذاعة وعارف أبو السباع موسيقى وغناء، حديث التدبير المنزلي سلوى السعيد، فرقة الإذاعة والسيدة فاطمة محمد موسيقى وغناء، التقرير الرياضي الأسبوعي كاشف مراد، عزف على الربابة وأغانٍ بلدية إبراهيم الشوملي، من روائع الموسيقى الغربية، فرقة الإذاعة والسيد عبد الرحمن الداوودي موسيقى وغناء، مونولوجات فكاهية يوسف حسني، إرشادات صحية للأمهات للدكتورة سلوى خوري، حفلة موسيقية أوركسترا الإذاعة العربية، ألحان على البيانو يسري جوهرية، تمرينات رياضية في الصباح إبراهيم سليم نسيبة، فرقة الأنغام الشرقية بقيادة روحي الخماش، تعلم الإنجليزية إميل عياش، جميل العاص غناء، يوسف رضوان غناء، آرتين ترياقيان عزف منفرد، عامر خداش غناء، زاوية المرأة للآنسة فوزية الزعبي، عزف منفرد على البيانو يوسف بتروني، رواية هزلية لبربري فلسطين.

(*******) انتهت شراكته فيها فيما بعد، وساهم مع حسيب صباغ وسعيد خوري في تأسيس شركة اتحاد المقاولين التي بدأت مسيرتها في حيفا، ومن ثم انتهت شراكته فيها أيضاً.

(********) تمكنت من التواصل معه بعد ما يقرب من أربعة وستين عاماً، تذكّرني.. تحدثت معه عبر اتصالات هاتفية عديدة، تدفقت الذكريات، اندفعت قوة الحياة القديمة منها، اجتاحت كل الأماكن المعروفة في حيفا، اتسع حديثي معه واشتمل على أمور كثيرة لم ننسها بمرور الأيام.. هي الجذور التي أبحث عنها، ويهمني تسجيلها وحفظها، قبل أن تختفي وتتوارى في طيات النسيان.. اتفقت معه على اللقاء في مدرستنا القديمة، في شارع البرج، التي لاتزال تنتظر طلابها.

(********) قررت بريطانيا في شباط / فبراير 1947 التخلي عن انتدابها على فلسطين ورفع قضيتها إلى هيئة الأمم المتحدة لتقرر مصيرها، الأمر الذي أدى في أيار/ مايو 1947 إلى تأليف لجنة تحقيق دولية (UNSCOP)وقد زارت هذه اللجنة فلسطين، وأوصت هيئة الأمم المتحدة في أيلول /سبتمبر 1947 بتقسيم فلسطين إلى دولتين على ضوء تقرير هذه اللجنة، وبعدها أعلنت بريطانيا في 8 كانون الأول / ديسمبر 1947 أنها ستُنهي انتدابها على فلسطين في 15 أيار / مايو 1948، وأعلنت أنّ انسحابها سيتم عن طريق ميناء حيفا، وأنها ستحافظ على جيب قريب من حيفا لبضعة أسابيع بعد نهاية انتدابها، لمقتضيات لوجستية بحتة تتعلق بانسحاب قواتها المسلحة.

(********) تتبلور في بعض المراجع مفاهيم تعبر عن قدسية زيت الزيتون، يظهر منها أنه اعتبر مقدساً على امتداد آلاف السنين، وفي هذا الخصوص أرجع قدماء المصريين إلى «الإلهة إيزيس» فضل تعليم البشر زراعة شجر الزيتون واستخدامه» واعتقد الإغريق في أساطيرهم أن «أثينا» ربة ألحكمة وهَبَت الزيتون لبني البشر، وعليه فازت في مسابقة بين الآلهة لتقديمها أكثر العطايا فائدة وأهمية.. ولزيت الزيتون قدسية في أيامنا المعيشة، فلايزال يستخدم لتقديس الهياكل، وللتعميد، وكلمة «المسيح» تعني الممسوح بالزيت.. وهناك إشارات كثيرة لزيت الزيتون في الكتاب المقدس، كحكاية العذارى الحكيمات والحمقاوات، (الزيت كوقود للمصابيح)، وقصة السامري الطيب (الزيت كمرهم)، وكذلك إنقاذ النبي اليشع للمعوز (الزيت كسلعة تجارية)، كما يذكر القرآن الكريم شجرة الزيتون كشجرة مباركة..

(********) تواصل اهتمامي بالمسكوكات القديمة طوال عمري، وأحفظ منها مجموعة من النقود الرومانية والبيزنطية والساسانية والأموية والعباسية والفاطمية والعثمانية والسلجوقية سكت من النحاس والبرونز والفضة والذهب الخفيف، أفادتني في دراسة التاريخ السياسي والمالي والاقتصادي، وعلى وجه الخصوص ملاحظة التطور في تكوّن الدول وتوسعها، ومعرفة لوائح السلالات الحاكمة في الدول المختلفة، وضبط تواريخ حكمها بكثير من الدقة، ومعرفة النواحي الجغرافية للمدن التي ضربت بها النقود على امتداد نفوذ الدول والحكام، كذلك أفادتني كثيراً في إضافة مصطلحات كثيرة عن النقود العربية والأجنبية إلى الموسوعة الاقتصادية التي عملت على تأليفها طوال أربعة عقود وأصدرتها في عام 2008، هي الأولى من نوعها باللغة العربية اتساعاً وعمقاً، تتناول بمنهجية علمية في مجلدين على أكثر من ألف صفحة ؛ التعريف بمجموعة كبيرة من المصطلحات الاقتصادية العلمية بما فيها مصطلحات كثيرة عن المسكوكات النقدية القديمة ؛ بدأت علاقتي معها في سنوات عمري الباكرة عند زيارتي سبسطية.

(********) قرار رقم 181 الذي تبنته الجمعية العامة للأمم المتحدة في تشرين ثاني 1947، بناء على قرار أغلبية أعضاء لجنة تقصي الحقائق الخاصة التي شكلتها الجمعية العامة حول الوضعية المستقبلية لفلسطين، كان حصة الدولة اليهودية المقترحة 56 %، من أرض فلسطين التاريخية رغم أن اليهود مثّلوا في ذلك الوقت أقل من ثلث السكان، ولم يملكوا سوى 7 % من الأرض، وقد رُفض هذا القرار من قبل عرب فلسطين، كما ووجه بإضراب عام وإغلاق لكل المدارس الحكومية والأهلية.

(********) أسسها «اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب» ناطقة باسمه، وظهر عددها الأول في 14 أيار 1944، وكان رئيس تحريرها الأول إميل توما أحد قادة الاتحاد، ولاتزال تصدر كجريدة يومية حتى الآن في حيفا باسم «الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة».

(********) زعيم نقابي من قرية عرّابة (جنين)، مثّل جمعية العمال العربية كعضو في الهيئة العربية العليا، طالب في المؤتمر الأول لتنظيمه النقابي بتحويله إلى حزب سياسي على غرار حزب العمال البريطاني؛ تتفق المراجع على أن قيادة المفتي التقليدية استهدفت من وراء اغتياله إضافة إلى التخلص منه كزعيم نقابي كبير، توجيه رسالة تهديد لكل من يعارضها وعلى وجه الخصوص قادة اليسار الفلسطيني من عصبة التحرر الوطني وقادة مؤتمر العمال العرب وموسى العلمي الذي كانت له مشاريعه السياسية المعارضة للمفتي وأتباعه.

(********) تعج الكثير من الكتب بمعلومات وافية عن الاغتيالات السياسية التي نفذتها القيادة الفلسطينية التقليدية بزعامة المفتي للقضاء على أصحاب الاجتهادات الوطنية التي اختلفت معها في الرأي، وقد طالت تلك السياسة البغيضة عدداً من شخصيات العمل العام مثل حسن صدقي الدجاني ورافع الفاهوم وعبد السلام البرقاوي وعادل جراح وميشيل متري وغيرهم.

(********) ضابط من ضباط الجيش الأردني المؤمنين بقضية أمتهم، تطوع لنجدة الفلسطينيين، اختير من قبل اللجنة القومية لحيفا قائداً لحمايتها، لجرأته وشجاعته وقدراته العسكرية المتميزة، تمكن من قيادة المجاهدين في عدة معارك مهمّة، حققوا فيها النصر تلو النصر، كانت قيادته في منطقة حمّام الباشا، على مقربة من مستشفى الأمين، استشهد يوم الأربعاء، بتاريخ 17/3/1948، في كمين يهودي نُصب له على الطريق بين عكا وحيفا، وهو عائد من لبنان، حيث كان بمهمة عسكرية للحصول على السلاح واستشهد معه 15 مناضلاً، منهم أبرز المقاتلين المرابطين في حيفا.

(********) مذكرات رشيد الحاج ابراهيم 1891-1953: «الدفاع عن حيفا وقضية فلسطين، تقديم وليد الخالدي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2005» وتُعرف مؤسسة الدراسات الفلسطينية هذه المذكرات بأن مؤلفها الذي قاد المقاومة في حيفا قبل سقوطها قد دوّنها «بعد النكبة وتحت وطأتها المباشرة بغرض مصارحة أبناء شعبه عن مسؤولية الزعامة الفلسطينية عما حدث، مستعرضاً أداء هذه الزعامة ونهجها السياسي خلال عقود الانتداب السالفة، وما يميز هذه المذكرات أنها لا تنطلق من منطلق العداء أو حتى المعارضة لهذه الزعامة، وإنما من شعور ضميري عارم، لفداحة الخطب، بواجب تسجيل الحقائق كما يراها المؤلف بموضوعية لا تعرف المجاملة، مع عزوف عن التجريح والإساءة الشخصية، الأمر الذي يجعل هذه المذكرات إضافة نادرة إلى أدب النقد السياسي الذاتي العربي، ونصاً فلسطينياً قلَ مثيله عن النكبة وأسبابها من موقع شاهد عيان ينتمي إلى النخبة السياسية الفلسطينية».

(********) ذكر بعضَهم الصحفيُّ ناصر الدين النشاشيبي في كتابه «للحيطان آذان» أنقل هنا ما كتبه عنهم بالنص «بعض زعماء فلسطين الذين عاشوا طوال حياتهم في ممارسة ما يسمى «بالقضية الفلسطينية» واشتهروا في مواقفهم السياسية بالتطرف والعنف وعدم التفريط في شبر واحد من أرض فلسطين، انتهى بهم الأمر فأصبحوا شبه مستشارين أو شبه خدم في بلاط الملك سعود يواسونه ويسامرونه في لياليه، ويقومون بدور المترجم بينه وبين رؤساء أمريكا ومديري شركات البترول، لقد أكلت نكبة فلسطين أرض فلسطين، ولكن أكلت أيضاً كلَّ الكرامة والعز وكل الضمير وكل الوجدان عند بعض زعماء فلسطين، فتنكروا حتى لزوجاتهم ولأهلهم ولأصدقائهم ولمعارفهم ولم يأبهوا إلا لجمع المال بأي شكل وعلى أي سبيل..!».

(********) اعتبره وثيقة عائلية مهمة تتضمن معلومة أساسية عن أصل جذوري في حيفا، ولهذا تمكنت في عام 2011، بناء على كرت والدي من الحصول على كرت من مكتب الأونروا في عمان خاص بي وبأسرتي، وكرت آخر خاص بابني الأكبر وأسرته.

(********) بعد ستة عقود من النكبة أكد لي الشاعر الدكتور خالد الجبر من كفر سابا متانة تلك القرابة.

(********) فوزي القاوقجي، هو قائد فوج اليرموك التابع لجيش الإنقاذ الذي ألفته جامعة الدول العربية من المتطوعين العرب في سائر أقطارهم، واستعدّت الجامعة لتزويد هذا الجيش بالعتاد والذخيرة، وعهدت قيادته إلى اللواء الركن إسماعيل صفوت باشا!

(********) ولد في مدينة الرملة في عام 1882، فقد بصره وهو في التاسعة، درس الفقه واللغة والتاريخ في الأزهر، وقد أعجب به الشيخ محمد عبده، بعدها درس القانون في الآستانة، مارس المحاماة وأصدر صحيفة، كما أسّس في عام 1924 الحزب الوطني الفلسطيني وانتخب رئيساً له، كما انتخب رئيساً لمؤتمر العلماء في فلسطين عام 1944، ويعتبر أحد شعراء القومية العربية والوطنية في فلسطين، ينفجر شعره حماسية وخطابية، لقب ببدوي فلسطين ومعري فلسطين.

(********) مهندسة معمارية، وأستاذة جامعية تُدرس الهندسة المعمارية في جامعة بيرزيت، آمنت بأهمية الموروث المعماري الثقافي، فساهمت مع آخرين بتأسيس مركز المعمار الشعبي «رواق» في عام 1991 في رام الله، لها عدة مؤلفات منها: البلاط التقليدي في فلسطين، وزلزال في بيسان، وعمارة قرى الكراسي في تاريخ الإقطاع في ريف فلسطين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وغيرها، وهي أيضاً مؤلفة كتاب خارج مؤلفاتها الهندسية نال شهرة عالمية، عنوانه «حماتي وشارون» من جزأين كتبته باللغة الإنجليزية، روت فيه قصصا من حياتها وحياة زوجها وأصدقائها، عكست بأسلوب ساخر أساليب الاحتلال أثناء تعاملهم مع المدنيين الفلسطينيين العزل، وقد ترجم هذا الكتاب إلى 19 لغة وتحولت مادته إلى مسرحية لاقت إعجاب المشاهدين.

(********) كانت مقراً للحاكم العثماني، وقد اشتراها في وقت لاحق علي سمارة جد إسكندر من أمه الذي كان قواساً للمبعوث النمساوي في القدس.

(********) أعد الدراسة ناصيف معلم، بعنوان «هل الاستقلال الاقتصادي بوابة للتحرر السياسي؟» وقد تطرق فيها إلى هذه الآراء كما قلتها مشيراً إليّ ضمن مصادره التي اعتمد عليها في الدراسة، وقد نشرت الدراسة في كتاب ضم وقائع المؤتمر الرابع عشر للمركز الفلسطيني لقضايا السلام والديموقراطية.

(********) تُفيد المصادر الكثيرة أنّه هو أبو عمران موسى بن ميمون بن عبد الله القرطبي، ولد في قُرطبة في القرن الثاني عشر الميلادي، من عائلةٍ يهودية مشهورة أصلها من المغرب، انتقلت أسرته من قرطبة إلى مدينة فاس المغربية حيث درس بمدرسة القرويين، وتلقى علومه مباشرة من قبل علماء ثلاثة من المسلمين، كما تلقى علومه عن ابن رشد بشكل غير مباشر حيث عكف على دراسة مؤلفاته طوال ثلاثة عشر عاماً، بعدها انتقلت أسرته إلى فلسطين عام 1165 م، ثم هاجرت إلى مصر واستقرت فيها آخر الأمر، وهناك عاش حتى وفاته في عام 1204، وقد عمل فيها كطبيب لصلاح الدين الأيوبي.. كان مشهورا في زمانه في مجال الطب، والفلسفة، له كتبٌ كثيرة منها كتاب في الطب اختصر فيه الكتب الستة عشر الشهيرة لجالينوس، وله كتاب شهير باللغة

العربية عنوانه «دلالة الحائرين» يتضمن صدى أفكار فلاسفة المسلمين وعلماء الكلام خصوصاً الأشاعرة، ويتمحور موضوعه حول توفيق التوحيد مع الفلسفة، وقد كتب عن موسى بن ميمون شيخ الأزهر الأسبق مصطفى عبد الرازق في مقدمة كتابٍ نشر عن حياته ومصنفاته في عام 1936، بين ضمن أمور أخرى أنه يعد من الفلاسفة المسلمين، وأعطى أدلة كثيرة مؤيدة لذلك، كما ذكر الدكتور حسين أتي في مقدمة تحقيقه لكتاب «دلالة الحائرين» أنّ فكره يصدر عن فكر وثقافة إسلامية.

(********) له ومضاتٌ ساطعة تضيء أعمالاً فنية وطنية، لا تهتم بمدينة حيفا فقط، بل بالقضية الفلسطينية بكل تفاصيلها، منها هذا النصب التذكاري، ونصبٌ تذكاري لشهداء قرية كفركنا (قانا الجليل) ونصبٌ تذكاري لشهداء شفا عمرو، ومنها لوحات قصص النكبة «ما نسينا»، ولوحة تحية لحيفا، ولوحة باسم ساعة سقوط حيفا وهي كما يُعرّفها «عبارة عن ساعة قديمة لا تقرع أصواتها، كما الحال في ذاك اليوم المشؤوم من حياة الفلسطينيين في حيفا، بقيت عقاربها كما هي ولم تواصل العمل».

تستحوذ علي الذكريات وتشُدني إلى أتلام جذوري البعيدة، تلوح أمامي دوماً بأضواء متوهجة، وكلما أُقَرِب إلى نفسي أمراً منها بعد مضي عقود طويلة، تدغدغني رغبة عارمة لنقشه في سطوري.. وتجدني أمسك قلمي بين الحين والحين وأنثر على أوراقي حروفي الصغيرة، أكتبها في نظرة استرجاعية حرفاً حرفاً، أجمعها وأُحْيي فيها بعض أيامي الماضية، كنت فيها غير أنا الآن.. كنت فيها في وطني، أنام فيه وأصحو على مقربة من أنفاس والديّ الدافئة.

(من مقدمة المؤلف)

ISBN 978-9953-71-983-2

9 789953 719832